طرق مغطاة بالثلج

عن

الصادق النيهوم



جمع واعداد وتقديم

سالم الكبتي





طرق مغطاة بالثلج

عن

الصادق النيهوم

جمع واعداد وتقديم

سالم الكبتي

طرق مغطاة بالثلج
عن الصادق النيهوم

سالم الكتبي





طرابلس
الجماهيرية العربية الليبية
الشعبية الاشتراكية العظمى

بيروت ــ لبنان

ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103

بيروت - لبنان

Email: arabdiffusion@hotmail.com

الطبعة الأولى 2001

المحتويات

آراء وانطباعات

دراسة

بعض من رسائله:

الحوارات:

الملاحق:

إهداء

إلى طفلي (حسين)
بهجة الأيام واشراقتها
سالم

مُفتتح

«تراه على أي نهر مسجى
وفي حلم أية صحراء تراه
كأن به لوثة من حنين
ومساً من العشق،
يلقي بجثمانه مثل ذكرى
ويفتح باباً يؤدي إليه
ويقصد كل اتجاه
جميلاً يجيء بغيماته
بالحقول المساقة للرعي بين يديه،
بما يتناثر منه على الطرقات
جميلاً.. ومهترىء الانتباه
هو المارق الأبدي،
له عبق ..
ليس تخطئه العاكفات على نسج ثوب الخطاه

هو الغائب المر..
كيف التفت تراه!
فمن لمّه من مجون المسافة
من أوقف الوقت تحت خطاه،
وهيأ غاراً له
واصطفاه!
ومن خدّد الجمر
حتى تسيل به روحه
ويداه؟
أنبت إليه،
توضأت بالذاريات
وفي غاره المتلفت خوفاً
أقمت الصلاه!..»

الشاعر (طاهر رياض)
من ديوان (العصا العرجاء)

تقديم

(طائر الحلم.. النيهومي!)

يظل الصادق النيهوم واحداً من الكتّاب الذين يثيرون الجدل والخلاف حول إبداعاتهم وآرائهم لفترة طويلة، فهو ككاتب، أطلّ على القارىء في ليبيا للمرة الأولى منذ الستينات من القرن العشرين، تميّز بذلك الأسلوب البديع والساحر الذي ربما أسر الكثيرين وشغفوا به، واتفقوا ـ وإن اختلفوا في التفاصيل ـ على أنه طور من (فنية المقالة) وجدد من إمكانياتها بالصورة التي برع في كتابتها وانطلق بها إلى فضاءات رحبة من شرنقة أشكالها السابقة المرتبطة بأسلوب المدرسة التقليدية.

ولد النيهوم سنة 1937، في بنغازي المطلة على البحر المتوسط والتي شكّلت بنسيجها الاجتماعي الحضري والبدوي مركزاً تجارياً تتقاطع عنده كثير من الطرق.. وتلتقي، ونشأ وسط حي شعبي شهير (حي سوق الحشيش)[1]، الذي شهدت الأزقة المؤدية إليه حياة ونشأة آخرين سيغدو بعضهم، فيما بعد، من الأدباء والفنانين مثل عوض عبيدة، ويوسف الدلنسي، وطالب الرويعي، وعبد السلام قادربوه، وخليفة الفاخري، وأنيس السنفاز.. وغيرهم، وقد حُرم من أمه التي توفيت بعد ولادته

---

(1) أطلقت هذه التسمية على السوق لأنه مكانٌ لبيع الأعشاب والحشائش، مثل البرسيم وغيرها مما يجلب من الريف القريب من بنغازي.

مباشرة، فأخذ يرسمها في خاطره وظل يزهو، بين حين وآخر، في شبابه بجذورها العائدة إلى قبيلة (بني صنهاجة) عندما يعن له ذكرها بين رفاقه، وكان والده من الذين عملوا في البحر وسافر إلى العديد من مرافيء العالم، ثم اشتغل بالتجارة وأصبح عضواً نشطاً في (رابطة الشباب) التي أطلقتها مخاضات سنوات الأربعينات من القرن العشرين في ليبيا لتوازي، أو ربما لتواجه، جمعية (عمر المختار) في ذلك الوقت، ثم في فترة لاحقة، رئيساً لنقابات العمال فيما تحاول مجموعة أخرى تأسيس نقابة ـ مضادة ـ من العجيب أن يكون، النيهوم الابن، على رأس المتعاطفين معها. ويكاد هذا هو الأمر الوحيد الذي أثار حماسه واندفاعه في مطلع شبابه، من بين الأمور والقضايا ذات الشأن العام، إذ لم يلاحظ عليه انتماؤه أو انغماسه في أي نشاط سياسي أو رياضي يذكر في تلك الفترة.

وطيلة هذه الحقبة إلى وفاته في جنيف سنة 1994، عاش النيهوم حياته وتجاربه المختلفة سواء عبر إقامته ودراسته من المراحل الأولى إلى الجامعة في بنغازي، ثم إقامته أعواماً في الخارج بدءاً من سنة 1963، التي كانت في واقع الأمر، بداية الصدمة له، وخلقت منه كاتباً، رغم بداياته البسيطة والمتواضعة والتي كان يوقعها باسم (صادق) وكأنه على استحياء، فهذه الفترة التي قضاها في أكثر من بلد في الخارج ثم استقراره وزواجه في هلسنكي بفنلنده، فتحت عينيه على أبعاد أخرى من الحياة.. من خلال دراسته العليا في اللغة، والسفر الدائم بين المدن والبلدان، والثقافة المستمرة التي بدأت بذرتها قبل ذلك في بنغازي من خلال تراجم (منير البعلبكي) وتأثره بها، وقراءاته أعمال الكثير من رواد الإبداع الإنساني في مختلف المجالات وحول كثير من الهموم، واستلت من أعماقه كل ذكريات الطفولة المحزنة التي عاشها وجيله إثر سنوات الحرب العالمية الثانية بما حملته من مرارة وفقر وانكسار، وجعلته يعيش في منطقة الوسط تماماً، فمن ناحية هناك أمام بصره عالم يختلف عن عالمه الأول وحياة أخرى تختلف بالمرة عن حياته، عالم يعيش حريته ويسابق الزمن ويبتكر ليصل إلى أجواء الفضاء، ويموج بمختلف التيارات والأفكار والمتناقضات والأشياء

الحسنة والرديئة.. والتقدم المذهل، لكنه يمتلىء إلى حافته بمظاهر الاستعلاء على الآخرين والخواء الروحي.

ومن ناحية أخرى هناك واقعه ومجتمعه الذي يشكو التخلف والأمية الفكرية والتأخر في المجالات كافة قياساً بذلك العالم.. وتلك الحياة، ولعلّ هذا الموقف عاشه عديد المثقفين العرب وصدمهم صدمات خطيرة وشكّل لهم أزمة قوية وانبهر بعضهم به جراء هذه الصدمات، لكن النيهوم، وربما آخرين شاركوه هذا الشعور، ظل يرى إلى أن الغرب بمقوماته هذه.. وبقوته الجبارة يستند إلى حضارة عرجاء سحقت الإنسان وحوّلته إلى مجرد رقم في طابور طويل.

لقد تشكلت تجربة النيهوم ككاتب من خلال واقعه المحلي.. طفولته.. أصدقاؤه.. ظروف حياته.. مجتمعه.. ومن بدايات اختمار الوعي بضرورة تحقيق شيء وتقديمه للآخرين، في الثقافة السائدة في ذلك المجتمع.. الطفرة التي بدأت تحدث مع اكتشاف النفط وانعكاساتها.. وغير ذلك من عوامل مهمة لها تأثيرها، ثم استناده دون انبهار أو تقليد إلى قيم ومثاليات عاشها في مجتمع بعيد عن واقعه، فشرع في تلمس كثير من القضايا الفكرية والاجتماعية بجرأة فاجأت البعض في ذلك الوقت، في بلد هو ليبيا، وكأنه يحاول النهوض بتأسيس (مشروع خاص به) وإن كانت ملامحه في بعض الأحيان غير واضحة، ومشوشة أحياناً أخرى، معتمداً في ذلك على المقالة الساخرة، والرمز الذي جعله (لحظة عامرة بالخلق الفني)، والدراسات المتنوعة عن المرأة والديانات، والكلمة والصورة، وبعض الشعراء العرب المعاصرين مثل عبد الوهاب البياتي، ونزار قباني، ومحمد الفيتوري، محاولاً من خلال ذلك إيصال أفكاره ومؤمناً بأن (التعامل مع الحروف مهنة معقدة)، وإن (الخلق الفني يحتاج إلى موهبة على الدوام).

البعض نظر إلى هذه التجربة الجديدة ـ التي طرأت فجأة ـ بفرح.. وحذر أيضاً: الفرح لأن الساحة الأدبية في ليبيا في ذلك الوقت كانت تخطو في سبل غير ممهدة.. وتستكشف الدروب وتحاول، بهدوء، أن تضع

بصمات لشخصيتها المميزة وسط باقي الطرق والتيارات المعاصرة، كسبت عبر السبل والدروب، كاتباً شاباً جديداً، يتقد حماسة ويملك موهبة وأدوات فنية ولديه ما يقوله ويطرحه ويبحث عن مواقع الصدام ويناكف باستمرار ويرمي بأحجاره وسط مسارب المياه الساكنة.

والحذر.. الحذر ـ بدرجات متفاوتة مما يطرحه بشجاعة ويشكل هاجساً يلح على كتاباته من خلال فكرة تكاد تكون واحدة وتطغى عليها باستمرار، ومتابعة تنامي صعوده المستمر وانتشاره الواسع من خلال حضوره الذي يكاد يكون يومياً ـ رغم وجوده في هلسنكي ـ في صحيفة «الحقيقة» الصادرة في بنغازي.

هذا الفرح.. هذا الحذر سيعطيان فيما بعد لتجربته زخماً وحرارة سواء اتفق معه البعض أو اختلف وستكتسي هذه التجربة، بفضل تعاطف القرّاء والترحيب بها عموماً ـ رغم أوجه الخلاف والاختلاف، بأبعاد وألوان متنوعة، فهي إذن لم تكن وليدة الصدفة، ولم تكن ضربة حظ، ولم تكن بعيدة عن الواقع والبيئة رغم أنه عايش جزءاً كبيراً منها، كما أسلفنا القول، في الخارج، إن جذورها واهتماماتها هنا.. في الواقع.

لقد كانت تجربة النيهوم خليطاً ضخماً من الرؤى، ورصيداً واسعاً من الحلم بتغيير الواقع والإنسان وصولاً بهما إلى الأفضل دائماً، وهو حلم كل فنان نبيل ينزف إبداعاً وينحت معاناته من قلبه في كل مكان من العالم، ولا شك أن الدارسين والباحثين والنقّاد سيجدون بعضاً من ذلك عند دراسة تلك التجربة ونقدها.

إن جيل القرّاء من الليبيين الذي عاصر كتابات النيهوم، واستأثرت مقالاته. ودراساته، وآراؤه الجريئة ـ إلى حد الشطط ـ وتراجمه، باهتمامه ووعيه، كان في تلك الأيام من الستينات يتحرق شوقاً وتلهفاً، في انتظار تلك الكتابات، وهو ذلك الجيل الذي أحس بطريقة ما، بأن تلك التجربة وتلك الكتابات المتلاحقة تتحدث بلسان حاله، وتتحدث عن واقعه، وعن رؤاه.. وعن همومه وأحلامه، رغم ما علق بها من سخرية ومن ضبابية. لقد كان النيهوم بهذا الشكل الفارس الوحيد في الميدان في تلك الفترة

طاغياً على كل ما سواه، متجاوزاً العديد من غيره من الكتّاب الذين ربما لم تتح لهم هذه الفرصة في التواجد والحضور اليومي المستمر.

وهذا (التفرّد) أو (الشيء الذي لم يكن مألوفاً) عزز في الواقع من مكانة ودور الحياة الثقافية والأدبية في ليبيا في تلك الفترة، وأثرى تجاربها السابقة التي تستحق الاحترام والتبجيل في كل الظروف، وقوّى من فاعلية ونشاط تلك الحياة حيث طورت من مسارات الحركة الثقافية الدؤوبة وفتحت لها مسارب عدة، والتقت بها ولم تظل بمعزل عنها.

في تلك الفترة، لم يسمع المثقفون والمبدعون العرب بالنيهوم، لم يقرأوا له، ولم يتعرفوا عليه، فيما عدا ـ البياتي ـ الذي أعجبته حلقات دراسته عن ديوانه (الذي يأتي ولا يأتي) والتي أطلعه عليها أحدأصدقائه الليبيين فأشار بأن النيهوم تجاوز في دراسته كل المتوقع.. ومضى إلى أشياء لم تخطر بذهن الشاعر وعدّه دارساً وناقداً أدبياً ممتازاً. إضافة إلى أغلب القرّاء العرب ـ سوى قلة منهم ـ من الذين كانوا يعملون في ليبيا من المدرسين والأساتذة، رغم أنه كغيره من المبدعين العرب، حمل هم المواطن العربي في كثير من مقالاته ودراساته خاصة بعد وقوع الانفجار العنيف ـ نكسة 1967 ـ، ولكن لم يكن ثمة التقاء، وعندما شرع النيهوم في الكتابة فيما بعد خارج ليبيا في بعض المجلات وصدرت له مؤلفاته التي أثارت العديد من التساؤلات والحوارات، أدركوا أهميته ـ في لحظة متأخرة ـ على صعيد طرح الأفكار وعرض الآراء، ودفاعه عنها دون تعصب أو أحكام مسبقة، واحترامه لرأي الآخرين مهما اختلفت.. وتنوعت، وتساءلوا أيضاً ـ لأنهم فوجئوا بـإطلالته عليهم أيضاً ـ عن موطنه وأصوله وجذوره الفكرية والثقافية، وحدث تخليط ـ بعض الأحيان ـ إلى درجة أن البعض لم يحسبه (ليبياً) كأنه استكثر عليه ذلك، أو من العجب أن يكون من ليبيا ولم يتصور أو يعرف أنه تخرج في كلية الآداب من (الجامعة الليبية) سنة 1961 وليس من جامعة القاهرة كما ورد في إحدى المجلات التي كانت تفاخر بأنه من أهم كتّابها حتى تاريخ وفاته!

ولعله يوجد عذرٌ لهذا التخليط وربما يرد إلى العزلة التي تعيشها الثقافة

العربية ـ في الوطن العربي ـ ويحس بها المثقفون والمبدعون العرب لأسباب ليس هنا مجال التعرض إليها، وقد حدث الأمر ـ وهو ليس هيناً ـ وما زال يحدث للأسف لعديد منهم حين وصل نتاجهم المهم في وقت متأخر عن موعده إلى القارىء العربي باختلاف مستوياته العلمية والثقافية وأماكن تواجده.

لقد أثار النيهوم مبكراً بعض القضايا والمواضيع بين قرائه في ليبيا والتي ستهم المواطن العربي فيما بعد، وسبق آخرين إليها، وعندما تعاد قراءتها الآن (على سبيل المثال) يكتشف المتابع أنها مازالت من القضايا المسيطرة على حياتنا الفكرية العربية وتقع في صدارة اهتمام المثقفين والمفكرين على تنوع اتجاهاتهم ومشاربهم.

إن بعض القرّاء العرب، عندما وصل إليهم نتاج النيهوم وتابعوا اجتهاداته وشاطروه الرأي، أو اختلفوا معه، شعروا بأنهم أمام واحد من الساعين إلى التطوير والتحريك رغم معرفتهم ـ المتأخرة بأفكاره ـ وإن بدت مشوّشة أو غير واضحة أحياناً ـ وتواصلهم معها، أو افتراقهم عنها. وبرحيله المبكر شعروا أيضاً بأنه حاول إيصال ما لديه.. لكنه لم يكمل مسيرته ولم يتوقف عند الضفة التي أرادها، ولذا فإن تلك (الاجتهادات) و(الآراء) ظلت مجرد مشروع ناقص لم ينته النيهوم منه، وأعتقد أن العمر لو أسعفه كان سيصل، رغم تعثر تلك الاجتهادات، إلى نقطة يقترب فيها وكل من اختلف معه.

* * *

من هو (الصادق النيهوم) إذن؟

وماذا لو لم يكن (ليبياً).. أعني لو كان من الشام.. أو من مصر مثلاً، وأتيحت له فرص الاقتراب من القرّاء في فترة مبكرة.. وتمّ الاحتفاء به على العادة المألوفة؟

إن هذا الكتاب ـ وهو بالأساس فكرة ملف أعددته عنه عقب وفاته ونشر بمجلة الثقافة العربية الصادرة في بنغازي في عدد (آذار/ مارس ـ نيسان/ إبريل 1995)، ثم طور ليصبح بهذا الشكل، يأتي ضمن محاولة

لتقديمه إلى قرّائه العرب والتعريف به والكشف عن بعض جوانب حياته وآثاره والإلمام بها، وللإجابة عن الأسئلة التي مازالت تثار حوله، ولعل بعض الباحثين والدارسين لتلك الآثار والمهتمين بنقدها وتحليلها، يجد، سواء في نقاط الالتقاء أو الافتراق، إضاءات تميط اللثام عن نشأته وبداياته وتجربته وهي ـ دون شك ـ جوانب مهمة في حياة أي فنان يظل الدارس أو الناقد في حاجة ماسّة إليها حين يتصدى بالبحث والدراسة والتحليل في تلك الجوانب والملامح.

ولتحقيق هذا الغرض رأيت أن يكون الكتاب من حاصل النقاط الآتية:

أولاً: سيرته الذاتية السريعة (1937-1994)، ثم بعض الآراء والانطباعات أو الشهادات لبعض مجايليه من أصدقائه، وهم في الغالب كتّاب من ليبيا تابعوا تجربته في الكتابة منذ البداية، أو غيرهم ممن تابعوها في مرحلة لاحقة.

ثانياً: مختارات من بعض أعماله نشرها في صحيفة (الحقيقة) الليبية الصادرة في مدينة بنغازي خلال الفترة من (1964-1972) وتمثل نماذج من المقالات، والدراسات والقصص التي كتبها طيلة هذه الأعوام وتميز فيها كما أسلفنا بأسلوبه وعرضه الشائقين، وتمكنه من اللغة والأدوات الفنية.

ثالثاً: بعض من رسائله(*) التي تبادلها مع أصدقائه، وهي التي بدأ يبعث بها إليهم منذ سنة 1963 ـ أول خروجه من ليبيا ـ وتعدّ نسيجاً لوحدها، إذ تلقي وهجاً على حياته وبداية غربته، ويكاد القارىء يشعر بأن بداياته الحقيقية ككاتب كانت من خلال تلك الرسائل، وتفيد في إلقاء الضوء على تجربته وشخصيته، وأنا أدين بالفضل في الحصول على جزء منها لصديقه الحميم، وصديقي الكاتب خليفة الفاخري.

رابعاً: نماذج لبعض الحوارات أجريت معه في فترات مختلفة وعن مواضيع متنوعة، ثم رأيت أن أنهي الكتاب بملاحق تحتوي على نماذج لبداياته الأولى في الكتابة مذ كان طالباً في المرحلة الثانوية، ثم في كلية

(*) مجموعة (رسائل النيهوم) مشروع جاهز للنشر من معد هذا الكتاب.

الآداب في بنغازي، ووثائق ومخطوطات وصور ومسرد ببليوغرافي لأهم مؤلفاته وأعماله الأدبية والفكرية التي أصدرها من سنة 1973 إلى وفاته سنة 1994.

لقد أردته توثيقاً لهذه الجوانب التي يفتقدها القرّاء، خاصة خارج ليبيا، ولعل في إعادة نشر بعض نتاجه ما يصح أن يطلق عليه (قراءة أولى) وليست ثانية ـ لأدبه وكتاباته ولكن برؤية معاصرة.. ومتفهمة حتى وإن حدث خلاف مع ما سلف قوله، ولعل في ذلك ما يحفز إلى الشروع في دراسة النيهوم والاهتمام به دون عاطفة لا لزوم لها، أو إعجاب زائد عن الحد، وكذا دون سوء قصد أو نية.

إن النيهوم عاش تجربته ثم رحل.

ويبقى لدى الكثيرين هاجس الحلم بـإنجاز نشر أعماله الكاملة الذي لا شك يسد نقصاً في المكتبة العربية، وهو مشروع مهم ينبغي أن يتحقق ليقال فيه ما يمكن القول بعناية وأمانة كاملتين.. وتحت كل الظروف.

سالم الكبتي

بنغازي 15/6/1996

رحلة الأعوام

سيرة ذاتية في ثبت مختصر (1937-1994)

1937	ولادته في حي سوق الحشيش (بنغازي) - وفاة أمه.
1939-1945	- سنوات الحرب العالمية الثانية - بنغازي تتبادلها القوات المتحاربة بالقصف والهجوم. أغلب الأسر تلجأ إلى خارجها - سنوات الطفولة.
1947-1952	- يتلقى التعليم في جامع الحي ثم يكمل الدراسة الابتدائية بمدرسة (الأمير) سابقاً.
1952-1957	الدراسة بمدرسة بنغازي الثانوية للبنين - القسم الأدبي (كان نظام الدراسة آنذاك خمس سنوات) ينشر أول محاولة في الكتابة بمجلة المدرسة في أحد أعدادها سنة 1956 بعنوان (شعب يكتب تاريخه بالأغنية).
1957-1961	التحاقه بكلية الآداب والتربية قسم اللغة العربية في بنغازي، من أساتـذته في هذه الفترة د .محمد عبد الهادي أبو ريده، د .محمد طه الحاجري،

- ينشر دراسة (الرمز في القرآن) سبع حلقات - ثم يوقف نشرها.

- يترك العمل كمعيد بالجامعة الليبية.

- من خلال تواصل نشر نتاجه اليومي والأسبوعي الغزير أصبح يمثل ظاهرة أدبية مقروءة وجديدة، وظل هذا النتاج يثير اهتمام القرّاء بمختلف مستوياتهم ونقاشاتهم، سواء مع أو ضد، في كل ما يطرحه.

1968 - يزور تونس ويكتب عنها في شهر تموز/يوليو.

- يحضر مؤتمر الأدباء والكتّاب الليبيين في طرابلس الذي نظمته اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب في تلك الفترة.

- تجري معه الإذاعة أول لقاءات إذاعية، ويسجل لها أحاديث أدبية كما تنشر له مقابلات لأول مرة في بعض الصحف والمجلات المحلية.

- في أواخر العام يشارك ضمن وفد أدبي ليبي في ملتقى كتّاب القصة في المغرب العربي المنعقد في تونس.

1969 - يحضر مؤتمر أدباء وكتّاب المغرب العربي في طرابلس، ويلقي فيه بحثاً بعنوان (نقاش مشاكلنا).

- ينشر دراسة (العودة المحزنة إلى البحر).

- ينشر قصص الأطفال وعددها سبع قصص ويهديها إلى طفله «كريم».

1970 - يشارك في ندوة الفكر الثوري بطرابلس.

- ينشر رواية (من مكة إلى هنا) ويعقد حولها ندوة موسعة في صحيفة «الحقيقة» يحضرها كتّاب الصحيفة.

- تذاع له وبصوته دراسة (الموت في الحياة) - ديوان البياتي - في حلقات قصيرة.

1971 - يتم اختياره عضواً في اللجنة التأسيسية للاتحاد الاشتراكي العربي في محافظة بنغازي، ويحضر أول لقاء تعقده اللجنة بالمواطنين في نادي الهلال. بنغازي.

- يكرم في عيد العلم الثاني بطرابلس.

1972 - يعين أميناً للفكر والتثقيف بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي في ليبيا.

- يعين عضواً بلجنة التعليم والعلوم والثقافة والإعلام الخاصة بالوحدة الاندماجية بين ليبيا ومصر.

- مجلة (جيل ورسالة) الصادرة عن كشاف ليبيا تصدر عدداً خاصاً به مع مجموعة من (قصص الأطفال) في كتاب.

- يحضر جانباً من ندوة التشريع الإسلامي التي عقدت بمدينة البيضاء.

- يكتب بعض المقالات في جريدة (الشورى). طرابلس.

1973 - يشارك في مؤتمر الأدباء والكتّاب الليبيين في بنغازي.

	ـ صدور كتاب (فرسان بلا معركة) و(تحية طيبة وبعد) عن (دار الحقيقة)، يحويان بعض المقالات والدراسات.
	ـ يكتب (نقاش) في طبعة محدودة التداول.
1975-1974	ـ يقيم في بيروت ويكتب أسبوعياً في مجلة (الأسبوع العربي).
	ـ يشرف على إعداد وإصدار مجموعة (عالمنا. وطننا. صحراؤنا. أطفالنا. طعامنا) ضمن (سلسلة الكتاب في بيت) مع صديقه رشاد الهوني.
	ـ صدور رواية (القرود) عن دار «الحقيقة» بنغازي.
1976	ـ يستقر في جنيف (يتزوج فيها بعد فترة من زوجته الثانية ـ فلسطينية الأصل) ويؤسس دار (التراث).
1977	ـ يصدر مجموعة (تاريخنا) في (6) أجزاء عن دار التراث.
1979	ـ ينشيء دار المختار في جنيف ويشرف على إصدار (أطلس الرحلات) في (8) أجزاء.
1983-1980	ـ يكتب ويعد حلقات البرنامجين المرئيين (الشعب المسلح) و(لكي لا ننسى).
	ـ يشرف على إصدار موسوعة الشباب المصورة في (8) أجزاء.
	ـ يشرف على تنفيذ وتحرير (موسوعة السلاح المصورة) ـ إصدار إدارة التوجيه المعنوي.

- صدور موسوعة (بهجة المعرفة) بإشرافه وتحريره عن منشأة النشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس.

1984 - صدور رواية (الحيوانات) عن منشأة النشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس.

1987 - صدور كتاب (صوت الناس) في طبعته الأولى عن دار (رياض نجيب الريّس للنشر) في لندن.

1988 - يبدأ في الكتابة بمجلة (الناقد) منذ صدور أعدادها الأولى في لندن ويستمر في الكتابة بها حتى وفاته.

1991 - يساهم في الكتابة بمجلة (لا) الصادرة في ليبيا.

- صدور كتابه (الإسلام في الأسر) في طبعته الأولى عن دار (رياض نجيب الريّس) في لندن.

- إصابته بأعراض (سرطان الرئة)، تستأصل إحدى رئتيه إثر عملية جراحية في جنيف.

1992 يشارك في ندوة فكرية بطرابلس.

- يكتب في مجلة الشهر الصادرة في دمشق.

1993 - يأتي في آخر زيارة لليبيا معزياً في وفاة صديقه (رشاد الهوني) الذي اشترك معه في إعداد وتحرير كتاب (النهر العظيم) في نفس السنة.

1994 - يدخل للعلاج أكثر من مرة في مصحات جنيف.

- ينشر آخر مقالته في مجلة «الناقد».

1994/11/15	ـ وفاته صباحاً بالمستشفى في جنيف.
1994/11/19-18	وصول جثمانه جواً من سويسرا إلى مالطا ومنها بحراً إلى طرابلس ثم إلى بنغازي.
1994/11/20	ـ تشييع جنازته في (مقبرة الهواري) ببنغازي (مسقط رأسه).
	ـ بعد وفاته يصدر عن دار (رياض نجيب الريّس) كتابه الأخير (إسلام ضد الإسلام).
1995/1/13	ـ كتبه الثلاثة (صوت الناس ـ إسلام في الأسر ـ إسلام ضد الإسلام) تصادر في بيروت ـ لبنان.
1995/1/15	ـ وفاة والده السيد (رجب النيهوم) عن عمر يناهز التسعين.

انطباعات . آراء

آلات ناسخة وأقلام مزيفة

رشاد الهوني(*)

بين الصديق والأديب كامل المقهور(**) وبيني، كان هناك حديث مبعثر حول الفنان والبيئة.. والقضايا. ولقد أدخلنا إلى هذا الحديث.. كلام حول صادق النيهوم وسنوات غربته وكان لدى كامل إحساس بالخوف، أن يبتعد كاتبنا عن الواقع الليبي عبر غيابه الطويل عن بلده، وعبر عزلته الكاملة عن الأرضية التي ينبت فيها مستقبلنا، ورغم أن رأي الأستاذ كامل فيه كثير من الحقيقة.. إلاّ أنني فوجئت بسؤال مرير ينهض في رأسي بعد افتراقنا.. وماذا أدى الكاتب الذي يعايش جميع القضايا في بلادنا.. الآن!

إن الكاتب الليبي غير واضح وغير موجود.. بالمفهوم الكامل

(*) كاتب وصحفي ليبي، كتب الشعر والقصة في مطلع حياته الأدبية. وبرع في كتابة المقالة الصحفية، عمل مديراً لصحيفة «الحقيقة» الصادرة في بنغازي خلال الفترة (1964-1972) بعد تأسيسها مع شقيقه المرحوم (محمد بشير الهوني)، لعب دوراً بارزاً في الاهتمام بنتاج النيهوم الذي يرتبط بعلاقة وثيقة معه، وهو أول من قدمه للقراء من خلال الرسائل التي تبادلاها معاً. ثم تعاونا فيما بعد على إصدار بعض الموسوعات مثل (سلسلة الكتاب في كل بيت) وغيرها، توفي ببنغازي سنة 1993.

(**) من رواد القصة في ليبيا، له مجموعات قصصية أهمها (14 قصة في مدينتي) و(الأمس المشنوق). وسيرة ذاتية بعنوان (محطات).

للكاتب وغير مؤثر في مختلف الاتجاهات القائمة، وغير معبّر عن كل أو بعض المعارك الصاخبة الدائرة حوله وغير قادر على المشاركة الفعلية في بناء مجتمعه، ولقد حدث كل هذا رغم وجوده هنا أمام كل الهجمات الخطيرة ووسط كل التفاصيل الحزينة وبين المد والجزر الذي يتقاذفنا.. إنه ـ هنا ـ وقع في فخ الوظيفة.. واشترك في معركة الكسب والادخار. وتحول إلى آلة ناسخة تتساقط منها أوراق مزيفة!

إن الكاتب الليبي ـ رغم وجوده هنا ـ ضاعت ملامحه.. واختلت موازينه.. ولم يعد في مقدور أحد أن يميز شيئاً في سوق الأدب والكتابة والنقد. لقد نهض ألف مدع.. وألف كيس محشو بالقشور.. وألف مغرور وموهوم، وألف إنسان لم يجد ما يفعله فامتطى فراغه ومضى يكتب، ويقيّم، ويحكم، ويطلق كلماته في مختلف الاتجاهات، دون أن ينتصب في وجهه الأديب الحقيقي الذي هو موجود هنا، وخلال السنوات الأخيرة تفجرت في أرضنا مليون مشكلة، ومليون قصة، وانقلبت الموازين، والسنح، وتجمدت في مكاتب الخبراء ملايين الأرقام التعسة التي تحتاج إلى الكاتب والأديب لفرزها، وإلباسها الثوب الذي تظهر به لأعين الجميع. ولكن ذلك كله كان في واد، وكاتبنا في وادٍ آخر.. ولكن هنا في هذا البلد.

إذن .. ما هي الجدوى؟

وهل هو المناخ ـ مناخنا ـ الفاسد الذي لا يترعرع فيه الكاتب؟ وما هو الضرر الذي يلحق بكاتب كصادق.. يعيش فيه عزلة عن مجتمعه؟

لعله الواقع وحده هو الذي يحدد وجود الكاتب هنا من عدمه

فالارتباط بالبيئة، ومعايشة الظروف، والاحتكاك بالأحداث، واستعمال أساليب النقل والتعبير، كل ذلك ضروري بالنسبة لكاتب وجد نفسه، وأصر على استخدام إمكانياته، ولم تستطع ظروف حياته أن تفسد إبداعه، أو تهلهل مفاهيمه كما حدث للكاتب في بلادنا. وحين كتب لي صادق يوماً، معبراً عن رغبته في العودة، نهض في أعماقي خوف شديد، على موهبته الفذة، ونبوغه العظيم، وإبداعه المتواصل الذي لا يتوقف. إنه بعيد عن مجتمعه.. هذا صحيح.. ولكن الابتعاد في حد ذاته وسيلة طيبة للحفاظ على كنوزه من أن يفترسها الملل، أو تمزقها أصابع الميوعة.

إنه بعيد.. ولكنه كفنان أصيل، استطاع أن يستدعي كل ذكرياته القديمة عبر شوارع سوق الحشيش، والصابري، وأن يعالجها، ويستنهض من أعماقه حصيلة غالية من القصص الحزينة، والتفاصيل المؤلمة ليجد خلالها طريقه في الحديث إلينا. وهو وإن كان هنا يتنفس من خلال رئة واحدة.. فهو هناك يتنفس من خلال رئتين، حين تتجسد أمامه المقارنة الفظيعة بين ما يحدث هنا وهناك.. فيجد منطلقه الحقيقي في التعبير عن احتياجاتنا ونواقصنا.

إن صادق.. هو أحد شباب ليبيا.. الذين فتحوا عيونهم على الفترة الزمنية الواقعة بين عامي 1945، 1955 وهي فترة لن ينساها أحد منهم، لأنها اكتظت بكل النتائج، وكل الواقع المثخن بالجراح.. وكل الاندهاش الناتج عن المفاجأة، وكل الصخور النائتة في الطريق، وكل الحيرة، والضيق والخوف الذي اتسمت به خطواتنا تلك الأيام، إذن.. فحصيلة الصادق.. كواحد من شباب تلك الفترة.. حصيلة ضخمة تتواثب أمام عينيه، وتضطرم بين جوانحه، وتحوم حوله باستمرار ودون انقطاع. وحصيلته كأديب

وكاتب مثقف.. تتضخم.. وتتضاعف آلاف المرات.. عبر حساسيته الخاصة.. وقدرته على الاستيعاب، وحصيلته كإنسان مغترب.. تنطلق من عقالها.. ومن الكوة السحيقة داخل أعماقه.. لتطفح فوق حياته اليومية في مواجهة عالم جديد مختلف هو بمثابة المحك الحقيقي لكل تجاربه.. وذكرياته.

إن حياة الدراسة والتأمل التي يعيشها الصادق.. تعطيه فرصة عظيمة، للرقابة الشديدة المتفحصة، وتمنحه وقتاً ثميناً للاختبار، وتملأ قلبه بالشوق والحب لذلك المجتمع الذي تحول بعض أفراده الطيبين إلى محاربين أفذاذ في معركة القرش، حين انزلقت من بين أيديهم أسلحتهم القديمة الجادة، وبقيت تلك الارتعاشة الملهوفة الصفراء، المشتاقة إلى السرقة.. من أي مكان في سباق مستميت مع بقية الأوباش واللصوص. وأعود فأتساءل: وماذا أضرّ بالكاتب نتيجة بعده عن البيئة.. بيئتنا نحن؟ وماذا قام به الكاتب وهو يعيش في هذه البيئة؟ لقد أغرقنا طوفان الكتابة الركيكة.. وغمرتنا السرقات الأدبية المتكررة، وأصبحنا نبحث عن الكاتب والأديب الذي يعيننا على المضي دون جدوى، ولم يبق لنا أي كاتب عظيم نعده لمستقبلنا العظيم سوى ذلك الذي يعيش في الغربة بعيداً عن بيئته!

فما هو رأي الأستاذ كامل؟ وما هو رأي بقية الإخوة المهتمين؟

(1967)

عناء الكلمات

خليفة الفاخري(*)

«اجعل ما في كتبك رأسمال وما في صدرك للنفقة»

(الفراهيدي)

لم أستطع أن أقول شيئاً.. لقد بحّ قلبي، وظلت الكلمات تتلعثم في خاطري، فيما بقيت عيناي ساهمتين مثل حبتي زجاج، لقد بحّ قلبي.. ولم يعد في وسعي أن أمسد تراب القبر كأني أهدهد طفلاً.

كنت في جنازة أحد الجيران ولقد تركت مراسم الدفن وانسحبت قدماي تجاه القسم الآخر من المقبرة حيث مدافن الذين توفوا في الخارج. جئت إلى القبر (144) إلى المكان الوحيد الذي احتوى أخيراً على جسد الصادق دون رحيل اقتعدت حجراً هناك.. وقلت بعيني:

ـ أهلاً يا صديقي.

(*) كاتب ليبي، شكلت كتاباته وكتابات النيهوم نسيجاً مهماً، تأثر بها عديد القراء في ليبيا. تعود صداقتهما الحميمة إلى سنوات الطفولة، صدرت أعماله الأدبية بعناوين (موسم الحكايات) و(غربة النهر) و(بيع الريح للمراكب).

وطفقت تعبرني أسراب ذكرياتنا معاً. لا أدري كم مكثت هناك ولكنني حين غادرت، لم أجد أحداً من الذين جئت معهم في الجنازة تلفت صوب القبر.. وهمست: وداعاً يا صديقي.

المقبرة ذكرتني بمقبرة (سيدي حسين) المواجهة للغرفة التي كنت أسكنها، وقعدتي هناك بجانب الصادق ذكرتني أيضاً بمقال لي بعنوان (ماذا بعد ذلك؟) وقد نشر بصحيفة «الحقيقة» في 1968/5/25م.

كنت والصادق نكتب مقالينا غالباً في تلك الأيام لـ «الحقيقة» في الغرفة نفسها. والتي حين ولجها ذلك اليوم، كنت قد أنجزت صفحة كاملة من ذلك المقال وبدأت لتوي في الصفحة التالية.

وقف عند كتفي، وأخذ يقرأ ما كتبته بصوت مسموع:

(.. وحين طال أرقي، فكرت في احتمال أنني سأموت غداً. وشعرت بحزن غامر، وقلت لنفسي إنني ما إن جئت إلى هذا العالم حتى متّ فجأة مثل عطسة، وكاد يخنقني البكاء، ثم بدا الأمر مدهشاً حين استعرضت جنازتي المهيبة، ودموع الأصدقاء، وكلمات الرثاء حول القبر المفعمة بالأخطاء والكذب، وابتهاج رئيس مصلحتنا بموتي فهل تصورت أنك ستموت غداً؟

وصاح صادق:

ـ «اخزى» ألم تجد شيئاً آخر تكتبه؟ ألا يكفيك هذه المقبرة التي أمامنا؟

كان يخشى الحديث عن الموت إلى حد الرهبة. جلس على الطرف الآخر من الطاولة، مرتباً أوراقه.. وشرع في الكتابة.. فيما كنت أواجه محنة في فيض كلماتي.

النار مثل أحد الحواة، من دون أن تلتقط أنفاسك، أو تنعم بلحظة رضى مدى العمر.

قال «مارك توين»: (حين أجلس إلى نفسي في شرفة الدار، وأظل أتطلع إلى المراعي المترامية أمامي، تأتيني زوجتي قائلة: حسناً، طالما أنك لا تكتب، تعال وساعدني في عمل البيت. إنها لا تدرك أنني كنت أكتب).

فماذا يقول الصادق؟

لقد بعث لي برسالة من القاهرة في ثلاث عشرة صفحة، مؤرخة في 1965/1/10 أنتقي منها ما يفيض من أتون الكلمات.

إنه يقول:

«.. وفيما يتصل بخداع الكلمات، فإن الأمر يمكن إيضاحه:
هذا الطائر يشرب من أفحوص مليء بماء المطر. صورة غاية في الإثارة، وسيشرع الأصدقاء في اختزانها، ثم يكتبها أحدهم على هذا النحو: « ..ولقد كانت رحلة طويلة قطعها الطائر في صبر، مستعيناً بمئات الأحلام الدافئة، ممنياً نفسه بعش خاص بين جذعي سنديانة.. وإذ رأى إلى انقطاع الشاطىء، وتناثرت قوارير الماء في الصخور أمام عينيه، هوى إلى الأرض واختار أحد الغدران.. وشرع ينعم بالماء..».

ولكن الصورة لا تكتمل أبداً. وإذ يشعر الكاتب بمدى الفجاجة في كلماته، يكون كاتب آخر قد صاغها على هذا النحو:

«كان أكثر رفاقه شعوراً بالظمأ أثناء الرحلة، ولقد هوى عدة مرات ليرطب جناحيه في ماء البحر، بينما انطلق رفاقه مواصلين الرحلة بمهارة أكثر، وإذ بدا الشاطىء أخيراً انطلق هو الآخر في حماسة حتى لقد سبق الآخرين جميعاً.. ولقد نسي فيما هو يغمس منقاره في أفحوص مليء بماء المطر ـ كل آلام رحلته الطويلة».

والواقع أن الصورة لم تكتمل بعد، وإن كان تصوير الرحلة أكثر دقة، وفيما يعاني هذا الكاتب خيبته يشرع الآخرون في إيجاد هذه الصيغة: «ولقد اقتعد أحد الطيور حافة الافحوص، وشرع يشرب في بطء رافعاً رأسه في كل مرة.. وقد انعكست في عينيه صورة الشاطىء، والأمواج، والصخور البنية الناتئة» وهذا كذب كله، لأن عيون الطيور لا تعكس الألوان ولكن التورط في الكذب مجرد خدعة أخرى من جانب الكلمات، وتبقى بعد ذلك ملايين الصيغ الجديدة، ولكن من يستطيع أن ينقل بالكلمات كل ذلك الجمال الذي يجده المرء عندما يرى إلى أحد الطيور يشرب من أفحوص مليء بالمطر؟ إن ذلك يحتاج إلى كمية من الضوء. والكلمات ـ كل الكلمات في كل اللغات ـ مطفأة مثل عيون الخنازير، وهي غير قادرة بأي حال أن تربط جانبي الحدث الفائر المتوهج الذي يقع بين طرفي الحياة نفسها.

أنا أرى إلى الطائر فيما هو يشرب ماء المطر.. أنا أحمل تاريخاً معقداً والطائر يحمل تاريخاً معقداً هو الآخر.. وكلانا ينظر إلى الأمور من زاوية مختلفة ومعقدة، وهو يشرب الماء وأنا أنظر إليه وكلانا لا يدري لماذا يفعل الآخر ذلك، وبينما يعيش كل واحد منا ظروفاً مغايرة تماماً، ويعاني الحياة على نحو مختلف، نواصل معاً الشعور بأن ثمة إطاراً واحداً يربطنا، وأننا جزء واقعي من وحدة معقدة تمام التعقيد.. فكيف يمكن للكلمات ـ أي كلمات ـ أن تصور كل هذا التعقيد الهائل.. ما الذي يمكن لتلك الكلمات السوداء الأنوف أن تفعله حيال تداخل ملايين وملايين أخرى من لفائف الحياة نفسها؟

الواقع: لا شيء فالكلمات غير قادرة على نقل الشعور، ولكن حل المشكلة يأتي من طريق آخر، وهي حيلة موفقة من جانب

الكتاب ولكنها مليئة بالخداع فثمة كلمات قادرة قدرة لا شك فيها على استثارة الخيال ـ وهو آلة معقدة تعقيداً جيداً ـ والخيال قادر من جهته على أن يضيء.. وهذا يحل المشكلة فجأة والطريقة تقول: ضع الصور بجانب بعضها واكتب ذلك بأكثر الطرق اختصاراً، وتذكر بأن القارىء آلة تضارع الحياة في تعقيدها ثم تجنب منطقة الظل وهذا في الواقع كلام يسهل تفسيره.. فتكرار الصور يحدث تنبيهاً مفاجئاً، وإغراقها بالألوان يحدث فرقعات ذهنية مثل ألعاب عيد رأس السنة، ومن هنا تنشأ ضوضاء الصور.. وتبدأ اللعبة تأخذ طريقها:

دع الطائر ابن العاهرة يشرب، ووجه اهتمامك إلى الطرف الآخر، ذلك الذي يشاهد الطائر. فهناك تكمن فعلاً كل مراكز الصورة.. ولتكن جريئاً إلى أبعد حدود الجرأة في تصور الزمان ذاته لأنه يرتبط بأبعاد الضوء، ولأنه يعطي الصور لونها النهائي.

فالطائر الذي تراه في الظهيرة لا يكون غالباً جميلاً مثل الطائر الذي تراه في الشروق، والطائر الأبيض في بيئة زرقاء، كالبحر مثلاً، صورة غاية في الجمال والدقة لأن ذلك ما يحدث في الطبيعة ذاتها.. والصقر يستحيل تصوره على الشواطىء، ولكن حين تستعير الكلمة إلى خطاطيف الماء.. وتسميها صقور الماء تكتشف فجأة نوعاً آخر من الجمال.. وهذا لب اللعبة، أما مشكلة «الطرف الآخر» فيحسن عرضها بالتفصيل: دع الطائر يشرب، وراقب الآن ذلك الذي ينظر إليه فإن هناك حلاً للمشكلة: « ..وفيما انطلق القارب في الخليج، برزت الشمس فجأة ونفذ الضوء إلى أعماق الماء الداكنة الزرقة، وكان ثمة طائر يشرب من أفحوص عند رأس الخليج: ولقد شرع يراقبه فيما التمعت أمام عينيه صورة الحادث بأكمله..». وهذا ما يسمونه رصف الصور بجانب بعضها وإغراقها

بالألوان. فالشمس ذات لون خاص مختلف عن ألوان المحيط، وعندما ينفذ الضوء خلال الماء يحدث لوناً آخر بالتأكيد، وفيما تتفجر الأضواء والحركة، يقتعد الطائر حافة الغدير في جمود كامل، بينما يتحرك الصياد ليراقبه مستغرقاً في حادث بعيد آخر.. وبذا يحتل الطائر بؤرة الصورة في عفوية مطلقة ولكنها مقصودة بدون شك، وهذا أحد وجوه اللعبة!

.. ولكن ثمة ملايين أخرى من الحيل: «.. وإذ كان يجتاز الغابة طرق سمعه فجأة صوت الأمواج، ولقد خيّل إليه أن ذلك وهم آخر.. ولكنه عندما وقف على حافة الغابة ورأى إلى المحيط أمامه، وضع يديه فوق صدره، وشرع يصلي. وقد ثبتت عيناه في هدوء بالغ على طائر اقتعد أحد الغدران.. وطفق ينعم بالماء.. ولقد نسي إذ ذاك كل ما حدث على طول الطريق، وما كان ليظن أنه قادر على ذلك بأي حال..».

والصورة هنا لجندي هارب من الجبهة، وهي خالية تماماً من الألوان.. ولكنها حافلة بالهدوء، وهي موجزة تمام الإيجاز، والطائر يحتل مركزها بالضبط بعد أن أضيف إليها خط صاعد آخر فيما يختص بالصلاة المفاجئة.

.. وحيلة أخرى: «انظر هناك يا أبي، دع الكنيسة وانظر إلى هناك بجانب ذلك الأفحوص. إن ثمة طائراً يقتعد حافته.. وإنه ليذكرني بالله أكثر مما تذكرني أنت به.. ولكن كيف يمكنني إقناعك بذلك!».

وهنا يوضع الطائر في ملتقى الأطراف جميعها، ويلفت الانتباه إليه بصراخ حقيقي وهذه حيلة من أبدع الحيل.. ولكنها بدون ألوان!

والواقع أنه لا نهاية أبداً لمحاولات الكتاب المتصلة في سبيل تفادي مناطق الظل ولكن الثابت أن الكلمات ما زالت عاجزة ـ بعد كل الحيل ـ عن أن توزع الضوء وأطراف الصور بطريقة سليمة.. والذي يحدث أن الكاتب يلجأ إلى الكذب للخروج من المأزق القاتل، أو يرفض أن يكذب، ويظل يبحث بلا انقطاع، عن طريقة مجدية حتى يحترق ذات يوم.. ويموت في إحدى الحضائر.

أنا ما زلت أطفو في إصرار مثل حوت متعفن امتلأت أمعاؤه بمخزون هائل من الهواء، وما زالت عيناي مفتوحتين.. تجوبان المحيط على مدى البصر، وتصليان من أجل الأصدقاء الذين تقوم الكلمات بخداعهم، وتجذبهم من أنوفهم للدخول في تجارب مضنية، عديمة الجدوى، وبعيدة بعداً لا شك فيه عن منهج السيطرة على الكلمات.

التجربة ليست أصل الكلمة الدقيقة.. ولكنها قلب المشكلة. إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالتجربة وحدها، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً بدونها.. وهي أكثر أسلحة الكلمات حدة وفعالية في مخادعة الأصدقاء. أكبر الكذبات على الإطلاق هي التي تقول «عش أكبر قدر ممكن من التجارب قبل أن تشرع في الكتابة» «لأنه لا وجود لما يسمى: «أكبر قدر من التجارب»، كما أنه لا وجود «لقدر غير قاتل من الموت».

ومن الثابت أنك لا تستطيع أن تكتب تجربة عشتها أنت، لأن ذلك بكلمة واحدة: مستحيل. فأنت لن تخرج من جلدك أبداً، ولكنك يمكنك أن تتحدث عنها ببرود كامل بالنسبة لك نفسك، لأنك، وحدك، تعرف مدى حرارة الحقيقة وصدقها..!

والواقع أن من يسلك هذا الطريق يقضي عمره في جمع

التجارب. وعندما يجلس ليكتبها يكتشف فجأة أنه لم يتعلم كيف يكتب! تماماً كما تتمرن على إنقاذ الغرقى، وتنسى كيف تتعلم السباحة!! أما الذي يسلك الطريق الآخر، ويشرع في الكتابة مباشرة فهو يقترف نفس الخطأ.. وسيجد عمل كاتب عمومي في إحدى المحاكم.. ولكنه لن يكون كاتباً بأي حال!! وهذه هي المقصلة!!

* * *

حسناً..

ماذا بعد ذلك؟!

هل ثمة طريق خارج منطقة الفخاخ هذه؟

لقد بعثت برسالة إلى الصادق ذات يوم، قلت له فيها:

«أردت أن أكون بريميثيوس .. لكنني تعبت.. أنا تعبت.. ولتحترق كل الكلمات في قاع السعير. لقد نفضت يدي من كل ذلك! إنني الآن أحلم، فقط، أحلم ببيت ـ عبر المطر ـ بكوخ ملون، وشمعة، ونار، وزوجة نحيلة تطهو لي طعاماً جيداً.. وكلمتين مبهجتين مثل عيني طفل. أنا ـ أيها الشاه ـ أفكر في الزواج! ثمة فتاة استطاعت أن تتعلق بي أخيراً، رغم رائحة جواربي وسأحرق ـ أقول لك ـ كل أوراقي، وسأرسل لك كل مكتبتي. أنا سأقضي بقية أيامي على عتبة الدار، ألاعب الأطفال، متناسياً حتى أن الشمس تبزغ من الشرق!!..».

رد الصادق برسالة من ميونيخ، بألمانيا بتاريخ 1965/3/25.. يقول في مقطع منها:

«.. إنك تستطيع أن تكون ما تشاء، هذه كلمة قديمة ولكن يتحتم أن تدفع الثمن كله، دفعة واحدة، وبكلمة حدباء مشوهة، وقاتلة، قل لفتاتك: «دعيني وشأني»، ثم انطلق وحدك: اقرأ، ودخن،

واحترق.. واكتب مثل الحصان، واحرث أرض العالم بقدميك، وكن مستعداً ـ بعد ذلك كله ـ أن تفشل في النهاية، أن تكتشف أنك خدعت مثل الآخرين!! وعندما تعود منهزماً وتجد فتاتك مع أحد الخنازير الغرباء، وبيتك يسكنه خنزير آخر، يجب أن تحب هؤلاء جميعاً. أن تحب عالماً تزدريه لأنه أثبت لك مدى ضالتك. أما إذا نجحت فثمة أمر أكثر قسوة: إنك لن تعرف ذلك أبداً. فقد انتحر «فان جوخ» ممتلئاً يأساً، ومات «تولستوي» وحيداً، وأكلت الكلاب جثة «هوميروس»، ودعي «دانتي» بالتيس الأخرق.. دون أن يعرف أي منهم أنه نجح! ولقد تعذب هؤلاء الرجال بفظاعة.. وماتوا بفظاعة أكثر، وكان «جوجان» يبصق دماً، إذ طفق المواطنون البدائيون في الجزيرة يحاولون إنقاذه بحرق أصابع قدميه بالنار، ولقد مات في اليوم نفسه بوجه مجعد مشمئز، وأصابع محترقة مسحوقة العظام! وهؤلاء الرجال يا صديقي حلموا مثلنا: بالبيت، بالأطفال.. بالنزهات الهادئة في الضواحي. ولقد أحبوا مثلنا فتاة أو اثنتين. ولكنهم ذهبوا عندما قرروا ذلك، ولقد كانت رحلاتهم مفجعة. كانوا يجمعون حوائجهم، وينطلقون وحيدين، وكانوا لا يعودون أبداً عندما تعود الشمس والرجال الآخرون.. ويظل أطفالهم ينتظرونهم عند مداخل القرى. وتنساهم فتياتهم، وتخونهم نساؤهم المتعجلات، ويهزأ منهم رواد الحانات والتجار.. ولكنهم يواصلون انطلاقهم، إذ تباع ملابس أطفالهم في المزادات الصغيرة، وتجوع زوجاتهم برهة.. ثم يذهبن مع الآخرين!!».

* * *

حسناً ..

ماذا بعد ذلك؟

أنا أشعر أنني مثل مسمار غائب إلى قبعته في تابوت..

فماذا أستطيع أن أقول لك؟

يا صديقي.. لقد بح قلبي، وتلعثمت الكلمات في صدري، ومثلما تتعثر الكلمات في الحلق، يتعثر الدمع في العين.. أنا ـ يا صديقي ـ مازلت أتعثر مع كلماتي عبر كل المتاهات، وقد تحجر الدمع في عيني منذ زمن طويل ولا أقوى أن أهتز بكاء، أو أن أنكفئ حزناً.. ما أوحش أن يكون حزنك جليلاً متكابراً!

أنا الآن مجرد إنسان يقتعد حجراً عند قبرك، ويمسد التراب هناك في صمت، ثم يقول لك بعينيه: وداعاً يا صديقي!!!

1995

الطريق إلى إنكار الذات

أبو بكر الهوني(*)

من مكة إلى هنا، وليس من هنا إلى مكة، هذا ما أراد أن يقوله صادق النيهوم الأديب الليبي المعروف، والكاتب الذي لم يكتب إلاّ ما يؤمن به، وسواء جاء ما يكتبه موافقاً لآرائنا أو متعارضاً معها، فإن المرء لا يملك إلاّ أن يقدر وجهة نظره لأنه لا يصدر فيما يكتب إلاّ عن اقتناع ذاتي.

وعلى هذا الأساس بدأ نقاش طويل ومثمر بيننا وبينه نحن زملاء القلم، وهو صاحب الفكرة التي جاءت في قصته التي صاغها بأسلوب مشوّق، وحتى حين التقيت به بعد ذلك دار بيني وبينه جدال طويل حول نفس الموضوع، وقد أوضح رأيه بكل وسائل التعبير الممكنة، والتقينا في كل النقاط واختلفنا في نقطة واحدة سأذكرها في النهاية، أما البداية.. فهي تبدأ من النقطة التالية:

(*) كاتب ليبي له مجموعة قصصية بعنوان (5 يونيو حرب أو لا حرب). وهذه المقالة كتبت أثر ندوة عقدت حول رواية من مكة إلى هنا للنيهوم، بدار الحقيقة في بنغازي مايو 1970.

إن الله ليس خارج الذات، إنه لا يقع في نقطة خارجها وإلاّ وجدت مساحة مهما كان بعدها لا يوجد فيها.. إن الله داخلنا، وإذا أردنا رضاه فلا يكون هذا البحث عن وسائط إليه لأنه موجود داخلنا، وإنما بإنكارنا لذواتنا. فحين أنكر ذاتي، وبالتالي أضحي من أجل الكل، ويضحي الكل من أجلي ينتفي الصراع بين بني الإنسان، فأنا لا آخذ إلاّ إذا كنت أكثر احتياجاً لهذا الشيء أو ذاك من الآخرين، بل إنني لا آخذ إلاّ الضروري الذي يمكنني من أن أعطي، فالمسألة ليست أخذاً بدون عطاء، ولا أخذاً بقدر العطاء، وإنما عطاء وما الأخذ إلاّ للتمكن من العطاء.. وبإنكاري لذاتي وإنكار غيري لذاته لا تصبح ذواتنا منفصلة تدور في دوائر منعزلة عن بعضها، وإنما تتداخل مع بعض، فأنا أضحي وبعملي وبرأيي أدفع الآخرين للتضحية، إنهم سيقتدون بأسلوبي ووسيلتي وصولاً إلى غايتي ألا وهي إنكار الذات، وإذا كان الألف ميل يبدأ بخطوة فإن عملي اليوم، وعمل غيري على الطريق إلى التداخل والحب سيوجد المجتمع الإنساني.. المجتمع الذي تزول فيه الأنانية والصراع على الرغبات والشهوات المادية، وتحل محلها التضحية من أجل الكل، وإنكار الذات، من أجل الناس جميعاً، ومن أجل الكون كله.

إن الدين لا يرضى بوجود طبقة تنتفع منه، طبقة رجال دين، تأخذ مرتبات شهرية، وعلاوة سكن، لتعيش من الدين تعطي منه وتفسر منه، لتستلم في آخر الشهر ثمن ما أعطت، الرسول لم يكن رجل دين فحسب بل كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً، وكان تاجراً وراعياً وبما أن الله ليس خارجنا، فنحن لا نحتاج إلى الوسائط أو إلى الطبقة التي تستفيد من الأديان.. فالله يتجلى لنا جميعاً بقدر ما نستطيع إنكار ذواتنا، وبقدر ما نقدر أن نعيش

لغيرنا، فالنار تعيش لذاتها، إنها تلتهم الورق لتتغذى به، فهي لا تضحي من أجله، إنها تأكل ولا تعطي، والإنسان لا ينبغي له أن يكون مثل النار، يحقق رغباته المادية ويستهلك ما يمتعه وما يجلب له الملذات، إنه مطالب بأن يعيش من أجل الآخرين، وكلما ازدادت تضحيته.. وكلما كانت دوافعه روحية سيرى الله داخله، وسيكون مؤمناً حقيقياً، فالمسألة ليست تأدية طقوس دينية كأن تذهب إلى مكة، فالله ليس في مكة فقط، إنه في كل مكان.

وقصة من مكة إلى هنا، عبّرت عن كل هذا، فمسعود الطبال ذلك الزنجي الذي لم يستطع العيش في بنغازي لأن الاستعمار الإيطالي تدخل في مصدر رزقه، فهو صياد يأتي بالأسماك إلى السوق، وإذا بالإيطاليين يفرضون ضرائب باهظة، فيغادرها إلى سوسة بعيداً عن حزم السلطة وشدتها وهناك يجد رومية صاحبة مطعم هناك وترغب في شراء سلاحف البحر، رغم أن ثمة فكرة منتشرة بين الصيادين تدور على اعتبار السلاحف مخلوقات شبه مقدسة، ويجد فقي تلك القرية الذي باع أرضه للإيطاليين كي يتمكن من الحج إلى مكة يتحمس لتأليب الناس عليه، والتدخل في مصدر رزقه، ويسود المفهوم الغيبي حتى يسيطر على زوجة الصياد نفسه، وينتظر الناس انتقام الله من الزنجي الصياد مسعود الطبال، ولكن مسعود يستمر في صيده للسلاحف، ولا يصيبه شيء مما يتوقعه أهل المنطقة؛ وحين لا يحدث له مكروه يأتي الفقي وأقاربه ويهاجمون مسعود ويضربونه، وتراهم زوجته من ثقب الباب.. من ثقب المعرفة المتاحة لها وتصرخ: ماذا فعل لكم؟ فهي هنا ترى أن المسألة شخصية، إنهم لا يدافعون عن الله، بل يدافعون عن مصالحهم الشخصية، وهي حين ترى هذا الجزء من المعرفة تنحاز إلى زوجها، زوجها الذي يرى أنه من الممكن وضع السمك في

جزء من القارب، والصلاة في الجزء الآخر، والذي يصمم على قتل ذكر السلاحف، ويستعد له، إنه يذهب إلى الخليج وينتظره ليسحقه، إن فرصته في القضاء عليه فرصة واحدة، وإذا جاء ذكر السلاحف للخليج بعد أن يغلقه، ويفتك به يكون قد انتصر.. انتصر على الأفكار التي تسيء إلى الله والإنسان في الوقت ذاته.. ويحقق هذا النصر فكرياً، فالملاحظ أن مسعود الطبال لا يشتبك في عراك مع الفقي أو الإيطاليين أو زوجته أو أي إنسان آخر، إن شجاره المستمر مع أفكارهم المتمثلة في السلحفاة، وهو حين ينجح في ذلك يأتي معه الآخرون، إنه لا يرد عليهم بنفس وسائلهم، لا بالأيدي، أو البنادق السريعة الطلقات، ولكن بالإقناع الفكري، فإذا كان المنطلق الفكري روحياً لا مادياً أمكن أن يزول التضاد والخصام بين الإنسان وأخيه الإنسان. وهنا تبرز نقطة الخلاف:

«فالإنسان على هذا الرأي إذا غيّر من نفسه تغيرت العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع». ولكن وجهة نظري:

«أن الإنسان إذا قام بتغيير العلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمعه يتيح لغيره فرصة التغيير.. فالأنا هذه ليست كياناً فارغاً ومنفصلاً عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية، إنها وليدة انعكاس لكل تلك الظروف، وبتغييرها يتغير التأثير الذي تحدثه فيه.. فنحن لا بد أن نغير الأرضية التي يقف عليها هذا الإنسان، إن الطفل الذي يعيش في أسرة شريرة دفعها الفقر وعلاقات الإنتاج الاستغلالية، واللامساواة الاجتماعية، إلى مزيد من الشر، إن هذا الطفل لا تنفع المحاضرات أو التغيير الفكري في ذهنه ما لم نغير هذه التربة التي تحتضنه، والمناخ الذي يتنفسه، وهذا التغيير المادي يؤدي إلى العنف، والعنف يأتي دائماً من المستغلين ومالكي

الاقتصاد الاستغلالي، فإنهم لا يتنازلون عن امتيازاتهم بسهولة، ولذا يحدث العنف، وهو عنف مفروض على الإنسان أن يواجهه بعنف مثله ليتمكن من إحداث التغيير الذي ينعكس بدوره على تغيير ذات الإنسان، فالقضاء على بذرة الشر في روح الإنسان ـ كما يقول بيموفسكي ـ يوجب بالضرورة أن نغير جذرياً وجه الحياة الاجتماعية الحاضرة، وأن نقوم بتربية الناس تربية اجتماعية جديدة، ونقيم نظماً حديثة للعلاقات الاجتماعية، الأمر الذي يسمح ويؤيد ويدفع بالإنسان إلى تطوير قيمه الأخلاقية، وحتى يكون لدى الإنسان استعداد كبير للتمسك بمبادىء الأخلاق والعدل».

إن الوصول إلى الهدف النهائي، إلى عالم يزول فيه التعصب بمختلف أشكاله، عالم الأخوة الإنسانية، والذي ينكر فيه كل إنسان ذاته من أجل الآخرين، من أجل رغبات جديدة، وملذات جديدة في اكتشاف المعرفة، وتنمية المواهب، وتجاوز الرغبات المادية إلى المعنوية والفكرية، إن هذا العالم يحتاج إلى أن يمر على طريق ممهد بالاشتراكية، الاشتراكية التي تخلق فرصاً متكافئة للوصول إلى ذاك العالم، وبأقصى طريق، وتنتج بالتالي أخلاقاً اجتماعية جديدة.

من هذا، فالنظرة الاشتراكية تلتقي في الكثير من النقاط على هذا الخط الفكري، فالمنطلق إذا كان من أجل أن ينكر الإنسان ذاته، ولا تصبح اهتماماته مجرد تحقيق للرغبات المادية الحسية، بل تكون للاستزادة من الغذاء الثقافي، والكشف عن قوانين الطبيعة، والإحساس بلذة التعمق في المعرفة، لخدمة الإنسانية كافة. والوسائل نحو ذلك بالإقناع، والتغيير الفكري، ولكن بما أن التغيير

الفكري يتطلب تبديل بنية النظام الاجتماعي والاقتصادي من النزعة الفردية إلى الحالة الاجتماعية لتوليد سلوك جماعي جديد، وأخلاقيات اجتماعية جديدة، والانتقال من حالة الاستغلال والتملك الفردي، إلى العمل الجماعي والتملك العام، إن هذا ضروري إذا كان تعريفنا للذات الاجتماعية أنها لا تنبت في فراغ، وأن الظروف المادية تحدث تغييراتها في نظرتها ومفهومها.

أما العنف فلا أعتقد أنه كامن في دعاة التغيير إلى مجتمع إنكار الذات، ولكنه كامن في الطبقة التي تحب ذاتها، وهي الطبقة الاستغلالية التي تحول دون الإنسان وصنع عالم تنمو فيه روح الخير والحب والعدل والجمال، وتحول دونه وتغيير المجتمع كي يعكس بدوره شعاع علاقاته الجديدة التي تخلق الإنسان الجديد، أليست هذه نقاطاً صالحة للالتقاء؟ الالتقاء مع تيار فكري له وجود في أوروبا، تيار يبحث عن الله في أوروبا، التي قادتها الآلة إلى إلغائه من حياتها، وبين تيار فكري يمحو عن الله في عالمنا الشرقي كل الشوائب والعوائق بينه وبين الإنسان، أليس كذلك؟

1970

النيهوم.. رمز وتجربة

أمين مازن[*]

لقد انهزم الطب وانتصر الموت، وعاد المرحوم صادق النيهوم إلى العالم الآخر، بعد مرض فتك به طوال خمس سنوات، وظل سراً ربما عن أقرب الناس إليه، لولا الغيبوبة التي داهمته منذ عدة أشهر تأكد بعدها أن لا أمل في الشفاء اللهم إلاّ بواسطة الإنعاش الذي يطيل في الغيبوبة ليس أكثر. وقد احتضن تراب بنغازي أمس الأول جسد النيهوم بعد حياة أدبية استمرت ثلاثين سنة كاملة عاشها قلمه المتميز وبواسطة كتابات أثرت في أقلام كثيرة، وكانت ولا تزال موضع نقاش وجدل من طرف أقلام أخرى قدرت إمكانيته واختلفت مع بعض عطائه.. كان ذلك منذ أن بدأ النيهوم يكتب على أعمدة جريدة «الحقيقة» التي استطاعت ابتداء من سنة 65 إفرنجي أن تستقطب مجموعة من الكتاب الوطنيين الذين وجدوا فيها المنبر الجيد ووجدت فيهم السند والعون يطرحون بواسطتها ما يؤرقهم من قضايا وهموم ويوفرون لها جراء ذلك ما

(*) كاتب وناقد ليبي، له بعض الإصدارات في الأدب والنقد، من بينها (كلام في القصة) و(حبال السفن المعلقة)، تولى أيضاً مهام الأمانة العامة لرابطة الأدباء والكتّاب الليبيين.

تتطلع إليه من تطور مضطرد وتقدم منشود.

كثيرة هي الكلمات التي ظهرت في تلك الفترة وكثيرة هي القضايا التي أثيرت. بعضها يتصل بمسائل جوهرية وتناقض مبدئي مع ما كان يجري وبعضها الآخر يؤثر سبيل الإثارة ويتجنب الغوص إلى الأعماق. وقد كانت كتابات النيهوم من أبرز ما ظهر وبالتحديد سنة 66 إفرنجي حين كان يجمع في كتاباته بين دراسة بعض الرموز الأدبية المعروفة في الوطن العربي.. البياتي.. الفيتوري.. نزار.. وبين ما كان يطرح في أوروبا حيث كان يعيش ويدرس من هموم فكرية ويتألق من أسماء مبدعة: بابا همنغواي.. المرأة والديانات.. المسيح.. الخ. الخ.

كان الرجل يمتلك أسلوباً خاصاً يجمع بين التشويق والإثارة ولا يخلو كذلك من سخرية غير مسفة، وجرأة أسهم في ترسيخها أكثر من سبب أهمها بدون شك عيشته بالخارج ونمط الحياة الذي اختاره منذ أن كان طالباً بالجامعة الليبية في بنغازي، وقد انقسمت الحياة الأدبية حول ما يكتب النيهوم أقلام ناشئة تأثرت وقلدت، وأخرى غير مسؤولة بالغت في الإكبار. تماماً مثلما توقفت بعض الأقلام أمام جمال الأسلوب وقوة الأدوات وخشيت من ضبابية النظرة، وأسرف بعضها في مهاجمة الرجل ونعته بنعوت كان يمكن أن تضعه تحت طائلة القانون، وذلك أن الحياة كانت مليئة بالكثير في ذلك الزمن الذي ندعوه بآخر الستينات حين أصبح النيهوم اسماً من ألمع الأسماء إن لم يكن ألمعها على الإطلاق.

في السبعينات بدأ النيهوم رحلة جديدة أو كما يقول المصطلح الإبداعي مغامرة جديدة وذلك عندما خاض تجربة النشر إلى جانب الكتابة، فأسهم في إصدار سلسلة طعامنا ومن ثم قيامه بإصدار

سلسلة تاريخنا وكذلك بهجة المعرفة إلى جانب أعمال كثيرة أخرى بحيث تحول إلى موسوعة كاملة.

إنها الموسوعة التي عولت على الشراء الرسمي وقدمت عملاً له خصوصيته الواضحة. وكانت الميزة الظاهرة أن الكاتب استطاع أن يبث روحه في التأليف والترجمة على السواء مما هيأ له أن يعيش في أوروبا ويطلق لقلمه العنان أن يكتب بالشكل الذي يرى فحقق بالتالي إضافات مهمة وحضوراً لا يمكن التقليل منه مهما كان وجه الخلاف إزاء تحديد الجدوى الثقافية الحقيقية. فلقد كان والحق يقال نموذجاً قائماً بذاته وقدرة من القدرات النادرة في إجادة التعامل مع الأشياء ومع الأحداث أيضاً، مما جعل من بعض الذين وجدوا شيئاً من ظروفه الموضوعية يعجزون عجزاً بيناً عن تكرار دوره فلقد كان متسقاً مع نفسه ومع كتاباته ومع من حوله أيضاً، ومن النادر أن يجد المرء من اقترب منه ولم يتعاطف معه بشكل من الأشكال. نعم إن ما كتبه من مقالات مهمة في الناقد، وما جمعه بعد ذلك في صوت الناس والإسلام في الأسر يقدم منظومة فكرية واضحة المعالم بارزة الصفات، منظومة قد يختلف المرء معها كثيراً لكنه يدرك أهميتها أكثر وأكثر.. إنني أعلم أن الموت حق ومصير لا مهرب منه.. ولكنني أحس به سيئاً للغاية حين يختطف الرجال ولديهم الكثير مما يعطون وما يقولون.

1994

دعة سلب الأحقية

د. نجيب الحصادي(*)

«لا يعد الأمر حقاً حتى يجزم صاحبه بحق بأن قيامه ليس رهناً بمقامه»

في ندوة حول أدب الراحل الصادق النيهوم أثيرت قضية أحقية هذا الأديب في إصدار أحكام تتعلق بالدين كان أطلقها في كتابيه (الإسلام في الأسر) و(إسلام ضد الإسلام) وقد اختلف المشاركون في تلك الندوة بخصوص تلك الأحقية، فمنهم من أعطاها للصادق دون تحفظ ومنهم من سلبها عنه دون استدراك، وإن أجمع الطرفان على إغفال قضية أحقيتهم في إعطاء تلك الأحقية أو سلبها. هكذا انبرى أحد المشاركين لتحديد أشراط من يحق له الخوض في قضايا الدين، فذكر منها وجوب أن يكون عالماً فقهياً وحافظاً لكتاب الله عزَّ وجلّ، ولم يفت مشارك آخر أن يذكر الحاضرين بأن الصادق بالذات غير مؤهل لنقاش عقيدة لم يمارس شعيرة من شعائرها، وهذه تذكرة استأنس إليها كل من اكتشف فيها راحة من عناء الجدل في القضايا التي أثارها الصادق.

(*) أستاذ الفلسفة بجامعة قاريونس في بنغازي، له عديد من المؤلفات في هذا الجانب.

ودرءاً لأن يساء فهمي أقول بداية ـ إنني لا أذهب المذهب الذي اعتقد به النيهوم ولا أرى أنه قد نجح في طرح تصور متسق ومتكامل للإسلام يخلصه من أسره المزعوم، على ذلك فإنني أجد في الخيار المريح الذي ارتآه سالبو أهلية الصادق لنقاش الدين إغماطاً لحقه في الإدلاء برأيه وترسيخاً لخلط يتعين الحؤول دون وقوعه، ولترى ذلك، هبْ أن طبيباً متخصصاً قد عني بأمر تبيان الأضرار التي تحدثها الخمر في أكباد متعاطيها وطفق يحدد طبيعة التلف والتليف الناجم عنها. أترى سيكون بمقدورنا التشكيك في صحة ما انتهى إليه من نتائج بمجرد الإشارة إلى كونه لا يجد غضاضة في شرب الخمر؟ ألنا ـ في مثل هذا المقام أن نستشهد بالآية الكريمة ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾، أو بالبيت ذائع الصيت الذي ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي؟

مبلغ ظني أن القول بوجوب ألا ينهى المرء عن خلق اعتاد الإتيان بمثله قول مغلوط إذا كان المقصود منه سلب المرء أحقية ذلك النهي، إن قيام المرء بما ينهى عنه إنما يشكك في اتساق سلوكياته، وقد يضعف على المستوى السيكولوجي لا المنطقي من قدرته على اقناع أغياره، بيد أنه لا يشكك ضرورة في وجوب الكف عما قد نهى عنه، لاحظ أنني لا أدعو للتجاوز عن سلوكيات من يقوم بفعل ينهى عنه، بل أقرر فحسب وجوب عدم اتخاذ قيامه بذلك الفعل ذريعة لسلبه حق النهي عنه. حقاً إن من ينهى عن خلق أجدر أن ينتهي عنه، ومن ينصح بخلق أولى أن يكون أول من يقوم به، لكن ذلك لا يتعلق إطلاقاً بأحقيته في النهي وعلى نحو مماثل، فإن الآية الكريمة سالفة الذكر لا تنهى عن أمر الناس بالبر، حتى إذا كان الآمر قد نسي نفسه، بل تؤكد على تناقض سلوكيات من يأمر بالبر وينسى نفسه. قياساً على ذلك فإن

عدم قيام الصادق بممارسة الطقوس الدينية على افتراض صحة هذا الأمر غير الجدير بالاهتمام لا يشكك بذاته في الأحكام التي خلص إليها ولا يسلب منه حق الإدلاء بها. على أن قائلاً قد يقول: إن الأمر مع الصادق يختلف عن حالة الطبيب الذي تحدثنا عنه، فلقد افترضنا أن هذا الطبيب متخصص في الأمور التي أفتى فيها، في حين أن هذا الحكم لا يسري على النيهوم، وفي هذا الخصوص أشير إلى أن كون الصادق غير متخصص في أمور الدين يعبر عن حكم قابل للجدل، ما لم نفترض على نحو خاطىء أن التخصص في أي مجال معرفي يتطلب الحصول على شهادات أكاديمية بعينها، فضلاً عن ذلك، فإن قصر أحقية النقاش على أولي الاختصاص يحتاج إلى مسوغ يبرره إذا ثبت بطريقة أو بأخرى أن شخصاً قد أفتى في أمر ليس على علم كامل بالفرع المعرفي الذي ينتمي إليه، فهل يستلزم ذلك ضرورة بطلان الحكم الذي خلص إليه؟ إذا أفتى شخص لا يعرف عن علم الفلك سوى بضع حقائق تعلمها من كتب الجغرافيا ـ بدوران الأرض حول الشمس، فهل يستلزم جهله بذلك العلم بطلان حكمه؟ ولنفترض كي نجعل المقارنة أكثر مقاربة لحال الصادق ـ أن صاحبنا قد أفتى بحكم فلكي نجزم ببطلانه، أترى سيقرر القائمون على ذلك العلم ببطلان حكمه من منطلق كونه غير متخصص فيه، أم ترى أنهم لن يجدوا أدنى صعوبة في نقاشه وفي جعله فريسة سهلة لشرك الدحض؟ وعلى نحو مماثل، إذا كان الصادق ـ الذي نزعم عدم درايته بعلوم الدين قد أفتى بأحكام يجزم المتخصصون ببطلانها، ألا يكون بذلك قد يسر عليهم مهمة دحض آرائه؟ وإذا كان ذلك كذلك. فلماذا يلجأ بعض منهم إلى سلبه حق الادلاء بها؟ إن سلب غير المتخصص أحقية الحكم إنما تشكك في قدرة أولي الاختصاص

على دحضه، ولأنني لا أشكك بأي حال في تلك القدرة، فإنني أشكك في مشروعية ذلك السلب، بكلمات أخرى، فإنني إحكاما للحق ـ أروم أن أفوت فرصة خيار سلب الأحقية على أولي الاختصاص، وأن أثقل كاهلهم بعناء هم ملزمون بحكم تخصصهم بتحمله، لقد جادل علماء الإسلام المستشرقين على علمهم بأنهم لا يدينون بالإسلام ولا يقيمون من شعائره شعيرة، ولا ريب أن التراث الديني قد أفاد من ذلك الجدل أيما إفادة.

ومهما يكن من شيء، فإن إثارة قضية الأحقية في المقام الذي أثيرت فيه إنما تفصح عن خلط دأب بعض منا على الوقوع في حبائله، إنه الخلط بين القول والقائل، بين مصداقية الحكم وسلوكيات أو «قدرات» الجهة الصادر عنها، ولأنه يعفي من عناء الجدل، استأنسنا إليه مؤثرين دعة سلب الأحقية التي يفضي إليها.

1995

موسوعة في رجل

أحمد القلال(*)

من الناس من يعيش لنفسه، ومنهم من يعيش لغيره ولكن من الناس من يعيش لنفسه مع الآخرين وبهم، وما رأيت الصادق إلاّ من هذا النوع الأخير. فقد كان مغتبطاً لنفسه وفخوراً بفكره، ولو لم يلق التجاوب من الغير بانعكاسات إيجابية لهذه وتلك لما تمكن من التعريف بنفسه واعتراف الغير به.

عاش الصادق يتيماً من الأم حيث توفيت وهو رضيع فأكمل رضاعته من حليب نعجة احتفظ له والده بجلدها وكان يجلس على صوفها ويقول إن الشاة التي أرضعتني من حليبها هي التي أجلس على صوفها الآن. ومع نموه وتعدي مرحلة الطفولة ارتبط الراحل بحي سوق الحشيش وأقرانه من صبيان وشباب الحي، كان شديد الارتباط بهم يشاركهم في جميع نشاطاتهم بتميز واعتماد عليه، فقد كان لاعب كرة قدير في فريق الحي، وكان سباحاً ماهراً

(*) من المهتمين بالحياة الثقافية والفكرية في ليبيا، يعمل محاضراً في قسم الإعلام بكلية الآداب بجامعة قاريونس في بنغازي، ومراقباً عاماً للمكتبات والطباعة والنشر بالجامعة المذكورة.

يسابق غير أنداده، يذهب إلى دور السينما ويعود ليسرد أحداث الشريط كاملة بل أيضاً يستعرض عملياً بعض المشاهد بين أصدقائه. غير أن تفوقه في حب القراءة كان أكثر من سواه. عرف عنه قراءة القصص بشكل نهم وخاصة تلك التي تتناول المغامرات والبطولات والتي تبني أحداثها على خيال، وما كان ذلك إلا مرحلة دخل بعدها قراءة أمهات كتب الأدب العربي، مع التركيز الكبير على مؤلفات عميد الأدب العربي طه حسين حيث كان يحفظها عن ظهر قلب، متلذذاً بإسماع نصوصها لأصدقائه الملتفين حوله في ركن معين بسوق الحشيش عشية ومساء كل يوم.

كان والده رجلاً بحاراً قاسى الكثير من أهوال السفر البحري، وعانى الكثير من متاعب العمل، لاقى مواقف عسيرة وعايش معاناة كبيرة، جعلت منه رجلاً صلباً له قدرة فائقة على مواجهة الصعاب والمواقف الجدلية وإقناع الآخرين، لكنه كان شديد العطف على ابنه الصادق، فكثيرا ما كان يصطحبه معه في المدينة، أو يجلس إليه ليحكي له المواقف ويطرح عليه نماذج من البطولة وأنواع الناس. وقد منحه حرية واسعة في تحركاته وتصرفاته في سن مبكرة، وكان يكن له إعجاباً شديداً لما يسمعه عنه ومنه، والوالد كان متحدثاً طلقاً، حلو الحديث، طويل الجلسات، لا يمل السامع طلاوة حديثه وسعة خياله وجدليته المحببة، لعل الصادق قد ناله من والده بعض التأثير في مبكر حياته.

إن الصادق بدأ وتمرس على أسس أدبية ليكون شخصية أديب وفي هذا المجال كان يتطلع أن يكون ذا أهمية خاصة ويغمر شعور، لا أقول العظمة، بمعناها الواسع وإنما الشيء المتميز. فقد كان لكل من هندامه، شعره، حذائه طابع الخصوصية. وجميعها كونت منه شكلاً يمكن أن يقال عنه «فوضوي في قالب منظم» ولكنه كان

مقصوداً ومستديماً ومطبقاً على طريقته. وهكذا كان يعمل الكثيرون من المبرزين في هذا الميدان أو سواه. في مشيته وفي طريقة ارتداء ملابسه يبدو لي أنه كان متأثراً بشخصية معينة، فحينما يمشي يكاد ينكب على وجهه مقوساً منكبيه إلى الأمام ململماً فتحة السترة لتحجب الصدر، رافعاً طيتها الخلفية لتغطي الرقبة والأذنين أو تكاد، لعله في ذلك كان متأثراً بممثل شاب شهير آنذاك هو (جيمس دين).

المزاج العجيب كان ملازماً لشخصية الصادق حيث الجمع بين الطموح إلى القمة والنظرة الساخرة إلى عاديات الحياة وممارسات جيله المتنوعة وبين البساطة في المظهر وفي حضوره مع الفئات الكادحة. يسلك مسلك الطرافة في مداعباته مع أصدقائه، قد يريد من ذلك دمغ تصرفاته بطابع خاص، فذات مرة قدم هدية بمناسبة ما إلى صديق له، وكانت عبارة عن دمية صغيرة، ورغم أنها كانت دمية لصديق شاب ومتعلم ومثقف فقد قطع رأسها قبل أن يرسلها، وما كان من ذلك الصديق إلاّ أن تقبلها واضعاً أمامه شخصية الصادق، ولكنه اعترف بأنه لم يجد لها تفسيراً.

إن خصوصية الكتابة عند الصادق يمكن التعرف عليها من خلال المحيط الجغرافي والبشري، فعلى هذا المكان أو في هذه الساحات تتحرك الأحداث وتنطلق. فكثيراً ما كتب من لدن العامة وحكاياتهم وأوضاعهم في رؤى نصية تهدف إلى إبراز أحداث أو ظواهر اجتماعية منها ما يذهب بك إلى قلب المجتمع، فقد كانت له تأويلات عميقة في النسيج الاجتماعي لمجتمع بنغازي لنستخلص من كل هذا أن النسيج له جذوره العريقة وليعيش هو في ذكراه ويجعل الغير يتذكرونه.

تقدم الصادق عمراً واتسع الأفق وتطور الفكر، فأفلت من محيط الحي وأبحر في خضم الحياة شاقاً عبابها وفق طريقته الخاصة وفي تشكيلات جديدة من العلاقات، فأصبح جليس فئات متنوعة من الناس يجالسهم حيثما طاب له المقام دون اعتبار لأي مستوى. وحالما تتكامل أركان الجلسة يأخذ بزمام السيطرة الأدبية على من حوله، فتراهم آذاناً صاغية وعيوناً جاحظة وأفواهاً فاغرة، يطرحون الأسئلة بدافع حب المعرفة والاستمتاع بالحديث وإعجاباً بقدرة المتحدث. ويتواصل السمر وتتنوع القفشات فيعم الانبساط إلى أن تشبع النفوس وتروى فيحين وقت الانفراط، هكذا كان الصادق في جلساته ومع جالسيه المحببين.

كان للراحل شخصية لا يتميز بها الكثيرون غيره، وقد برزت شخصية الصادق على المدى الواسع منذ مرحلة الدراسة الثانوية، فقد عرف معرفة واسعة بين الطلاب والمدرسين، كان يبدو ساخطاً حيناً وساخراً حيناً آخر، ولكنه ذكي في كل الأحوال، له مواقف في النقاش معتمداً على فلسفة مستخلصة من قراءاته وأفكاره الذاتية التي كثيراً ما أحدثت دوياً بين الإعجاب والرفض ولم يكن حيالها سوى الصامد المتمهل الهادىء.

والتفوق في اللغة العربية كثيراً ما يتجلى في موضوعات الإنشاء المدرسية، فحبكة الموضوع لدى المرحوم في المرحلة الثانوية وسلاسة أسلوبه وسعة خياله، جعلت من كتاباته لوحة أدبية فنية رائعة مما حدا بأستاذه حينذاك إلى عرض وقراءة كتابات الصادق في الفصول الأخرى وفي مدرسة البنات الموازية. كان ذلك تشجيعاً وإعجاباً منه.

ولما اجتاز هذه المرحلة صار طالباً جامعياً في جامعة فتية، وهنا

صار أكثر معرفة وأوسع شمولاً وأعمق فكراً مما جعله علماً بين زملائه الطلبة الجامعيين وأساتذته. تراه في قاعة المحاضرات يجلس متكئاً، المرفق على المنضدة الدراسية التي يكاد يجانبها والكف يسند الرأس أما النظرات فلها تفسيرات عديدة، ولكنه كان يسر بوضوح في محاضرات اللغة العربية وله مواقف خاصة فيها، واستاذه لم يخف إعجابه به وتشجيعه له، غير أن إعجابه يزداد بعدما يكتب الصادق ورقة عمل أو بحث، لكن الصادق يطرحها جانباً وكثيراً ما يمزقها ذاكراً بأنها لم تعجبه وإن أعجبت الأستاذ وسيكتب أحسن منها.

حينما يكون خارج قاعة المحاضرات نراه وقد اختار مكاناً في حديقة الجامعة يكاد يكون هو نفسه، فقد كان دائم الوقوف نصف الوقفة إن صح التعبير، مائل الرأس بعينين فاتحاً إحداهما أكثر من الأخرى وشفتين تداعبان السيجارة ومن حوله تجمع الزملاء، هنا يبدأ التراشق وتتوالى العبارات الساخرة تعقبها النظرات الفاحصة، والوقفة قد تطول وتسرح أثناءها العقول وقد تقطع بوقت الدخول.

ومرة أخرى قفزت شخصية الصادق لتسرح بين قرّاء المجتمع الليبي عامة ذلك حينما بدأ الكتابة في صحيفة «الحقيقة»، فلقد شكلت كتاباته تلك الرفيق الملتصق بالمجتمع الليبي والعربي في تطوره الفكري وتغيره المادي، وظلت هذه القاسم المشترك بين الذي عاشه في أول حياته وبين مرحلة تكامل النضج.

وبدخول كتاباته الساحة العربية لا سيما من خلال مجلة «الناقد»، وما ألّفه من كتب، أضاف إلى بحيرة الثقافة العربية دفقاً ونشاطاً، وأشعل الذاكرة التي استعادت كتاباته السابقة على صحيفة «الحقيقة».

آخر على نفس المنوال ولذات الهدف المبتغى، فإذا ما وجد ضالته تهللت الأسارير وعاد إلى جالسه بكل جوارحه دون أن يبوح لك بشيء مما كان فيه أو ما أصبح عليه.

ولكتابات الصادق ـ قياساً على نفسي ـ لها ثلاث قراءات: الأولى تصحبها ابتسامة عريضة أو ضحكة ويعقبها التندر إعجاباً بذلك الوصف والتعبير وهذا لا يتعدى سطح التفكير، والقراءة الثانية كثيراً ما أريد منها الإلمام بالموضوع وطبع تلك الأوصاف والتعابير في الذاكرة من باب الإثراء اللغوي والوصف الجميل، أما الثالثة فتصل بك إلى المراد، حينما تحلل وتفكك الرمز وتصل المقصود، إنه كاتب يملك أدوات تمكن منها وفرض من خلالها إبداعاً، إنه أديب غاص في بحور الأدب فاستلهم وألهم.

إن كتابات الصادق عالم مملوء بالوقائع النابضة والخيالات الجامحة وبرصانة البناء وجميل التعابير، إن هذه الصورة من جانبيها المادي والذهني أثرت النتاج العربي المعاصر، إنها صورة جذابة لا تبرح أن تستنطقنا وتحرك أوصالنا، وصورة ذهنية تأخذ بنواحي الفكر إلى الغوص في البواطن.

أما الأثر الثقافي لكتابات الصادق فإنه عميق الغور بأركانه الشاسعة وأطرافه المترامية يتطلب دراسة وبحثاً، وهنا إنما أردت الإشارة إلى أن هناك أثراً تجلى أولاً في مجتمع مدينة بنغازي منذ متابعة كتاباته على صحيفة «الحقيقة».

لقد كان ليوم صدور مقالة الصادق رونقه الفكري. فسرعان ما ينفد العدد وسرعان ما تنشط الاتصالات بحثاً عن مقال ذلك اليوم، ثم المزيد من التعليق وتداول العبارات وتكرارها إعجاباً بأسلوبه السلس، وبناء عباراته الرصين الجميل، وفي المساء وخلال

الأيام التالية يظل عطر المقال فواحاً بين قرائه، وهم كثر، بل ويتكاثرون ويزدادون التفافاً حول مائدة الصادق الفكرية.

إن من آثار ذلك أيضاً ترغيب الناس في القراءة حيث كانت كتاباته قد اشتهرت ومن ذاك الذي لم يقرأها وإن لم تكن عادة القراءة لديه، أو هي ضعيفة. لقد استطاع أن يحيي في عقول الناس ما قد اندثر أو كاد، تلكم العادات والمواقع والشخصيات في كتابات الصادق كان لها دوياً دائماً وتقبلاً جميلاً وسط المجتمع. لقد خلف متحفاً مقروءاً وموثقاً رغم أنه متناثر، ففي كتاباته رصد جسم معالم البيئة والمحيط الذي عاشه، وفي كل كتاباته مداولات ومناقشات، ردود غاضبة وآراء ناقدة ومواقف متنوعة على الساحة العربية.

إن المحاكمات الأدبية التي تعرض لها الصادق، جراء كتاباته ومناقشاته ومناظراته، تؤكد أهمية فكر الصادق في الوطن العربي بما في ذلك مواجهات الرفض والقبول والإعجاب، قد يكون الصادق موسوعة في رجل، فهو الكاتب الساخر والناقد الحاد والأديب المتميز والمؤلف والناشر والقارىء في آن.

ستبقى يا صادق أنشودة عشق شامخة، ستبقى لوحة حية في الفكر، ستبقى فضاء تجول فيه الأجيال وتتذكره، ستبقى حافزاً للعطاء، وزهرة في ربوع بلادك يستنشق عبيرها الداني والقاصي.

زهوت بالحياة حيناً وازدريتها حيناً، وشغلتك أحياناً بنهايتها المحتومة وشعورك بأنك ستموت مبكراً.

1994

دراســـة

والشعر أيضاً يكتب النيهوم

إبراهيم الكوني(*)

كنت على الدوام أحس بنبض غامض يشدني لكتابات الفيلسوف الساخر صادق النيهوم دون أن أدركه بالضبط.. نبض دافق رفيع يبدو وديعاً هادئاً تارة.. وعنيفاً صاخباً تارات.. وكنت أقرأ المقال الواحد ـ أحياناً ـ للمرة الثالثة في محاولات دائبة لسبر أغوار هذا النبض الجذاب الغامض.. وكنت في كل مرة أخفق.. وازداد حيرة.. حيرة مريعة تثيرني بعنف.. وتصفعني بحدة وقسوة.

ولم أستسلم.. ولم أسلم بهزيمتي.. كان يشمخ أمامي إصرار جموح في إدراك هذا «الشيء» الخطير الذي يكمن في كتابات النيهوم.. وكنت أقف ـ خلال هذه المحاولات اليائسة ـ عند الأسلوب البارع الفكه الذي تميزت به كتابات النيهوم.. وظل دائماً وما يزال السمة البارزة لهذه الكتابات، هذا الأسلوب الرائع البديع الذي يبهر القارىء ويسحره ويشده دائماً، ولكن هذا الأسلوب برغم بريقه وجاذبيته لم يقنعني بإدراك ذلك «الشيء» المثير الذي

(*) روائي وأديب ليبي نالت رواياته شهرة لدى عديد القراء العرب، أقام فترة في جنيف في السنوات الأخيرة من حياة النيهوم.

أبحث عنه.. فهو مجرد أسلوب «هندسي» دقيق وبارع قد يثير انفعالات لذيذة عارضة عابرة لا تلبث أن تمضي وتسقطها الذاكرة، ويبقى المضمون وحده عالقاً بالذهن، إلى جانب ذلك «الشيء» الذي ما عتمت أبحث عنه بلا جدوى حقيقية..!

وكنت أيضاً أقف عند الرمز في هذه الكتابات بذهول.. وأتأمله بدقة عله يقودني إلى ذلك «الشيء».. ولكن الرمز بدوره يظل واضحاً يمكن أن تلمسه بأطراف أصابعك - على حد تعبير النيهوم نفسه - ويسخره الكاتب لخدمة الفكر بصورة قد لا تبدو مباشرة، بيد أنها واضحة ومحددة، ولا تحتاج لأي نوع من العناء الذهني.

إنه رمز فريد من نوعه.. رمز محبب جذاب يبدو غامضاً وواضحاً في الوقت ذاته بطريقة ممتعة ومذهلة.. ولكنها طريقة مثالية في الأساليب الأدبية الحديثة.. حيث تؤدي إلى الغرض - في النهاية - وهو تدعيم الفكرة من الداخل بشكل رومانتيكي حالم غاية في الذكاء. إذن ما هو هذا «الشيء» الوامض الخفي في آن، إذا لم يكن شيئاً من كل ذلك؟

والواقع أنني لا أدري على وجه التحديد ما إذا كان ذلك «الشيء» يرتبط بالفكرة.. أم بالرمز.. أم بالشكل الفني. أم بشيء آخر غير كل ذلك. ولكني - في ذات الآن - ظللت أدرك على الدوام أن كل هذه المضامين ليست الشيء الذي أبحث عنه.. إنه شيء آخر تماماً يقوم هناك في الداخل.. ويتحرك في الداخل.. وينمو في الداخل.. ويخدم الفكرة من الداخل أيضاً ولكن بطريقة غير مباشرة هذه المرة.

إذن ما هو هذا الشيء بحق السماء؟ ولم أجد بداً من مضاعفة جهودي في البحث عن هذا النبض الغامض، ومحاولة اكتشافه مهما كان الثمن.. ولم أستطع برغم كل محاولاتي في هذ

المضمار أن استشف من كتابات النيهوم ما يمكن أن يفرج عني هذه الأزمة القاتلة التي ظلت تعصف بي حتى اضطرتني - في نهاية المطاف - أن أسلم بعجزي تجاه ذلك «الشيء» الخطير.

والواقع أنني لم أسلم بعجزي تماماً.. ولكن الذي حدث هو أن «فيلسوفنا الساحر» كفاني هذا العناء الوبيل الذي استنزف قواي المعنوية حتى العظم. فقد سألته ذات يوم ضمن سلسلة تحقيقات «الذات والموضوع»[1] هذا السؤال:

- ماذا تعني عملية الخلق الفني بالنسبة لك؟

عندها أجاب بما لم أتوقعه قط.. قال:

> «إنها العمل داخل إطار الفكر بوسيلة الكلمات، وهذا الأمر لا أستطيع أن أشعر تجاهه بالرضى إلاّ إذا أحسست أنني أؤديه داخل إطار الحلم أيضاً.. والحلم هو مادة الشعر التي أعرف أنها تستطيع أن تمدني بالشجاعة في مواجهة العجز الناتج عن ضيق الكلمة.. إنني أكتب أحياناً كثيراً من الشعر الذي يبدو داخل إطار الفكرة مجرد نوع من الصوفية البلهاء، ولكنه في نهاية المطاف يحمل إلى الناس معظم ما أريد أقوله».

إجابة هائلة حقاً لم تكن - قط - لتخطر لي على بال.. ولكن يبدو أنه لا مندوحة من أن يفهم النيهوم نفسه بنفسه.. ثم يقدم لنا بنفسه أيضاً ما التبس لنا في أمر ما يكتب.. وهذا لعمري خطأ جسيم من جانبنا يبدو أننا لم ندرك خطورته حتى الآن.. وهو إن دلّ على شيء - وهو يدل بكل تأكيد - فإنما يدل على جهلنا بما لا يجب أن نجهله.

---

(1) مجموعة حوارات مع بعض الأدباء الليبيين نشرها الكوني في حلقات على صفحات مجلة (الإذاعة الليبية) في النصف الأول من سنة 1969. انظر حواره مع النيهوم في هذا الكتاب.

وما يشفع لنا على مثل هذا التقصير هو ثقافتنا المتواضعة، وإمكانياتنا الفكرية الأكثر تواضعاً، وهذا الكلام يبدو حقيقة رهيبة تعصف بالكاتب الليبي.. وأعني الناقد الليبي على وجه الخصوص.

أجل .. إن النيهوم يكتب الشعر.. وهذا كل ما كنت أبحث عنه طوال ثلاث سنوات ونيف. وبرغم جهلي المطلق بالشعر وببحور الشعر، إلاّ أنني سأحاول هنا قدر استطاعتي أن أرصد نماذج معينة من النثر الرفيع الذي يرتقي إلى مستوى الشعر الرفيع أيضاً.

- يقول النيهوم في مقال «**الحزن بقليل من عصير الليمون**»[1]:

«يا سيدتي ..

إن قطرة المطر تحمل أيضاً رائحة السموات.

وتحمل الطوفان.

وحقول القمح والعشب والأدغال والمحيط والنهر الذي يطعم الفلاحين.

قطرة المطر تحمل أكثر من ذلك..

وتهبط به من سقف العالم..

شفافة أكثر من زمردة».

ويقول أيضاً:

«أنت عيناك قطرتا مطر..

وقد هبطتا من السماء معبأتين بالزرقة.

مثل عربتين سماويتين من الحرير الأزرق.

وسقطتا معاً في لحظة واحدة فوق وجه خنزير».

وبرغم أنه يشتم المرأة الليبية ويشبه وجهها بوجه خنزير مما قد لا يقنع القارىء الذي ينتظر شعراً حالماً، إلاّ أن الأمر كان مجرد تمهيد بارع غاية في الذكاء لفكرة المقال.. تهرباً من التناول المباشر أولاً.. وتحاشياً للسقوط في التقريرية والصور الفوتوغرافية ثانياً.

ويمضي النيهوم في ذات المقال فيقول:

«فانتظري عودته فوق السدة

انتظريه وراء الكلة الحمراء

الكلة المعلقة عبثاً فوق السرير

وتلطخي بالحناء والخواتم وزيت الغار..

انتظري عودته

واحشي وسائده بالأطفال الذكور

أعطيه حاجته من الذكور

املئي البيت ذكوراً إلى السقف فأنت لا تملكين فرصة واحدة

أنت قطرتا مطر على وجه خنزير!

ذبابة على شنب سيدك.

أنت في الواقع ذبابة ليبية على شنب خنزير فدعينا نتبادل النكات».

أجل دعونا نتبادل النكات مع النيهوم نفسه، فبرغم أن هذا النثر الرفيع يبدو ثقيلاً بعض الشيء وغير موزون أو مقفى؛ ولا يخضع للتفاعيل ـ باعتباره نثراً بالأصل ـ؛ إلاّ أنه لا يعدم ذلك النبض الموسيقي البديع الذي يتميز به الشعر دائماً.. وهذا ما يجعلني أقرر أنه يمكن أن يعد أروع وأرقى أنواع الشعر الحديث إذا حاولنا أن نرصد ذلك النغم المستتر..

يقول في ذات المقال السالف:

«عندما تهب الرياح الشمالية هنا وتنزف حزناً مثلجاً
وتنكسر مواشير الأضواء تحت وطأة الجليد.
ويكتشف كل امرىء لحظة السلام العميقة
على منضدة المقهى المجاور
أحملك في قلبي وأذرع بك سقف العالم
في حافلة تجرها الكلاب».

ثم يقول:

«فافتحي عينيك يا قطرتي مطر وانظري هنا
هذا رأس العالم المغطى بالثلوج والشيب
وهذه زحافتي وأصدقائي الكلاب والقمر الشمالي المتورم الأنف
وقربة الصبر التي وضعتها أنت
فوق كتفي مع حفنة القديد
هذا كل شيء أستطيع أن أحمله
بالإضافة إلى قلبي الثقيل الوزن
الذي أجره ورائي عبر البوابات والمدن
أدفع عليه الرسوم
وأطلي جدرانه بالتبغ
في أيام عاشوراء
تلبية لرغبة البلدية».

لاحظوا ـ هنا ـ أنني تعمدت أن أبقي على عبارة «تلبية لرغبة البلدية» لأريكم مدى «الصدمة» أو «المطب» الذي قادنا إليه

النيهوم.. وتعمدت أن أفعل ذلك أيضاً لأثبت لكم أن الكاتب لا يتخذ من هذا النثر الرفيع هدفاً في حد ذاته. ولكنه مجرد وسيلة أولاً وأخيراً، وسيلة جديدة تماماً تسهم بشكل دقيق وبارع في بناء الفكرة.. والتمهيد لها وتبسيطها على أروع صورة استطاع النيهوم ابتكارها عبر تجربته مع الكلمة رغم حداثتها، وهذا يذكرنا فوراً بما قاله النيهوم نفسه من أن الشعر الذي عبر عنه بأنه نوع من الصوفية البلهاء يحمل في نهاية المطاف معظم ما يريد أن يقوله. إذن هذه المادة الشعرية هي ذلك «السر الخطير» الذي ظل وسيلة النيهوم الفائقة الفاعلية التي حققت له أروع الانتصارات؛ وأكثرها تشويقاً وإثارة في مضمار الكلمة. وقد يبدو هذا النوع من الشعر داخل بناء الفكرة العام متمرداً عاتياً صاخباً، بيد أنه يؤدي مهمته بالضبط بصورة مذهلة وخارقة. ولذلك فإن عبارة «تلبية لرغبة البلدية» مطب لربط مجموعة خلايا الأفكار داخل إطار الفكر.. وعلينا بحذفها كي يظل «الشعر المنثور» سليماً من حيث الشكل والموضوع معاً. ونمضي مع النيهوم مجدداً وهو يقول:

«وعندما يسقط الليل هنا
وينزف حزناً مثلجاً
يفتح المقهى أبوابه
أعني يفتح قلبي أبوابه
وتضاء قناديل الزيت الشرقية
وتصف الكراسي والنارجيلات ومحارق البخور
وتومض عينا أبي زيد الهلالي على الجدار
ثم يصل سيدك مثل أبي زيد الهلالي ويختار مقعده المفضل
وقهوته المفضلة

ويفتل شواربه، بطرف الإبهام والسبابة
ويقرأ لي البخت في الفنجان
فافتحي عينيك يا قطرتي مطر
وانظري هنا
ماذا أستطيع أنا أن أفعل
سوى أن أعد مزيداً من فناجين القهوة
واخط الحساب
على ضلفة الباب».

إن هذه الظاهرة المثيرة في كتابات النيهوم لا تخدم الشكل الفني فحسب.. ولكنها تخدم الفكرة بالدرجة الأولى وتدعم المضمون وتصله بالشكل بطريقة محبوكة تحافظ دائماً على «الكيان العام» للفكرة، إنها نوع من الوقفات البارعة التي تفرض على القارىء أن يتأملها ويقف عندها ليستوعب «السابق» ويصل «باللاحق» بشكل لا يرهقه ولا يدعوه إلى اللهاث العنيف خلف تكثف الفكرة وامتلائها. إنها نقلات فنية غاية في الروعة والقو والإبداع تكثف ذلك الغموض الجذاب في الرمز، وتسخره على الدوام لكي يسهم بدوره في إرساء دعائم الفكرة، والمحافظة على كيانها الموضوعي، ويمضي بنا النيهوم في رحلة أشعاره المتجولة بين هلسنكي وستوكهولم وكوبنهاغن وبقية مدن أوروبا:

«وماذا تستطيعين أنت أن تفعلي..
أو يستطيع صديقك الشيطان
إن أبا زيد الهلالي
ما يزال أقوى رجل في تونس الخضراء

وفي ليبيا أيضاً ..
وما يزال يركب حصانه الجهنمي يغزو القرى والمدن
ويعود كل يوم بالسبايا المحطمات القلوب.
والمرء لا يستطيع أن يخنق أبا زيد المذكور
بحبل الغسيل لأنه لا يملك عنقاً على الإطلاق
ولا يستطيع أن يشكوه للشرطة
أو يدعو عليه عند ضريح البطل المفضل
إنه هناك لكي يبقى
والفقهاء يقولون إن الله يقف إلى جانبه أيضاً».

ودعونا من المضمون وما يحفل به من سخرية مريرة وصفعات قاسية موجهة، وتعالوا لنتأمل الحلم ـ الذي هو مادة الشعر في نظر النيهوم ـ في مقال آخر بعنوان «**أشباح ليبية وأشياء أخرى**»[2]:

«انتهت في روفانيمي
المعلقة من ثدييها في سقف العالم
وخسر الشبح الليبي معركته معي،
عندما أرغمتني العاصفة
على أن أكف عن الهروب
وأتوقف لمواجهته في الغابة البيضاء
لقد كانت لحظة فظيعة، خالية من الأنس
ولكنها أنقذتني من الحمل السخيف
الذي ظللت أذرع به شوارع العالم
مثل نعش مليء بالدمى الميتة!».

وبالرغم من أن مثل هذا النثر الراقي لا يفتقر إطلاقاً إلى النبض الموسيقي الرفيع، إلاّ أنني أشك في أن القارىء الليبي على وجه الخصوص يتقبل هذا النوع الحديث من «النثر» واعتباره شعراً حقيقياً كما يفهم هذا القارىء الشعر. ولكني سألجأ هنا إلى نموذج لشعر حديث لشاعر لبناني مجدد، أثارت أشعاره ضجة هائلة في النقد في الأوساط الأدبية، وقد كتب عنه الكاتب المصري المعروف «أنيس منصور» في مجلة «الهلال» عند صدور ديوانه الأول «كلمات من خشب»، أما ديوانه الثاني «جنازة كلب» فقد تولى أنيس منصور عملية التقديم له، واعتبره شاعراً جديداً وخطيراً سوف يسهم بقدر وافر من التجديد في الشعر العربي الحديث. هذا الشاعر كتبت عنه في جريدة «البلاد»(*) منذ شهور.. وقلت ـ ضمن ما قلت ـ إن شعره ليس شعراً على الإطلاق بالمعنى الضيق لمفهوم الشعر الحقيقي، فهو لا يراعي الأوزان والقوافي أو التفاعيل في أشعاره، ولكنه في الواقع مجرد نثر جيد ليس غير.

وأنا ـ هنا ـ سأحاول أن أقارن بين شعر هذا الشاعر.. ونثر النيهوم، ولكم أن تحكموا، وكي لا أكون متحيزاً سأعمد إلى اختيار أروع أشعاره وأقربه إلى الشعر.. أعني الشعر الحديث، يقول «إبراهيم سلامة» الشاعر اللبناني في قصيدة **ضياع**(3).

«نفسي أبيعها للزبالين

مع قذارات الشارع.

سلة مهملاتي

(*) جريدة كانت تصدر في مدينة (سبها) الليبية خلال الستينات من القرن العشرين وكان (إبراهيم الكوني) أحد كتابها، قبل أن يطل على القراء في مرحلة لاحقة برواياته المشهورة.

وسختها بكل عيب ومشين
دستها في الليل
بحذائي الموحل
وجعلتها مومساً للمومسات
يضايقني هذا الشريان في قلبي
ضيعني في كل مكان،
عن بيتي
عن مستقبلي
ولم يقل لي مرة:
يكفيني سخافة
يكفيني ضجر..
على سرير غرفتي
أرى الدنيا جنة
فأسرع وراءها
فإذا هي كغرفتي
بابها بلا مفتاح
شبابيكها مفتوحة
وروائح غسيل النساء
أروضها بزجاجة «الويسكي»
فتفور بدل أن ترقد.
أعتمها بدخان «السجائر»
المتلاحق من فمي

فيعتم وجهي وتتيبس شفتاي

وتزداد هي تمرداً وتألقاً..».

هذا كل ما أستطيع أن أسرده من قصيدة الشاعر اللبناني الذي استطاع أن يثير ضجة بمثل هذه الأشعار، ولكم أن تقارنوها بهذا «النثر» للنيهوم وأنقله لكم الآن من الذاكرة[4]:

«.. فلا تجهد نفسك في نقاشي ولا

تدعني أموت من الضحك

فأنت في الواقع لا تستطيع أن تقنعني

لأنك لا تملك شيئاً تقوله

ثم إنني أيضاً لم يعد في وسعي أن أصغي إليك

فالمسافة بيننا أطول مما يصل الصوت والصراخ».

هذا مع اعتبار أن النيهوم لا يكتب شعراً حقيقياً بكل معنى الكلمتين.. إنه في الواقع يكتب نثراً، وهذا النثر ليس متعمداً بدوره.. إنه يفرض نفسه ويجيء من ذاته، ليحافظ على تماسك الفكرة وملازمة الشكل للمضمون حتى يؤديا دورهما معاً بالضبط.

إن حصيلة النيهوم الثقافية ومعينه اللغوي الضخم كانا باستمرار العامل الأول الذي حقق له هذا النجاح الفائق في إيجاد زوايا العرض المناسبة. على أن بحثنا لهذا الجانب الفني الفريد في كتابات هذا الكاتب لا يتصل بالمضمون ولا يتناوله بقدر ما يتصل بالشكل وحده، وإذا كان اهتمامنا بالشكل الفني في هذه الكتابات قبل أي جانب آخر، فإن ذلك بسبب إيماننا المطلق بأن الشكل عند هذا الكاتب هو القاعدة.. وهو الأداة المثلى، الوسيلة الأولى، وهو في النهاية كل شيء بالنسبة للنيهوم، فبرغم أنه لا يعمد إلى عرض

المضامين بصورة مباشرة.. وبرغم أننا لا نستطيع أن نعتق الشكل ونفصله عن الموضوع إلاّ أن هذا الشكل الفائق الفعالية يظل على الدوام الوسيلة الفريدة في عرض المضمون في الثوب القشيب الجذاب، البعيد عن التقريرية والتناول المباشر، وهو ما يعتمد عليه النيهوم أساساً.. ويوليه جلّ اهتمامه. والواقع أنني لا أستشف هذه الحقيقة من خلال كتابات الكاتب فحسب.. بل من اعترافه هو بذلك في سلسلة تحقيقات «الذات والموضوع» حين يقول عن سؤال لي، حول رأي توفيق الحكيم في تحقيق أسلوب فني مستقل: «بالنسبة لي ـ يقصد قول الحكيم ـ لا صحة له فأنا بدأت معتمداً على الشكل الفني بالذات.. وليس في نيتي أن أعارض رجلاً مهيب السمعة مثل توفيق الحكيم، ولكني من جهة أخرى لا أريد أن أقول إن شيئاً لم يحدث في تجربتي الخاصة، فعملية الزحف بالنسبة لي بدأت بحثاً عن الشكل والمضمون معاً داخل لحظة واحدة، وليس عن الشكل وحده أو المضمون وحده.. الخ».

وهناك جانب آخر يكاد يكون أكثر إثارة في كتابات هذه الشخصية الأدبية المتعددة الجوانب ينبغي ألا نهمله.. وأعني بذلك هذه السخرية الراقية المشحونة، عبر قوالب فلسفية مبسطة بطريقة ذكية، تكاد تكون خارقة في حد ذاتها. إنها سخرية يقطر من أردانها الذكاء اللماح.. وتجيء على الدوام مثقلة بالفلسفة ـ المتوصفة ـ والرمز الجبار الذي يلعب دوره كما ينبغي في الإيحاء الملهم من أجل إبراز الفكرة إلى حيز الوضوح وتسليط الأضواء على جوانبها بمهارة فلسفية فائقة، وهذه السخرية الفريدة إلى جانب دورها البارز داخل إطار الفكرة، تبدو مبسطة خالية من التعقيد في ظل الرمز المشحون بالصورة الفلسفية.. وهي لذلك تسمو على كافة «السخريات» المألوفة التي ما عتمت تطالعنا من بعض الكتّاب

العرب أمثال محمود السعدني ومحمد عفيفي وأحمد رجب وسالم الجسر.. حيث تجيء سخرية هؤلاء خارجة عن الذوق وماسة بالأخلاق حيناً ومسفة وسخيفة أحياناً.. وفضلاً عن ذلك تكتسب على الدوام الطابع العامي العاجز عن استيعاب المضامين الكبيرة، في حين يحدث العكس عند النيهوم، إذ يشحنها بكل ما يريد أن يقول دفعة واحدة دون أن تفقد هذه السخرية عذوبتها ودون أن يؤثر ذلك في المضمون، أو يحدث ما من شأنه أن يربك ذاكرة القارىء أو يجهده ذهنياً.

ثم إن هؤلاء الكتّاب المعروفين بسخرياتهم كثيراً ما يقعون فريسة الخلط المريع بين الوسائل والأهداف فيما يعالجونه من قضايا، إذ تمس «النكتة» هدفاً على حين فجأة بدل أن تكون مجرد وسيلة تدعم الفكرة كما هو الحال عند النيهوم. وذلك يحدث ـ غالباً ـ نتيجة لأسلوب السخرية ذاته عند هؤلاء وقصوره الواضح عن القيام بدوره كما يجب. أما السخرية وروح النكتة عند النيهوم فالأمر بشأنها مع هؤلاء يختلف اختلافاً حاداً ظاهراً.. ففي اللحظة التي تبدو فيها «نكت» هؤلاء سخيفة ومسفة، تبدو النكتة عند النيهوم رفيعة ترقى عن ذلك الأسلوب.. وفي الوقت الذي تظهر فيه السخرية عند هؤلاء داخل نطاق الفكرة متهالكة.. منهارة، تظهر عند النيهوم متماسكة صلبة مسخّرة لخدمة الفكرة بالدرجة الأولى. وفي الحين الذي تبدو فيها عند هؤلاء هدفاً في حد ذاتها، تبدو عند النيهوم مجرد وسيلة داخل إطار الأفكار! وإلى جانب ذلك تكتسب ميزة أخرى وهي بساطتها، بحيث يفهمها المثقف المتواضع الثقافة بنفس الدرجة، من العمق والقوة، التي يفهمها بها المثقف الرفيع الثقافة.

إنها سخرية فريدة تماماً تجعلك تضحك حتى تطفح عيناك

بالدموع. وتجعلك في ذات اللحظة تبكي حتى تطفح عيناك بالدموع أيضاً! إنها تثير في النفس مشاعر لها وقع الكابوس أحياناً، وتبعث أيضاً أحاسيس لها صفاء الحليب ونقاؤه!

إنها سخرية مشبعة بروح النكتة الغربية بوسائل غربية، ولعل هذا هو السبب الذي جعلها تتسم بميسم قائم بذاته يختلف كل الاختلاف عن أضرابها من «سخريات» بقية الكتاب العرب الذين يحترفون الكتابة الساخرة، وهذا الطابع الذي يلمسه المرء في كتابات النيهوم الساخرة يدعم إلى حد بعيد ما قال به الأديب يوسف القويري(*) من أن النيهوم يكتب من خلال نظرة أوروبية مطلقة، وبرغم أن النيهوم يحاول ذلك في تحقيق «الذات والموضوع» بيد أن لرأي القويري نصيباً كبيراً من الصحة! وبرغم أنه ينبغي دراسة هذه الظاهرة على حدة في كتابات فيلسوفنا الساخر، إلاّ أن المفاضلة بين هذه الظاهرة والظاهرة الأخرى المتمثلة في ذلك النبض الشعري الرفيع الذي أفرد له هذه الدراسة.. هذه المفاضلة لا يجب أن تكون. فكل من الظاهرتين لها سمتها البارزة المستقلة.. ولها دورها الفعال، وتقف بالتالي شامخة قائمة لوحدها. فلماذا المفاضلة والمقارنة؟

والنيهوم ـ إذن ـ يستعمل هذا الأسلوب الذي ينبض بإبداع الصور الشعرية ـ كما قال في تحقيق الذات والموضوع ـ لمواجهة العجز الناتج عن ضيق الكلمة. فيا لها من فكرة صارمة ودقيقة هذه التي يحددها الفيلسوف الساخر. فبرغم رصيده الهائل من الثروة اللغوية المثقلة بالنقش الأوروبي في التعبير، كما اكتشف القويري،

(*) كاتب ليبي، له العديد من المؤلفات المهمة في قضايا الأدب والفكر، من أشهرها (الكلمات التي تقاتل) و(على مرمى البصر).

يظل هذا الكاتب العبقري يعاني من العجز في ضيق الكلمة وعدم قابليتها للتعبير عن كل الأفكار كما ينبغي، النيهوم إذن في محنة! فهو ـ كما يقول هو نفسه ـ يكتب لكي ينقل شيئاً يحس به.. وينقله من أقرب طريق ممكن.. فما هو هذا الطريق الأقرب الممكن في نظر كاتبنا الساحر؟ أعتقد أنه سؤال هام وخطير فيحسن أن نرجىء الإجابة عليه لنرى طبيعة هذا العجز في نطاق الكلمة ووسيلة النيهوم لقهره.. يقول:

«إنني إذا أردت أن أقول شيئاً فلا بد أن أقوله. وإذا أحسست تجاهه بالعجز فإن ذلك يجعلني أصر مرتين على القيام بتنفيذه.. وفي العادة أنا أحقق هذا الهدف خلال المحاولات المتسمة بالعناد التي تعلمت أن أقوم بها كي أجعل كل كلمة تؤدي مهمتها بالضبط.. إني أكتب أحياناً المقال الواحد أكثر من عشر مرات كي أجد الزاوية المناسبة للعرض.. وأنا أعتقد أني وجدت تلك الزاوية دائماً».

أجل.. لقد وجد هذه الزاوية بالعناد والحلم أيضاً! فالحلم ـ كما يقول ـ هو مادة الشعر التي تمده بالشجاعة في مواجهة عجز الكلمة وقصورها عن التعبير عن صوفيته وفلسفته. أليس مثيراً ومدهشاً أن يكون للنيهوم هذه الثروة اللغوية.. ويبقى يعاني الصراع ضد ضيق الكلمة. وقصور اللغة، هذه اللغة، التي ما عتم يصفها ـ في كتاباته ـ بالتواضع!

وربما كان هذا الاستنتاج مجرد خلط مريع بين قصور الكلمة والعجز الواضح في نظر الكاتب ـ في اللغة.. بيد أن كلاً من المحنتين تلتقيان ـ في آخر المطاف ـ في نقطة واحدة. فهل يحدث هذا الضيق في الكلمة حتى في اللغات الأوروبية؟ أعني هل يقصد النيهوم بضيق الكلمة ذلك الضيق الذهني أم هو مجرد قصور في

اللغة؟ وأستطيع أن أقرر بحزم أن الذي يعنيه الكاتب هو العجز الذهني الذي ظل يواجهه بالحلم المتمثل في ذلك النبض الشعري الحاد.. برغم كل اتهامات النيهوم للغة العربية بالقصور والعجز والتواضع. فإذا كان هذا الضيق هو ضيق ذهني فلا شك أن ذلك يحدث في كل اللغات بما في ذلك اللغات الأوروبية.

وعلى كل حال فإن هذا السؤال لا يلبث أن يبقى معلقاً في الهواء.. في حين نكون قد أجبنا على السؤال الذي طرحناه قبلاً. فهل تشكون بعد كل هذا في أن النيهوم لا يكتب الأشعار؟ إنه ـ في الواقع ـ لا يدّعي ذلك كما قد يفسر البعض «أقواله» لي في «الذات والموضوع» ولكنه يكتب هذا النثر الرفيع الذي يرتقي بكفاءة مطردة إلى مستوى الشعر الأصيل، حتى إنه يتجاوز أشعار بعض الشعراء المحدثين أحياناً ـ من حيث الجودة الفنية ـ كما لمسنا من المقارنة بين «نثره» وبين شعر الشاعر اللبناني إبراهيم سلامة، وثمة الكثير والكثير جداً من النماذج النثرية النفيسة الفريدة في نوعها التي تحفل بها كتابات فيلسوفنا الساحر يمكن الاستدلال بها في هذا المقام. أجل.. لقد أمسى النيهوم ـ بنثره ـ ينافس الشعراء أيضاً!!

1969

المصادر:

1 ـ مقال «الحزن بقليل من عصير الليمون»، صادق النيهوم، جريدة **الحقيقة**، العدد 960 ـ الصادر بتاريخ 1968/11/30.

2 ـ مقال «أشباح ليبية وأشياء أخرى»، صادق النيهوم، جريدة **الحقيقة**، العدد 966، الصادر بتاريخ 1968/12/7.

3 ـ قصيدة «ضياع» من ديوان إبراهيم سلامة **جنازة كلب**.

- مقال «أرقام للبيع» صادق النيهوم، جريدة **الحقيقة**، العدد 1000 الصادر بتاريخ 22 مارس 1969.
- «الذات والموضوع» سلسلة تحقيقات أدبية بمجلة **الإذاعة** عدد 5 ابريل 196.

أعمال مختارة

«.. ويسهر الخلق جراها ويختصم»

المتنبي

«هذه كلماتي التي لا أعرف غيرها.. ولا أمتلك غيرها..
أتركها لك ولكل من يريد أن يمتلكها»

النيهوم

(كتبها إلى صديقه ـ عريف أفطئه ـ سنة 1970 ـ بنغازي

(*) هذه المختارات نشرت في صحيفة الحقيقة، بنغازي. في الفترة من (1966 - 1971)، وهي إضافة إلى الملاحق، من الأرشيف الخاص لمعد الكتاب.

هذه تجربتي أنا

حكايتي عجيبة ..

أردت أن أجعل كلماتي تضيء.. أن تقول بالضبط ما أريدها أن تقوله، وقد أعطيتها مهلة كاملة لكي تفعل ذلك فقد ظننت أن الكلمات مثل ثمار الشماري تحتاج إلى تسعين يوماً مشمساً كي تنضج..

وعندما قرأت مرة أن الكلمات تتغذى على التجارب انطلقت كالمجنون أجوب الأرض والأحداث، وأبحث عن التجارب في شوارع العالم وفي الأزقة وفي سفن الصيد والجامعات عبر آلاف الأميال الموجعة.. وبعد أن قطعت كوماً مقززاً من السنين اكتشفت فجأة أن ذلك كان خداعاً لا قيمة له، كان كذباً كله منذ البداية. وكان يجب أن أتوقف.. أن أدق رجلي في الأرض مثل مسمارين وأتوقف.. ولكن ثمة أمراً بشعاً كان قد حدث في داخلي، ووجدت نفسي أقف في نقطة الوسط حيث تلتقي جميع الطرق الصاعدة والهابطة.. حيث كان من المفروض أن لا يقف أحد. وفي ملايين اللحظات المتتابعة التي تسير في جميع الاتجاهات

اكتشفت برعب قاتل أن تلك منطقة الصفر.. وأنني أقف عارياً في فراغ حاد.. ومتوحداً وحدة كاملة. وكان لا بد أن يحدث انكسار في داخلي، فلم تعد لديَّ أية قدرة على التكيف، تماماً كما ينكسر الشراع المتصلب في وجه الريح. ولقد حدث الانكسار فعلاً ولكني لم أغرق بل ظللت أطفو مثل حوت متعفن امتلأت أمعاؤه بمخزون هائل من الهواء، وظلت عيناي مفتوحتين ممتلئتين بالحياة تجوبان المحيط على مدى البصر وتريان إلى فقاقيع الضوء الأزرق الغامق التي شرعت تحتشد في الأفق عبر آلاف من الذكريات المتوهجة والميتة، وآلاف أخرى من الأفكار المتوحشة المنطلقة كالجياد البرية في غير اتزان، ووجوه الأصدقاء والأماكن، وكلمات الود على طول الطريق، وأضواء القطارات والمدن، والحجرات الصغيرة الغارقة في الدخان وروائح النبيذ والسأم، وآلاف الوداعات المشحونة بالأحزان والتوتر، دنيا كاملة مربكة إلى أبعد الحدود، وعشرات القمم المترامية والشموس الساطعة بلا انقطاع، وملايين حقيقية من الأصوات الحادة المحرقة، لم يكن ثمة نهاية أبداً، لم يكن ثمة حد حقيقي على أي من الممرات. وكانت رحلتي قد طالت، وتمزقت. وكنت أشعر بوحدة هائلة فجلست في المساء وكتبت إلى أحد أصدقائي، قلت له: (خليفة يا صديقي، أنا ضائع ووحيد مثل ريشة سقطت من جناح طائر، وكلماتي لا تزال مطفأة مثل عيني خنزير ميت، أنا لن أستطيع أن أفعل شيئاً).

وكتب صديقي: (لا تعد تقل ذلك .. إن ملايين الطيور تعبر المحيط كل عام ورقع الأرض المترامية بحزمة من الريش، وبضع زقزقات..).

وفي تعب متناه انطلقت أتبع طريقي.. كانت مشكلتي واضحة

تماماً.. ولكنني لم أستطع أن أقرر قط من أين أبدأ في حلها.. وقد بدا الأمر بالنسبة لي وكأنني أقف في جردل فارغ وسط بئر مظلمة مملوءة بالأصداء.. ولقد خيّل إليّ عبر ليالي وحدتي ـ أنني بدأت أضيع بدقة متناهية في عالم أملس تنزلق قدماي على أرضه بلا انقطاع.

كنت أريد أن أعرف ـ في الدرجة الأولى ـ كيف أستعمل كلماتي بحرية أكثر.. كيف أعطيها كل ما تحتاج إليه من الضوء.. وكنت أحس بأن ثمة قوانين غامضة تتحكم في قدرتها على النمو.. وأنني مطالب بأن أعرف تلك القوانين فوراً، ودون شك من أي نوع إذا كنت أرغب في مواصلة طريقي، وفي بادىء الأمر خيّل إليّ أنني يجب أن أصرف انتباهي إلى تاريخ اللغة نفسه، ولكن ذلك المنهج بدا بعد شهور قليلة محدوداً على نحو ما، كان يمدني بكل شيء عن الكلمة التي أرغب في البحث عنها، ولكنني لم أستطع أن أنفذ خلاله إلى حقيقة المشكلة ذاتها، وبدا في النهاية منهجاً أكاديمياً عقيماً غير قابل للتطور بأي شكل. وعدت أبحث عن طريق آخر.. وقد تقرر في ذهني أن أشرع في البحث بطريقة مفتوحة منذ البداية.. فتركت كل أشيائي جانباً وبدأت أقرأ ما أجده أمامي وأراقب كلماتها بلا تحديد.. بلا ضبط أو أي رغبة من أي نوع، وكنت أسأل نفسي كلما قرأت عملاً فنياً ناجحاً: أليس ثمة سبيل لأن أعرف كيف حدث ذلك..؟

وبعد سنين طويلة مملة.. وآلام لا حد لها، اكتشفت أنني ما زلت غير قادر على إيجاد منهج أكاديمي يمكن قبوله، وأن تلك الأشياء ـ التي قررت التعامل معها ـ غير قابلة للتحديد المنهجي بأي شكل، وكان عليّ أن أقرر فيما إذا كنت أرغب في مواصلة البحث

وحدي أو أن أتخلى عن الموضوع كلية.. وأذهب للجحيم، وقد رأيت أن لا أذهب إلى هناك الآن بل أبقى معكم ريثما أقول لكم كيف تمت هذه العملية المرهقة.. وماذا بقي لديَّ منها بصورة ثابتة، منتظراً أن أجد لديكم استعداداً ما للمضي إلى الخطوة التالية، ولعل بينكم الآن من يستطيع أن يكون أكثر إيجابية مني، وعلى أي حال، أرجو ألا ينسى أحد أن ما أقوله في الأيام القادمة يعني بكل إخلاص ثلاث كلمات فقط (هذه تجربتي أنا).. ولكل منا الحق في أن يقول تجربته على نحو ما.

1966

ثلاث دقائق كاملة

ثمة مائة وخمسون مليون مدينة في العالم وعدد لا يحصى من الناس.. مخلوقات معقدة على كل لون، تتعلق بأمنا الأرض وتمتص غذاءها من التراب.. وكل مخلوق منهم يعيش في عالم وحده، مشيداً قوقعته حوله بأحجار الفلسفة الصلدة التي لا يمكن قهرها، مغلقاً منافذه، مستعداً للدفاع عن كل حجر في عالمه إلى آخر لحظة.. فإذا أحس بالخطر يهدد قلعته، يقف شعر رأسه من الغضب ويشرع أسنانه ثم يبدأ الهجوم مباشرة بكل ما لديه.. إلى آخر لحظة! لذا شنق الأنبياء بحبال الليف.. ووضع إبراهيم في النار، وهدمت مدينة أخناتون فوق رأسه، وأرغم سقراط على أن يشرب نخب الفلسفة ممزوجاً بالسم الحاد. إنه لا يملك شيئاً سواها، ولا يستطيع أن يتنازل عن حجر واحد منها، إلاّ إذا بذل جهداً خارقاً بالغ الضخامة.. إلاّ إذا أحدث في رأسه ثقباً ليدخل الهواء..

ومنذ بضعة آلاف سنة كان سكان العالم مجرد قطعان صغيرة مقرورة، تهيم عبر براري الشرق، باحثة عن شيء تأكله، مواصلة هروبها أمام باقي الحيوانات، جائعة بلا انقطاع.. وكان عددهم إذ

ذاك مثل عدد سكان بيونس آيرس الآن.. ثمان ملايين فقط، ثم أخرج أحدهم المحراث.. فيما اكتشفت إحدى النساء أنها تستطيع أن تركب فوق ظهر حيوان اسمه ـ الحمار ـ دون أن يعضها.. وأحضرته معها وربطته أمام الكهف.. وعندما اجتمع المحراث والحمار زرع أول حقل قمح في العالم، وانتهى عصر المجاعة الذي دام أكثر من ثمانين مليون عام.. ثم بنيت بابل، وطوقت بثلاثة أسوار حجرية للدفاع عنها ضد الرعاة الجائعين على طول نهر الفرات.. وكان الإنسان قد بدأ يتعلم بناء قلعته الخاصة في رأسه، كان قد شرع يمارس الفلسفة.. وتمّ اختراع أول أداة حديدية للقتل.. وفتح البابليون أسوار مدينتهم وانطلقوا لفتح رؤوس الرعاة، وإحداث ثقوب فيها لكي يدخل إليها الضوء والفلسفة وحب الربة عشتار.. ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الحرب بالفلسفة، وأخذت المدن على عاتقها مهمة نقل الحضارة إلى الرعاة، واقتحام رؤوسهم بالقوة.. فيما تعهد الرعاة بمهاجمة المدن وتدميرها كلما سنحت لهم فرصة..

وهكذا تمّ صنع الإنسان.. وكانت بابل التي قامت بهذه المهمة مجرد مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها سكان الطابقين الخامس والسادس في عمارة الامباير ستيت.. أي حوالي ثلاثين ألف نسمة.. ولكنها كانت أكبر مدينة في العالم إذ ذاك..

وبدأت لعبة الحرب.. وشن الرعاة اليهود أول هجوم انتقامي على جيروشيا ودمروها عن آخرها، فيما وقف النبي يوشعيا ليلعن كل من يضع حجراً في المدينة العاهرة.. ثم تكفلت بابل بعقاب اليهود، وأحرقت مدينتهم أورشليم وهيكل سليمان معاً، وباعت عشرة آلاف فتاة يهودية في أسواق القراصنة المزدحمة على طول

الساحل بين فينيقيا وإسبانيا، وفي المرة التالية جاء الهجوم من آشور.. وتبادلت مدينتا نينيف وبابل عمليات القتل الجماعية، وكانت كل مدينة منهما تقوم على أحجار الأخرى، فلم يكن العالم يملك ما يكفي من الأحجار لبناء مدينتين في وقت واحد! ثم اشترك باقي الفاتحين في المهرجان، وغرس رمسيس رمحه على حدود سوريا الشمالية، معلناً عزمه على الوصول إلى آخر الأرض فيما قرر ـ دارا ـ الفارسي أن يسرق منه ذلك الحلم.. وبعد مائتي عام تمكن شاب مقدوني اسمه الإسكندر الأكبر من الوصول إلى آخر الأرض وكانت طروادة قد هدمت للمرة السابعة.. وأصبح في وسع أسطول أثينا أن يبحر على طول ساحل آسيا دون أن يضطر لدفع رسوم لأحد.. وبنى بركليس أثينا مرة أخرى بعد أن هدمها الفرس فوق رأس زيوس.. وفيما كان الديمقراطيون النبلاء يحتفلون بدفن العداء ـ ماراثون ـ الذي حمل أنباء الانتصار على الفرس، كانت إحدى القابلات تستقبل طفلاً عجيباً اسمه سقراط.. وتلفه داخل حزمة من الصوف الأحمر لكي ينشأ محارباً قوياً.. ولكن سقراط كان فيلسوفاً وكانت مهمته القادمة أن يحاول اقتحام رؤوس الآخرين وهي مهمة أكثر قسوة من اقتحام أسوار المدن، فليس ثمة سبيل إلى قلعة الإنسان في داخل رأسه.. إنها مغلقة بإحكام مذهل، ومحاطة بالأسلاك الشائكة والحراس الذين لا يمكن رشوتهم بأي حال.. وهي قلعة فظيعة الصلابة مثل عظم السلحفاة نفسه.. وقرر سقراط أن يبدأ النطاح مفتوح العينين.. ودامت المعركة ثلاثين عاماً كاملاً، ثم هزم الفيلسوف، وحمل إلى غرفة معتمة حيث قدم له القاضي كأساً فضية من السم، وطلب منه أن يشرب نخب انتصار القلاع.

ثم جاء أفلاطون ليحلم بالعالم دون قلاع.. فيما قرر أرسطو أن

يرافق الإسكندر الفاتح، ويفتح رأسه.. ولكن بدون جدوى فقد كان الإنسان يملك خبرة كافية لإغلاق أذنيه في الوقت المناسب.

وعندما أبحر القائد الروماني سولو لكي يهدم طروادة للمرة الثامنة، كان يمهد طريق الأمبراطورية إلى مدن الشرق.. وفي إحدى هذه المدن الصغيرة الضيقة الأزقة ولد فاتح آخر اسمه ـ عيسى ابن مريم ـ وكان يحمل كلمة الله معه..

وبدأ مهرجان الصلبان.. وقتل الأمبراطور من المسيحيين أكثر مما قتل وباء الكوليرا الذي اجتاح العالم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.. ثم قبل أن يصبح مسيحياً مثلهم ـ بعد أن علمته الفلسفة كيف يحتفظ بأوهامه الوثنية تحت اسم آخر ـ وبدلاً من أن تنمو كلمات الله في قلعة الإنسان، اختلطت ببقايا زيوس الفظيع، وجعلت المسيح ـ مثل هرقل ـ ابناً للرب نفسه، وربطت مريم بهما معاً، وربط اليونان بين زيوس وهرقل وأفيجينا، وتمّ صنع الثالوث مرة أخرى، من المرمر وكلمات الرب الودودة، وانتصبت الايقونات في رأس الإنسان، متحايلة داخل قلعته العظيمة عشرين قرناً بلا انقطاع.. فيما خلع فقهاء المسلمين أحذيتهم واقتعدوا أرصفة الشوارع بين بغداد وقرطبة محرقين بخورهم ليكتبوا كلمات الله في الأحجبة الملونة مقابل بيضة وحفنتين من دقيق القمح، وخمد لهيب المعركة حتى أوقده بيكون وداروين مرة أخرى بعد سبعة قرون.. ثم حملته الأقمار الصناعية إلى السماء.

وبدأ الإنسان ـ يفهم ـ بدأ يرى قلعته العظيمة في ضوء الشمس، ويحس بمدى بشاعتها عبر تلك الحزم المعتمة من الجهل والشره والأنانية التي لا حدّ لها.. وكان من الواضح أن تلك القوقعة لا يمكن كسرها إلاّ بمعول مصنوع من الماس.. إلاّ بحفنة

من الكتب الجيدة التي تستطيع أن تفتح النوافذ أمام ماء المطر والشمس.. وتغسل رأس الإنسان جيداً حتى تختنق خفافيشه الفظيعة..

ولكي يتعلم الإنسان هذه الحقيقة مات ألف نبي.. وأنزل الله ثلاثة كتب مقدسة، وشرب مليون فيلسوف كؤوس السم الحاد.. وبنيت مائة وخمسون مليون مدينة، والآن.. إن ثمة اثني عشر مليارد من الناس على الأرض .. سلم مصنوع من البشر يستطيع أن يصل إلى القمر مرتين ويأكل الأرض ـ لو كانت الأرض خبزاً ـ في خمسة أسابيع ثم يشرب النيل في اليوم التالي وكل واحد منهم يحمل عالماً مختلفاً في رأسه.. عالماً لا يقبل الذوبان في الآخرين ولا يمكن أن يهدمه أحد بيديه.. والمشكلة أن ـ الحقيقة ـ ليست اثني عشر مليارد.. إنها حقيقة واحدة ليس غير.. فكيف يجتمع الناس عند نقطة واحدة.. كيف تتخلى القلاع عن أوهامها،، وتأتي لكي تذوب مع الآخرين!! ومن يقنع من؟ فإن تلك مشكلة هائلة لم يستطع أحد حلها حتى الآن.. ولقد تطلب الأمر مرة أن ينهض الطوفان لكي يقتنع الناس بكلمات نوح.. وأن ينهض الموتى ويمشي الكسيح لكي يقبل اليهود أن ينصتوا إلى عيسى بضعة دقائق.. ولكن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك الآن، فالموتى لم يعودوا ينهضون طبقاً لأمر أحد.. وليس ثمة فرصة لإحداث معجزة لا يستطيع العلم تفسيرها.. فالإنسان يعرف أشياء كثيرة في هذا العصر.. إنه يعرف كل الحيل تقريباً.. والفرصة الوحيدة.. والأمل الذي لا شيء وراءه تحمله الكتب وحدها.. تلك الورقات القادرة على النقاش الجيد في ضوء شمعة أو في ضوء الشمس.. والتي ظلت تحمل الفضيلة بين يديها منذ أن حفر القسس أول كتاب في حجر بابلي بمطرقة ومسمار صدىء إلى أن دارت المطابع العملاقة

لكي تُخرج كتاباً كل أربع دقائق، الأمل أن يفتح الإنسان نوافذه الصدئة.. أو ينتظر طوفان الهيدروجين تحمله النفاثات مثل أكياس البريد من موسكو وإليها، مهرجان القراصنة الملون.. فقد حدث ذلك دائماً بين بابل ونينيف.. وبين روما وقرطاجنة.. وبين برلين وباريس.. ويستطيع أن يحدث بين موسكو وبين الآخرين في المرة القادمة. الفرق الوحيد أن الرعاة يملكون سلاحاً ذرياً الآن.. لعبة جديدة. لا تفتح رأس أحد ولكنها تحيله إلى رماد خلال ثلاث دقائق مشحونة بألم لا يعرفه سوى أطفال نجازاكي الصغار.. ألم يشبه الاحتراق داخل فرن في بدلة من النحاس.. ثلاث دقائق كاملة.

1966

من قصص الأطفال

قالت الأسطورة:

كان ثمة بحار اسمه سليم!!

وكان قد عمل في قوارب الصيادين وسفن صيد الإسفنج وفي البواخر الكبيرة المهيبة، وذرع البحار كلها وحيداً مثل موجة، ومثل موجة أيضاً انتهى به المطاف إلى أحد الشواطىء.

وإذ لمست قدماه الأرض بعد سنوات الرحلة الطويلة أدرك أنه أصبح عجوزاً.. فقد قذفه البحر على الشاطىء كما يقذف جثث الأسماك والقواقع الميتة.. ولقد أدرك ـ فيما كان يستلقي عند أقدام الموج ـ أنه لم يعد قادراً على الإبحار من جديد، فالذي يرميه البحر مرة لا يبحر فوقه مرة أخرى.. وقد قال في ذات نفسه ـ إن المرء لا بد أن يصبح عجوزاً في النهاية.. ولا بد أن يعيده البحر إلى الشاطىء ـ ثم قال مخاطباً البحر: وداعاً يا صديقي فقد حان الوقت لكي نفترق الآن.

وأقام ـ سليم ـ كوخاً من صدف القواقع والمحارات على الذراع

الناتيء عند مدخل الخليج، وقنع بأن يقضي بقية أيامه بجوار البحر مثل [illegible] عجوز.

ثم قالت الأسطورة:

كانت عرائس البحر والنوارس تزوره كل يوم.. وكانت تقتعد الرمل الذهبي المفروش بالندى أمام كوخه وتتلاعب في ضوء الشمس، فيما ينثر لها سليم فتات الخبز وبقايا السمكات الصغيرة التي يدخرها من طعامه، كان يحب أن يعطي طعامه لأي أحد.. وكان يعتبر النوارس أصدقاءه، ولقد أحبَّ أن ينظر إليها فيما هي تتجمع لتلتقط فتات الخبز ثم تنطلق في بياضها الناصع مثل حفنات من الثلج على طول مدخل الخليج.. وكان يدخر لها طعامه كله في بعض الأحيان ويكتفي بأن يمضغ كسرة خبز مع كوب الشاي في المساء، أو يبحث عن أحد سرطانات البحر الضالة فوق رمال الشاطيء مهتدياً إليها بصراخها الخافت والتماع قشورها الفوسفورية في ضوء النجوم، وكان يحب أن يطاردها ويتركها تعض اصبعه الصلد فيما كان يقوم بنزع قرونها وأرجلها، وكان يتحدث إليها ويشعر تجاهها بالود ولكنه كان مضطراً لأكلها.

ثم قالت الأسطورة:

وفي ذات يوم حدث شيء محزن في القرية المجاورة. فقد تجرأت إحدى القطط الجائعة وسرقت قطعة جبن من مخزن القاضي.. وقد حزن القاضي حزناً عظيماً وأمر في غضب بأن توضع اللصة في كيس وتوقد فيها النار.. وكان ذلك عقاباً قاسياً، ولقد صرخت القطة بفظاعة عندما شرعت النار تحرق فراءها.. واضطرب البحر، ووشوشت الموجات في ذعر، وغاصت القواقع إلى القاع فيما انحنت الريح فوق جثة القطة البائسة وحملتها ـ في

زفرة واحدة ـ إلى كوخ سليم. وجاءت النوارس في اليوم التالي فرأت صديقها العجوز يقتعد الرمل بجوار قطة صغيرة محترقة الجلد، وقد بدت على وجهه أمارات الحزن الشديد.. وطارت الطيور حوله في ألفة وتلاعبت أمامه لكي تسليه، ولكنه لم ينظر إليها وظل منكس الرأس واضعاً يده على خده. وفجأة تقدم إليه أحد الطيور، كان خطافاً صغيراً ودوداً، وقد طار مباشرة فوق كتف سليم وقال له بعينيه الواسعتين:

لماذا أنت حزين؟

فقال سليم: أيها الخطاف انظر إلى هذه القطة، لقد وضعها القاضي في كيس وأشعل فيها النار.. فهزَّ الخطاف رأسه وجلس يفكر قليلاً ثم طار في اتجاه البحر، وقد رآه سليم يختفي في الأفق مثل نجمة بيضاء، وعندما عاد في اليوم التالي كان يحمل في منقاره علبة من مرهم قرمزي اللون له رائحة الكافور.. وكان سليم لا يزال ينتظره على الشاطىء.. في الحال فتح العلبة ودهن جلد القطة المحترق بالمرهم. وكان الشعر ينمو في الموضع الذي يدهنه مباشرة حتى اكتمل فراء القطة، ولم يكن مجرد فراء عادي بل أسلاكاً رقيقة من الذهب النقي.. وابتهج الأصدقاء جميعاً فيما نهضت القطة تقفز مزهوة فوق الرمال وقد انعكس فراؤها المتوهج في مياه الخليج وعيون النوارس مثل موقد صغير ملتهب.. وكانت عيناها تطفحان سعادة عندما عادت في النهاية ولعقت يد سليم.

ثم قالت الأسطورة:

قضى الأصدقاء أياماً طيبة معاً، وبدأت القطة الصغيرة تصطاد سرطانات البحر بوفرة لأصدقائها النوارس ثم تظل تلعب معها فوق صخور الخليج حتى تغرب الشمس وتعود النوارس إلى أعشاشها،

وكانت القطة الصغيرة تحب أن تشاهد الغروب مقتعدة الأرض بجوار صديقها العجوز، فيما كانت تنعكس ألوان الغسق فوق فرائها فتبدو كأنها شمس صغيرة أخرى تغرب أمام الكوخ مباشرة.

وفي ذات يوم مرَّ القاضي راكباً حماره بحذاء الشاطىء ورأى القطة الذهبية تختال في فرائها الجميل، وفي الحال ذهب إلى سليم وقال له: أيها البحار الفقير هذه قطتي.

فقال سليم: أجل يا سيدي إنها قطتك وتستطيع أن تأخذها معك متى تشاء.

فقال القاضي: أيها البحار الفقير أنا أريد أن آخذها الآن. فنكس سليم رأسه فيما قبض القاضي على القطة الصغيرة وربطها فوق حماره ثم انطلق بها.. وقد بكت القطة بحرقة وتلفتت تنظر إلى كوخ سليم حتى ربط القاضي عينيها بمنديله.. فيما عاد سليم نفسه إلى الكوخ وشرع يبكي وحده طوال الليل أما القاضي فقد خبأ القطة الذهبية تحت ثيابه حتى لا يراها أحد في القرية، وعندما وصل إلى بيته طرد زوجته وأولاده خوفاً من أن يسرقوا قليلاً من الفراء، ثم أحضر سكيناً وذبح القطة وسلخ فراءها الثمين بدقة حتى لا تسقط منه شعرة واحدة، وقد استغرق ذلك الليل كله، وعند الفجر كان قد أنهى عمله وحمل الجثة العارية وألقاها في الخارج، وفي تلك اللحظة اضطرب البحر ووشوشت الموجات في ذعر، وغاصت القواقع إلى القاع فيما انحنت الريح فوق جثة القطة البائسة وحملتها ـ في زفرة واحدة ـ إلى كوخ سليم.

وجاءت النوارس في اليوم التالي فرأت صديقها العجوز يقتعد الرمل بحذاء صديقتهن المسلوخة الجلد، وفي الحال تقدم إليه

الخطاف الصغير، وقال له بعينيه الواسعتين: لا تحزن فسوف أحضر لك علبة أخرى من مرهم الكافور وسوف تغطيها بفراء ذهبي.
ولكن سليم هزّ رأسه في يأس ثم قال: يا صديقي الخطاف الصغير.. لو كان الفراء الذهبي مجدياً لأي حيوان لخلقه الله له، ولكن الله غطّى حيواناته بالشعر لأن ذلك أقل إغراء بقتلها، فتذكر ذلك عندما تحضر علبة المرهم.. ومرة أخرى طار الخطاف الصغير في اتجاه البحر، ورآه سليم يختفي في الأفق مثل نجمة بيضاء، وعندما عاد في اليوم التالي كان سليم لا يزال ينتظره على الشاطىء.. وفي الحال فتح علبة المرهم ودهن جسد القطة فنما فراؤها مباشرة ونهضت صائحة في اضطراب:

لا يا أصدقائي دعوني أموت.. لا أريد فراؤكم. ولكن سليم قال لها برفق: لا تخافي فهذا فراؤك كما يريد الله.. غطاء ناعم من الشعر الذي لا يأكله أحد..

ثم تقول الأسطورة:

إن القاضي نهض في الصباح فوجد أن شيئاً غريباً قد حدث له، فقد اختفى الفراء الذهبي من تحت وسادته وأصبحت رائحته هو شبه رائحة القطط. وقد ذعر القاضي ذعراً شديداً وشرع يغسل جسده ويحكه بمختلف أنواع الليف والأحجار الخشنة ولكن بدون فائدة، فقد ظلت رائحته تشبه رائحة القطط. وحملته الدولة على نفقتها للعلاج في الخارج بعد أن كتبوا في أوراقه أنه مدرب سيرك حتى لا يثيروا دهشة العالم، ولكن بدون فائدة فقد ظل القاضي قطة ولم يستطع أحد شفاءه.. وأخيراً أعيد إلى بيته داخل عربة مغلقة ومنعت عنه الزيارة، وقضى أيامه الأخيرة مربوطاً فوق سريره لكي لا يذهب للبحث عن الفئران.

ثم قالت الأسطورة:

ومن ذلك اليوم ظلت رائحة اللصوص مثل رائحة القطط وظلت الكلاب تطاردهم بلا انقطاع.. أما تلك القطة فما زالت تعيش في كوخ سليم.

1966

(حفنة من أبيات الشعر)

الحكمة رأس الفضائل.. والحكمة رأس مال الإنسان.. وعندما يفتح أحدهم عينيه في الصباح، ويشرع في بيع الريح للمراكب، يحس الشيطان نفسه بالخجل - الشيطان الحقيقي البسيط التركيب ويضع ذيله بين رجليه، ويفسح الطريق للحكماء..

ثم يرتفع صوت البراح - سمسارنا وصل من سمرقند محملاً أفياله بالشعر، كيس الحكمة يبيعه بقرش، ورغيف الخبز بألف دينار، فما تحرق أعواد الصندل إلاّ في نار المعرفة..

وتبدأ السوق المبهجة: ويقوم الشراء على قدم وساق وتعبأ الحكمة في أكياس التبغ ويحملها القطار إلى القرى المجاورة: هل ثمة إنسان لم ينل نصيبه، وهل ثمة من يرغب في مزيد من الحكمة فإن قوافل التجار لن تتوه عن سمرقند..

ويضيء عالمنا بالفلسفة على كل لون، حتى ينخسف ضوء القمر.. وتمتلىء جميعاً مثل أزيار القديد - بأصناف الحكمة المحفوظة في الملح - ويركب «جوني» حصانه ليقتل الهنود والأرانب ويبحث عن حفار الذهب في الصالون، فيما يجر «جوني» الآخر

عباءته فوق طحالب الجبل الأخضر ويحلم بأربع زوجات وجردلين من البترول.. ويقوم الزحام على أشده حتى يشعر المرء بالاختناق.

ثم توقد الأضواء في لاس فيجاس.. وفي بنغازي على السواء، ويتكيء «جوني» فوق مقعده في ملل، ويطلب من الساقي أن يمزج له قهوته بالويسكي ويحدثه عن الحكمة... وعن الطريق إلى جزيرة النساء:

من هنا يا سيدي، في اتجاه الريح، فعبيء جيوبك بالذهب، واغسل أذنيك جيداً، وآدهن شعر رأسك بالفسيفساء..

ويهز جوني جمله وينطلق مهرولاً وراء السعادة، فإن لديه كل شيء عداها فيما ينحني الشيطان من فرط الألم. ممارساً كل مشاعر الذل لافتقاره إلى الإنسانية التي رفض أن يسجد لها في البداية.

إن الأمر قد وضح الآن. وأثبت الناس في جميع العصور والأماكن والثقافات والأجيال والحرف أنهم جديرون بأن يسجد لهم كل شيء، وأنهم أكثر حكمة من أن يدعوا الشيطان يقودهم من أنوفهم إلى فخاخه البدائية.

الشيطان ذلك المخلوق اللص، إنه لم يدر قط أن الإنسان يستطيع أن يلوي وجه العالم في أي اتجاه.. لم يدر قط أن أحدهم سوف يسمي (السرقة) مساواة في الفرص، ويسمي الخداع استعمالاً للمواهب، والاستغلال حق الأذكياء، والظلم عقاب الكسالى والمفتقرين إلى المواهب، (والكذب) لعبة اقتصادية، والقتل جوعاً أو حرقاً في رمال الصحراء إنماءً لرأس المال العامل.. ولم يدر قط أن تلك الأسماء سوف تكتسب صفة الحكمة وتحملها الأفيال من سمرقند.

ولكن الإنسان فعل ذلك.. وأصبح زيراً من الحكمة المحفوظة في

الملح، واسألوا أي إنسان في أي عصر: هل كذبت يا سيدي قط.. هل أخذت شيئاً لا تستحقه.. هل سرقت عرق الآخرين.. هل مشيت فوق جثة أحد.. وظلمت رجلاً فقيراً وبنيت فوق رأسه بيتاً؟

وانظروا كيف يتجمد وجهه الطيب من الألم. وكيف يصاب بالدهشة، ويعتبر كل سؤال إهانة لا تغتفر.. إنه لم يفعل شيئاً من ذلك أبداً.. لم يفعل ذلك قط.

فلماذا أغرق الله العالم بالطوفان، ومن أحرق روما، وسرق نصيب جاره من الخبز.. ولماذا يسكن واحد في ألف حجرة، ويسكن ألف في الغابة.. ويأكل - المهراجا - حتى يتوقف قلبه، ويتوقف قلب الآخرين من الجوع.. ومن عبد العجل، وكتب الأحجبة ليسرق قروش العجائز، وبنى من عرق العمال يختاً وطريقاً في البحر إلى اليخت.. ومن ابتكر الكذب فإن العالم مليء بالأكاذيب الآن؟

الحيوانات ..

أجل.. الحيوانات الخرقاء المفتقرة إلى الحكمة هي التي فعلت ذلك.. الأفيال من سمرقند هي التي سرقت خبز الفقراء وبنت لنفسها قصوراً من المرمر، وهي التي بنت حصون الإقطاع في العصور القديمة، وحصون الشركات في العصور الحديثة، ومارست عمليات الخداع المدهشة لكي يصير عرق النمل زمردات حول عنق شهرزاد.

وعندما يشرع الإنسان في الشكوى من شرور هذا العالم يحس السامعون بالألم يعقرهم في بطونهم، فما أبدع هذا المخلوق الكلي البراءة، وما أرق كلماته المفعمة بالحزن، تجاه مساوىء الأفيال.

ومرة أخرى..

يركب «جوني» حصانه الأبيض وينطلق ليصطاد عبداً من فيتنام، فيما يمتطي «جوني» الآخر جمله ويطرق الأبواب مطالباً بالحمص ليلة عاشوراء، وتنشط السوق إلى حد الاختناق فليس ثمة إنسان لا يشترك في المزاد، وتصل قوافل العبيد مبدية خضوعها وتمتلىء السلال إلى حافتها، ويلوح الرجال ذوو النوايا الطيبة في عرباتهم الجديدة محاطين بالنساء والخدم، ولكن المشكلة أن حصيلة الإنسان تظل عملة باطلة.

فالعالم لا يمكن شراؤه بالحمص.. والقوانين التي تحكم هذا العالم لا تهتم بالبترول ولا قصور المرمر والعبيد وشهرزاد، ولا تهتم بالحكمة الي يعبئها الإنسان على حافتي الطريق في علب التبغ محاولاً أن يضع ذنوبه فوق رأس الشيطان، فالله لا يمكن خداعه مهما أجهد الإنسان نفسه.. وقد أثبت تاريخ العالم في كل مرة أنه فيما كان الناس يستعدون للاحتفال بانتصاراتهم كانت الحياة تنهار فوق رؤوسهم في اللحظة التالية.. وتدفعهم عراة في الأنقاض مثل قطيع من الجرذان فانهارت روما على أبناء الآلهة. وبرلين على الجنس الذي لا مثيل له، وأثينا على الفلاسفة.. ولندن على سادة البحار.. وبغداد على ظل الله الكلي القداسة.. فيما كانت سهول المغول تربي الرجال الذين سيحكمون العالم.. ومكة والمدينة تنميان أكثر الرجال عدالة.. وتقدمان للمضطهدين والجياع فرصة الخلاص الحقيقي.

فالعالم تحكمه التضحية وحدها، والشعوب التي يسمح لها بالقيادة هي الشعوب القادرة على التضحية.. لا الكذب وجمع الحمص في كرنفال الشركات.. فالقانون لا يمكن تبديله، وقد

قامت الحياة نفسها على فكرة التضحية في كل شيء من حادثة الولادة إلى حادثة الموت. ولا يمكن أن يلعب الإنسان الصغير بالقوانين الآن..

المرء، يحتاج إلى رغيف الخبز، وقليل من الزيت والملح، وثوبين من الكتان.. ولكنه لا يحتاج إلى شيء آخر، وليس من حقه أن ينال شيئاً آخر، إلاّ إذا كان سيخدم به هدفاً حقيقياً. فينال بيتاً ومزيداً من الخبز لكي يتزوج ويجعل الحياة تواصل بقاءها.. أو ينال قصراً وقنطاراً من الذهب لكي يفعل بذلك شيئاً في خدمة الآخرين، أما أن ينطلق لكي يكدس خزائنه مثل حوانيت العطارين، مقترفاً أي شيء في سبيل حماقاته فإن ذلك عمل خالٍ من الحكمة خلواً تاماً تحت أحسن الفروض. وهو عمل لن تقبله الحياة.. وسوف تحمل صاحبه وتضعه فوق الرف كما توضع الطيور المحنطة لكي يفسح مكانه في الأرض لرجل من نوع آخر..

رجل يكتفي بألف.. ويترك الألف الأخرى لبناء الآخرين. رجل يدرك أن البناء هو هدف الحياة الحقيقي وليس رأس مال الشركة أو رحلتين إلى أثينا في عربة يقودها سائق خاص.. رجل لا يمتلىء رأسه بالقش، ولا يعتبر بلاده مسرحاً للصراع مع الآخرين، ومعركة دائمة المحصول على أكبر قدر من العطاءات، بل يعتبرها بلاده.. أمه الحقيقية التي تمده بالغذاء.. ويرفض أن ينهش لحمها مثل جرو مسعور.

إن التضحية ـ وليست الفلسفة المضحكة ـ هي رأس مال هذا العالم، وليس من المحتمل أن يتخلى العالم عن مبادئه لكي يتيح لأحد اللصوص الصغار الأميين فرصة السعادة بمحصول الليلة السابقة، أو يعطيه حق بناء حجر واحد في جدار الإنسان.. إنه

سيتركه يعيش على حافته بضع سنين محزنة، ويتركه يملأ بطنه ويشتري لنفسه عاهرة من أحد النوادي الليلية وبدلتين من الصوف، ثم يحمله المد إلى حفرة مليئة بالأبراص.. هناك وصل الآخرون كلهم.

ولم يكن ثمة واحد منهم يحمل شيئاً في يديه النهمتين.. فالمرء يطبق يديه على لا شيء في النهاية مهما أفرغ جهده.. والعالم يحمله رجال من نوع آخر..

لا يمكن وضعهم فوق الرف مثل الطيور المحنطة.. ولا يمكن إغراؤهم بنسيان واجبهم في التضحية.. إنهم لا يعرفون شيئاً أكثر أهمية من هذا الواجب، وليس ثمة من يستطيع إقناعهم بغير ذلك، ورغم مواهبهم. رغم قدراتهم الهائلة على تحقيق أي شيء، فإن أحداً منهم لا يتجه في غير طريق هذا الواجب.. ولا يدخل حلبات الصراع المبتذلة لكي يمشي فوق جثث الآخرين.. إنهم يبدون منطوين متوارين في الظلال كأنهم لا شأن لهم.. ولكنهم في الواقع أصحاب التماثيل.. ورأس مال هذا العالم الضخم.. ومن أجلهم ينزل المطر، ويجعل الله الأرض تدور، هذا كان شعراً أيها السادة.. شعراً محفوظاً في الملح حملته الأفيال من سمرقند.. فمتى يفتح السوق عندكم؟

1966

ألف ليلة وليلتان

قال لي بائع الصحف: بلغني أنه كان في بغداد زمن الوزير جعفر البرمكي عجوز شحاذة. وبلغني أن تلك السيدة كانت تحترف الدعارة على الرصيف المواجه لجسر الفرات، وتبيع الحشيش والجوارب القديمة، وتدمن التدخين، وقد ساء حظها في النهاية، وفقدت ذراعها في حادث سرقة، وأصبحت مجرد شحاذة.

ثم قال بائع الصحف:

وفي ذات يوم أذيع في الأنباء أن ابن الوزير جعفر البرمكي أصابه مرض غريب، وكفّ عن الطعام والشراب، واعتراه الهزال حتى برزت ضلوعه من وراء الجبة، وأن والده قد أعلن في طول البلاد وعرضها أنه سيعطي نصف ممتلكاته لمن يشفي ولده من ذلك المرض.

وتجمع النطاسيون في صحن الدار. ودهنوا المريض بزيت الكافور، وحلقوا شعر رأسه وكووه عند الصدغين ثم وضعوا المغاثة في عنقه، وأغلقوا عينيه بالطين. ولكن الولد لم يبرأ وقد ازدادت حالته سوءاً بعد أن أدلاه النطاسيون في البئر ليلة الجمعة، ومزق ثيابه من الخوف ورثى والده لحاله فقطع رؤوس النطاسيين، وعلق جثثهم

على أبواب بغداد. ثم صدرت الصحف محاطة بالسواد وقرأت العجوز الشحاذة تفاصيل الخبر في الأوتوبيس وانفجرت ضاحكة حتى لفتت أنظار الركاب المكتئبين، وطلبت من أحد الشرطة أن يحملها إلى الوزير. ولكن الشرطي لاحظ ذراعها المقطوعة ونهرها مهدداً باعتقالها. وبات عليها أن تذهب إلى الوزير بنفسها.

وخلال الليل تسلقت العجوز السور، ومثلت بين يدي جعفر البرمكي معلنة أنها قد وصلت لتوّها من بلاد الهند على ظهر عفريت ولاحظ الوزير ذراعها المقطوعة بدوره ولكنه ظن أن الناس يولدون في الهند بذراع واحدة، وقد أدهشه كثيراً أن يعرف أن السيدة الحكيمة تتحدث اللهجة العامية في بغداد.

وفي اليوم التالي جاءت العجوز لرؤية المريض. واختلت به في حجرة خاصة، وقالت له فيما كانت تواصل مضغ اللبان (متى وقعت في الحب؟) ورفع المريض رأسه فابتسمت له وقالت مشجعة (متى وقعت في الحب؟ هيّا دعني أعرف من أين أبدأ. وأنا أعدك بأن أجدها من أجلك بطريقة ما). وفتح الشاب قلبه.. وحدثها بقصته من البداية إلى النهاية، ثم رمى نفسه بين يديها وسقط مغشياً عليه، فيما همست العجوز باحتقار: (بائعة الفول! ألم تجد امرأة أخرى تحبها غير بائعة الفول؟).

وقال الراوي:

كانت المشكلة أن بائعة الفول اختفت فجأة من بغداد وقد نقب عنها ابن الوزير في كل مكان.. عبثاً، وعندما سمع أن أحد التجار اشتراها بألف دينار، ذهب إليه وأعطاه ألفين، ولكن التاجر قد باعها بدوره للحلاق، وكان الحلاق قد باعها إلى زبون لا يعرفه. وحكّت العجوز جلدها كالعادة عندما تستغرق في التفكير ثم سألت المريض

عما إذا كان في وسعه أن يتعرف على حبيبته إذا رآها. وقال ابن الوزير متردداً: (لا أدري. أنا لم أرَ وجهها قط ولكني أستطيع أن أتعرف على ما تطبخه من الفول. إنها ترشه دائماً بماء الزهر). وقفزت العجوز واقفة، وانطلقت تركض إلى الوزير، ثم جرّته من معطفه إلى ركن منعزل وقالت بحدة: (اسمع أنا أريدك أن تصدر أمراً إلى كل بيت في بغداد، بأن يطبخ غداً قدراً من الفول).

وسألها الوزير: قدراً من الفول؟ هل قلت قدراً من الفول؟

أجل، هذا ما قلته، غداً.

وهتف الوزير بحيرة: (ولكن يا سيدتي إن شعبنا هنا يختلف عنكم في الهند.. أعني أنا لا أستطيع أن أصدر مثل هذا الأمر بدون مناسبة.. وغداً مجرد يوم آخر، إنه ليس مناسبة على الإطلاق).

وقالت العجوز بعناد: (افعل ما أقوله لك.. إنني لن أتحمل مسؤولية علاج ابنك إذا كنت ترفض طلبي). ولم يفهم جعفر البرمكي شيئاً.

ولكن الأمر صدر على أي حال.. وقرأه البراح في السوق، ونقلته الصحف بالخطوط الحمراء. وحاول المواطنون في بغداد أن يتعلموا الحكمة الكامنة في ذلك القرار فيما تفرغ رؤساء التحرير في صحف المساء للإشادة بفضائل الوزير وأياديه البيضاء على تجار الفول وصانعي القدور. أما العجوز فقد جمعت أطفال بغداد، ووزعت عليهم الصحون والقروش وطلبت منهم أن يذرعوا المدينة شارعاً بعد شارع ويطالبوا بنصيبهم من الفول. ثم أرسلت شرطياً مع كل فرقة ليسجل لها أرقام المنازل والصحون. وانطلق الصغار يصرخون في الأزقة المتعرّجة حاملين صحونهم وتبعتهم العجوز بعينيها راضية، ثم عادت إلى ابن الوزير وطفقت تقرعه على وقوعه

في شراك بائعة الفول. وعند منتصف الليل عادت جميع الصحون مملوءة إلى حافتها.

وجلس جعفر البرمكي وولده، وشرعا يتذوقان محصول الليلة بدقة بالغة بحثاً عن الفول الذي يحمل ماء الزهر، وقد انتفخت بطناهما وأصابهما البهاق قبل أن يصرخ الولد بنزق ملوّحاً بأحد الصحون (هذا فول حبيبتي. شموا رائحة الزهر)، وقال بائع الصحف (وبالطبع غضب الوزير جداً عندما عرف باقي القصة وعاقب ابنه على وقوعه في حب امرأة من الشعب بأن قطع رأسه وعلّقه على أبواب بغداد).

أما العجوز فقد تسلقت السور، وانطلقت هاربة في اتجاه جسر الفرات. وكادت القصة أن تنتهي لولا أن الوزير نسي أن يلغي أمره الخاص بطبخ قدور الفول، ولولا أن المواطنين الطيبين في بغداد عادوا في رأس العام فطبخوا منه كميات كبيرة وجلسوا ينتظرون الأطفال.

وتمت المعجزة عندما وصل الصغار في الميعاد، قادمين من كل الاتجاهات حاملين الصحون فوق رؤوسهم، صارخين بابتهاج (عاشوره عاشورتي). وسمعتهم العجوز فيما كانت تفترش الرصيف فوق جسر الفرات، فرفعت رأسها في ضيق وأنصتت إلى الأغنية الجديدة ثم هزّت كتفيها وعادت تحك جلدها وتلعن بائعة الفول. وعندما عبر الأطفال الجسر عند منتصف الليل كانت العجوز لا تزال تحاول بائسة أن تنام.

ثم قال بائع الصحف هذه قصة الفول، أما (الفتاشة) التي تبقر بطون الأطفال وتملؤها بالأحجار، فقد قال الذين شاهدوها، إن إحدى ذراعيها مقطوعة في حادث سرقة، وإنها تدمن التدخين.

1967

اللغة لعبة لا بد منها

اللغة، أي لغة، لعبة لا بد منها لقتل الوقت على رصيف المقهى، ونقاش مشكلة السياسة وامتداح أعين البنات. وليس ثمة إنسان في العالم يتنازل عن دوره في هذه اللعبة إلاّ إذا قطع السلطان لسانه.. أو أصيب بتسوس الأسنان.

أما الشعراء فإنهم يواصلون الكلام حتى يقطع السلطان رؤوسهم، لأنهم لا يعرفون شيئاً آخر غير لعبة الكلمات المسحورة المتوقدة في قلوبهم مثل أعين القطط. وقد كبرت اللعبة الآن وأصبحت أدباً منقطع النظير، وسلاحاً جيداً للدفاع والهجوم على السواء.

ثم حدثت المفاجأة الحاسمة عندما نزلت الكتب المقدسة بلغات الناس، وأصبح من المحتم أن يتقبلها المرء باعتبارها جزءاً من الدين. هذه المفاجأة حدثت في اللغة العبرية، ثم في اللغة اللاتينية وحدثت آخر مرة في اللغة العربية، وقد كان من المتوقع أن يؤدي ذلك إلى تطوير التفاهم وإعلائها إلى المستوى اللائق بكلمات الله. ولكن الإنسان ـ الذي أثبت دائماً أنه مخلوق لا يمكن التنبؤ بسلوكه ـ

عاد فحقق مفاجأة أخرى أكثر إثارة، وخلال القرون التالية ماتت اللغة العبرية واللغة اللاتينية أيضاً، وشبعتا موتاً في توابيت الكنائس ورؤوس القسس المتيبسين وراء الأيقونات.

أما اللغة العربية فقد واجهت أولى أزماتها خلال القرن الأول من نزول القرآن عندما اصطدمت بلغة آرية في فارس، ثم انتهى الصراع بانتصار عربي ساحق نجم عنه أن تخلى الايرانيون عن نصف المفردات في لغتهم واستبدلوها بكلمات عربية، ولكن الأزمة لم تكف عن تعميق أبعادها حتى انتهت بذلك الانفجار الهائل الذي وصل مع جيش السلطان التركي، ثم تكشف في القرن التالي عن هزيمة الثقافة العربية ولغتها بصورة نهائية في امتداد واحد لعصر المماليك المحزن.. ومنذ ذلك الوقت اتخذ تاريخ العرب السياسي مجرى شديد الانحدار في اتجاه القاع فانتهى عصر الأتراك بظاهرة الاستعمار الغربي، واقتسمت أوروبا ميراث الرجل المريض قبل أن يموت، ثم بعثت أساطيلها لإثبات شرعية التركة.. وفي قرن واحد سقطت الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان في يد فرنسا، وسقطت العراق ومصر والكويت وفلسطين في يد بريطانيا، وجاءنا موسوليني الأخرق..

أما اللغة العربية فقد وقفت تواجه أزمة حادة لم تواجهها لغة أخرى من قبل إلاّ اللغة العبرية وحدها.. وقد كان من الممكن أن يتكشف الموقف عن سحق ثقافي لا نهوض منه لولا أن الظروف السياسية في العالم عادت لتتخذ طريقاً آخر عبر الثورة البلشفية، والحرب العالمية الثانية، وانقسام الكتلتين في الأمم المتحدة، ذلك الانقسام الذي جعل أمر الاستعمار المباشر مقامرة لا ربح وراءها.. ونال العرب استقلالهم السياسي.. ولكنهم لم ينالوا استقلالاً ثقافياً

كاملاً حتى الآن، وإذا كانت ظروف الحضارة الحديثة تلعب دوراً أصيلاً في هذا النقص، فإن لغتنا العربية ما تزال أكبر مظهر مباشر لهذه الحقيقة المحزنة.

وأنا أريد أن أشير هنا إلى ما حدث في إسرائيل التي تواجه ـ مثلنا ـ نقصاً واضحاً في وسيلة التعبير، فقد قرر اليهود أن يعيدوا إحياء لغتهم العبرية للمرة الثانية بعد ثلاثين قرناً من الموت الكلي، وقد قاموا بعمل مذهل مسخرين إمكانيات علمائهم اللغويين على أوسع نطاق، وكتبوا عشرات القواميس الضخمة انتهت الآن بقاموس حديث يحوي ربع مليون كلمة تمَّ نحتها من اللغة الأم، ومع ذلك فإن هذا الرقم لا يعد شيئاً، عندما يتذكر المرء أن القاموس التكنولوجي الروسي الذي صدر في كانون الثاني/ يناير الماضي(*) كان يحوي ثمانين مليون كلمة.

فالمشكلة أن الأمم الصغيرة تقف على بعد ثقافي لا يمكن تصوره وراء الآخرين، وليس ثمة فرصة للحاق بالطليعة إلاّ عن طريق اتقان لغاتها، وهو عمل يشبه التخلي عن اللغة الأم، فالباحث الروسي لا يحتاج إلى أن يتعلم اللغة الإنكليزية ما دام يحسن لغته الخاصة، أما الباحث العربي فهو مضطر إلى أن يتعلم أكثر من لغة، ولكنه ليس مضطراً إلى اتقان لغته الأم لأنها لن تكون ذات أهمية بالنسبة إليه إلاّ باعتبار أخلاقي.

أما الذين يعتقدون أن الترجمة تستطيع أن تؤدي إلى إثراء اللغة العربية أو تطويرها، فهم مطالبون بأن يلاحظوا نوع الكتب المختارة للترجمة، فهي في معظمها كتب أدبية ذات طابع خاص يسهل نقلها إلى أي لغة مهما كانت بدائية، ثم إن المترجم ـ في الغالب ـ

(*) من سنة 1967

يفتقر إلى القدرة على إيجاد الكلمة المرادفة للكلمة الأجنبية ويضطر إلى إعادة (رسمها) بحروف عربية كما حدث حتى الآن، أو يضطر إلى تبني مصطلحات الفقهاء السيئة التركيب.

وأنا أريد أن أجد مثالاً لهذه الحقيقة عبر اصطلاح لغوي قديم لا يمت بصلة إلى التكنولوجيا الحديثة، ولست محتاجاً إلى البحث عن أي مثال بعيد.. فنحن نستطيع الآن أن نتأمل ما الذي فعله اللغويون العرب لإيجاد المرادفات المطلوبة لكلمة (عربة) في اللغة الإنجليزية على النحو التالي:

كارت: عربة نقل البضائع الصغيرة!

واجون: عربة نقل البضائع الكبيرة!

امبولانس: عربة الإسعاف.

هيرس: عربة نقل الموتى.

برام: عربة الأطفال.

فيكتوريا: عربة لراكبين وسائق.

سليبر: عربة النوم في القطار.

جالاكاوتش: العربة التي تنقل العروس.

والمرء يستطيع أن يواصل هذه اللعبة إلى النهاية دون أن يحس بأي نقص في الأمثلة فكل شيء يبدأ بكلمة ـ عربة ـ ويتبعه مضاف إليه أو خبر، كأن المرء يعيش في متحف للعربات، اللعبة الثانية أن ينحت اللغويون كلمة مرادفة، أو يعملوا على إحياء لفظ ميت، والنتيجة دائماً أن أحداً لا يهتم بهم.. فالمترجمون يفضلون طريقاً آخر لنقل مادتهم بوضوح، واقرأوا المثال التالي:

«ترتواز» كلمة إنجليزية معناها (لجأة) ـ ترتل ـ معناها (رق) ـ

ايل ـ معناها ـ (جريث) ـ سيل ـ معناها (فقمة)، فهل فهم أحدكم شيئاً؟ أم أن المرء مضطر إلى أن يترجم الكلمات السابقة هكذا «سلحفاة البر. سلحفاة البحر. ثعبان البحر. عجل البحر» ويوالي المهزلة إلى نهايتها فتصير الترجمة على هذا النحو.

ترتل ـ سلحفاة البحر ـ ايل ـ ثعبان البحر، سيل ـ عجل البحر، ميرميد ـ عروس البحر. ـ أورلوس ـ فيل البحر، شرمب ـ برغوث البحر! ثم يفتح المرء فمه حتى يحرق الماء المالح لسانه ورئتيه.

المشكلة معقدة كما ترون، وقديمة ومملة، ومع ذلك فهي مشكلة أصيلة لا بد من حلها قبل أن يتمكن العرب من المضي خطوة واحدة لاستعادة سيطرتهم الثقافية. وليست المصطلحات وحدها هي نقطة الضعف. وليست المفردات التكنولوجية أيضاً، إن لغتنا بصورة عامة وكلية وحاسمة تقع على بعد مائة ميل من أي لغة عالمية حديثة، وإذا كان صغار الثرثارين على أرصفة المقاهي لا يحسون بهذا النقص فإن الناس الذين يتعاملون مع وسائل التعبير العربية يواجهون لحظات مريعة من اليأس، ولعل هذه الحقيقة تبدو أكثر وضوحاً عندما يشير المرء إلى أن اللغة الإنجليزية تصدر أربع قواميس كل عام، وأن الألمان يصدرون سبعة عشر قاموساً منها ثلاثة قواميس مصورة وثلاثة أخرى للمصطلحات، وقاموس خاص لتحديد استعمال الكلمات.. أما العرب فما زالوا يعيدون طباعة تاج العروس وحده، كأن ـ الزبيدي ـ رحمه الله ـ مطالب بأن يحل مشاكلنا حياً وميتاً.

إن لغتنا تحتاج إلى عمل كبير.. وتحتاج إلى عملية إنقاذ جادة على نطاق الوطن العربي، وليس ثمة شك أن مئات الرجال المخلصين يبذلون جهدهم في كل مكان لتحقيق هذا العمل، ومن

غير اللائق أن يتجاهل المرء جهودهم الفردية، ولكن الأمر يبدو دائماً أكثر ضخامة من أن يعهد به إلى المؤسسات الخاصة وحدها أو الأفراد المثقلين بالمسؤوليات. إننا نحتاج إلى حقل أكثر اتساعاً يليق بأهمية المشكلة وأهمية حلولها. ولعل الجامعة العربية هي الجهة الوحيدة التي تستطيع أن تتقدم لإنجاز هذه المهمة عندما تنتهي من قتل إسرائيل..

فدعونا نرجو من الجامعة العربية أن تحضر لنا قواميس اليهود قبل أن تدمر تل أبيب لكي نترجمها ونحل مشكلتنا.

1967

من وراء المحاريث

إحدى سمات هذا العصر البارزة، أنه فترة تغيير جوهري في موقف الفرد من المجموعة.. فترة صراع مدهش لإقرار المكان النهائي الذي سيقف فيه إنسان العصر القادم تجاه أفكار العالم الصلد، فقد انتهت لعبة الفلسفة القديمة وتعلم الإنسان كل الحيل المطلوبة لكي يصير حاوياً في السيرك وينال أجره مقابل أن يبتلع أمواس الحلاقة ويخرج الأرنب من قبعته، ومنذ بضع قرون كان الملك «خوفو» يجر مزارعي القطن من أنوفهم لكي يبنوا له هرمه، والآن يبني المزارعون سدهم العالي، ولو جاء «خوفو» مرة أخرى لصادروا ممتلكاته بدون ضمان وجعلوه يبيع الفول للسواح، فالمعركة كسبها الإنسان وحده، وبضاعة الفلاسفة التي عرضوها دائماً لخدمة «الفرد» تعفنت في السوق وأكلها الصدأ والنمل عبر أربعين قرناً محزناً تمتد بلا انقطاع من أزقة ممفيس إلى قصر السلطان في إسطنبول، ذلك الخاقان المدهش الذي ذبحه جندي برتبة كوبرال وعلق جثته «المقدسة» في الشمس. والعالم لم يعد ملكاً خاصاً لأحد الأفراد أو الشعوب. ولم يعد عقاراً تصدر رخصته من

البلدية الموقرة ولكنه ـ من ناحية أخرى ـ لم يكتشف طريقه بعد، ولم يصبح «عالماً فاضلاً» من أي نوع.. إنه ما يزال حقل اختبار للتجربة الحاسمة التي نعيشها الآن.

المعسكر الرأسمالي يقصر تجربته على الديمقراطية ويحاول جاهداً أن يحقق لحظة التناسق بين أهداف الأفراد لبناء «المجموعة» المثالية، ولعل الولايات المتحدة هي أكبر حقل في تاريخ العالم لتجربة الحكم الديمقراطي بمعناه الحديث، وقد تحققت في الكونغرس وفي شوارع شيكاغو ولاس فيغاس كل أحلام الإنسان المتوهجة عن «الحرية الفردية». وزاول الأميركان حياة مدهشة من جميع الوجوه صاعدين فجأة من نكسة الحرب الأهلية والمجاعة إلى قمة العالم مباشرة عبر مسيرة حافلة بالانتصارات، وقد نال الفرد في أميركا كل حاجته من الحرية والخبز، ونال فرصته كاملة لكي يصعد من أي مهنة شريفة إلى مقعد الرئاسة في البيت الأبيض دون أن يعترض أحد طريقه بوسيلة غير ديمقراطية.. ومع ذلك فإن أميركا تواجه الآن أزمة مريعة لإنقاذ هذا النظام من الموت.. الشركات تأكل الشركات.. والمنظمات القائمة على الأفراد تتحول إلى كتلة صلدة ذات نوايا دكتاتورية حادة، والفرد نفسه يتحول إلى مسمار صغير في آلة عملاقة لا أهداف لها سوى سحق أكبر عدد ممكن من الخصوم للحصول على مزيد من السلطة، وهذا النظام المحزن ينشب مخالبه في جسد الأمة بأسرها محدثاً دماراً فظيعاً لكل الخلايا المهمة والأصلية على السواء مثل أي سرطان حقيقي.

الحرب في كوريا، وفي فيتنام وكوبا والهند الصينية، ومئات المؤامرات المخجلة ودسائس السياسة والجواسيس والقنابل الذرية، كل ذلك مجرد دلائل متفاوتة الحدة للإشارة إلى فساد النظام

الأميركي وعجزه عن الخروج من منطقة الخطر القديم، تماماً كما عجز نظام خوفو عن الاستمرار في البقاء وأكله الصدأ والنمل منذ بضعة قرون.

والفرد في أميركا ـ رغم حقوقه المدنية وغناه الفاحش ـ ما يزال يعيش حالة «رق» واضحة في قبضة الشركات ومصانع الأسلحة وتجار الانتخابات الأقوياء الذين لا يمكن تحديهم إلاّ بنظام مغاير أو بثورة مسلحة تهدف في الدرجة الأولى إلى إلغاء الحياة الديمقراطية.

فالدائرة مقفلة تماماً. والرأسماليون الذين بنوا آمالهم على «موهبة الأفراد» تحولوا الآن إلى كتلة لا أجزاء لها، كتلة صلدة من الشحم والدولارات والأسلحة تهدف إلى إدماج أكبر عدد من الأفراد الموهوبين في جسدها القاتل لتحقيق مزيد من الحجم دون اعتبار لقيمة الفرد ذاته، ولعل هذه الحقيقة تتضح أكثر عندما يشير المرء إلى ما فعلته مصانع أدوات التجميل بالأنثى الأميركية بوجه خاص، فقد حولتها خلال نصف قرن من الدعاية المركزة إلى دمية ملونة عارية خضراء الشعر، لا هم لها سوى تقليد نجوم هوليود المتفسخين وإغراق جسدها بالألوان الفاتحة في بحث مرهق عن كلمة إعجاب من رجل ما، وليس ثمة من حقق ربحاً من وراء هذه اللعبة السيئة سوى مصانع أدوات التجميل.

أما الفرد فقد أصبح يواجه أزمة أخلاق مذهلة الأبعاد، وفقد الطفل الأميركي أمه بصورة نهائية ليقضي طفولته في إحدى دور الحضانة، فيما ذهبت تذرع الأرصفة بحثاً عن دكان الحلاق وبائع العطور وحمالات الصدر وصباغة الشعر والأظافر. وهذا ليس كل شيء عن أميركا، ولكنني مضطر إلى أن اختصر هذا الحديث لكي أشير إلى ما حققه الشيوعيون في الطرف الآخر، فقد حاولوا

بدورهم أن يحلوا المشكلة بطريقة مغايرة تماماً، وانطلقوا يبنون نظاماً معقداً لإدماج الفرد إدماجاً نهائياً في جسم المجموعة، وأفرغ لينين جهداً خارقاً لكي يخلق نظاماً متناسقاً من متناقضات العالم معلناً لمواطنيه أن روسيا لن تنهض من واقعها المؤلم إلاّ إذا حملتها «المجموعة» بذراع واحدة في دفعة واحدة خالية من التردد، ثم جاء «ستالين»، وأقام نظاماً بوليسياً رهيباً لخنق كل الاعتراضات الممكنة، و«عصر» ملايين الفلاحين في مزارعه التعاونية وفي مصانع الأسلحة العملاقة مشيداً أكبر آلة بشرية في تاريخ العالم تعمل باتساق يفوق خلايا النمل عبر تكامله وارتباطه وراء كل التفاصيل، ومع ذلك فقد تورطت روسيا في مئات الأزمات الطاحنة، وحاربت في جميع الجهات، وقتلت من الناس أكثر مما قتل وباء الطاعون مئات المرات، زاحفة وراء درعها الحديدي من «شمال كوريا» إلى «بودابست» عبر معركة واحدة بالدبابات والجواسيس، ومازالت تقاتل بكل الوسائل لإقرار نظام بوليسي على أنقاض برلمانات الدول الصغيرة، فالمشكلة ـ كما تراها روسيا ـ لا يمكن حلها إلاّ بالقوة وحدها.. وعلى طول العالم ترتفع الصواريخ، وتتفجر القنابل الذرية مثل ألعاب عيد الميلاد، ويقبض الرؤوساء رواتبهم الخيالية لابتكار مزيد من المؤامرات ـ ويتصارع المعسكران مثل ديكين مجنونين لفرض أحد هذين النظامين على الآخر، ويظل العالم الآخر يبحث عن طريقه:

هل تنتصر الشركات؟ هل ينتصر الشرطة أم الشيوعيون.. وهل ثمة طريق آخر لإقرار مكان ملائم للإنسان؟ هل تستطيع الفلسفة أن تحل مشكلة الصراع بين الفرد وبين المجموعة من جهة، وبين المجموعات العامة من جهة أخرى؟ هل يتحدد موقف الإنسان تجاه مشاكل المادة كما تحدد موقفه تجاه الله في كتب الديانات؟ وهل

ينتصر الفرد أم المجموعة إذا بدأ الصراع الذري المرتقب؟

عصرنا الحالي مهمته أن يقرر إجابة هذه الأسئلة. وعصرنا الحالي فترة مدهشة مليئة بالأفكار لم يعشها إنسان من قبل، وإذا كان ثمة أمل واحد ـ لمواصلة الحياة في طريقها الطبيعي فهو أن يتقدم هذا العصر بإجابة صحيحة قبل أن يبدأ الديكان المحزنان في الشجار المسلح. أما المعادلة المطلوبة فهي غاية في اليسر: «كيف نستطيع أن نسخر الفرد لخدمة المجموعة لكي نسخر المجموعة لخدمة الفرد». وبكلمة أخرى: أين مكان الإنسان في الكتلة الصلدة المطلوبة لمواجهة التطور المادي والروحي على السواء. إن الإجابة ليست صعبة فقط ولكنها غير متوفرة أيضاً.. فالعالم مايزال في حاجة إلى كثير من التجارب الحقيقية لكي يعرف على وجه الضبط ماذا تعني كلمة «إنسان». ولكن إذا أتيحت له فرصة ليعرف ذلك، ذات يوم، فسوف يضع يده على سلاح لا يمكن قهره لإيقاف كل المؤامرات والقتلة والسلاطين وبناة الأهرام والمخبرين التعساء ويعيدهم للعمل وراء المحاريث. وفي ذلك اليوم سيجد العالم طريقه، ويكف الفلاسفة عن حرق صدورهم بالتبغ.. وينهض «خوفو» لكي يبيع الفول للسواح.

1967

الدهليز

«إلى العجوز عثمان..

الذي لم يحتفل بعيد ميلاده الخامس والتسعين».

في المدن النائية والزحام والثلج يمتلىء قلبك شعراً.. يقفز مثل طائر نزق ويمتلىء شعراً نزقاً ويظل يؤلمك طوال الليل حتى تتمنى لو كان بوسعك أن تجعله يكف عن الخفقان. ثم تعصره بيدك، وتطعمه تبغاً نتناً.. وتترك ذكرياتك تسلط فيه أسنانها مثل كيس من القراد. وفيما يرفع الموتى رؤوسهم عبر تجاعيد صدرك، وتشم إلى رائحة الأصدقاء والأزقة القديمة والخبز المحترق في الأفران وجرادل القمامة، وترى ماضيك يمشي حافياً على الثلج، تدرك على الفور أنك بدأت تحلم، وأنك تموت حاملاً فوق ظهرك كيساً من القراد تدعوه ذكرياتك.

وتحرق مزيداً من التبغ وتبصق فوق الأرض، وتغالط صاحب الحانة في الحساب لكي تفوز بكأس إضافية، وتقرص جارتك في الأتوبيس، وتشتم الحرب والبطالة وتتحدى أحد المارة لكي يتشاجر معك. ولكن ذلك لا ينقذك من قلبك.. أعني من كيس القراد الذي تدعوه قلبك، فأنت لا تملك فرصة للهرب في أي اتجاه. أنت ـ رغم كل النوايا الحسنة ـ مجرد حمال للقراد. وتتعلم البكاء

وتتعلم الجلوس وحدك وتبادل الأنخاب مع ظلك المضحك. وتفرط في السكر حتى يسقط ظلك مغشياً عليه، ولكن ذلك أيضاً لا ينقذك من قلبك.

وفي أحد الأيام الميتة، يلقيك الملل من النافذة وتتدحرج عبر الشوارع وعربات الترام والمقاهي ذات الواجهات الملونة، وتزور متحف المدينة على عادة السواح، وتخالف إشارات المرور، وتلتقط صوراً تذكارية لأعمدة النور المضحكة، ثم تجرك قدماك إلى الحديقة العامة ويسترعي انتباهك عجوز وحيد يقتعد أحد المقاعد المرمرية، ويهز رأسه برتابة، ذلك العجوز يستطيع أن ينقذك. إنه يملك تحت جلده المجعد حلاً حقيقياً لكل مشكلة في العالم بما في ذلك مشكلتك. ويستطيع أن يشير لك بإصبعه، ويدلك على طريقك دون فرصة واحدة للخطأ.. ولكنك ملزم بأن تعرف لغته، فالعجائز الذين يهزون رؤوسهم برتابة يتحدثون لغة خاصة على الدوام.

وتقول له:

«أنا مريض بوباء الملل.. مريض بالفقر والأنفلونزا والمشي بلا هدف خلال النوم».

ثم تكتشف أن ذلك ليس مثيراً بالنسبة له، فالمرء لا يصير عجوزاً إلاّ من الملل والفقر والأنفلونزا. وتنظر في عينيه العميقتين، وتحس بالضآلة والعقم، ولكنك تحاول مرة أخرى. وتقول له:

«أنا مريض بالغربة.. أعني بالغربة والشعر والكلمات التي تظل تقضم قلبي طوال الليل. أنا ميت أكثر منك».

وتعود تنظر في عينيه. وتكتشف أن العجائز أكثر غربة من سواهم، وأنهم سكان عالم آخر مليء بالشعر إلى حافته.. الشعر الحقيقي المترامي الأبعاد الذي يدعوه البقالون اليأس.. وتتقلص أصابعك، وتتمنى لو كان بوسعك أن تجد كلمة أخرى أقل إيذاء لمشاعره، ثم

تغمض عينيك، وتقولها له منتظراً أن يسقط عند قدميك ويشرع في الشكوى. ولكن العجائز الذي يهزون رؤوسهم برتابة يتصرفون دائماً بطريقة مخالفة.. إنهم لا يسقطون عند قدمي أحد، ولا يشكون لأحد.. العجائز ينظرون في عينيك ويجعلونك تشعر بالضآلة والعقم. وتتقلص أصابعك، حتى تصير مثل مخلب قرد، وتضطر إلى أن تعترف لنفسك بأنك لم تجد الجرأة في يوم من الأيام لكي تتوقف عن الجري هرباً من اليأس.. لم يخطر ببالك قط أن تتعرف على ذلك الشيء.. لم تره، لم تعشه، لم تواجهه لحظة واحدة، ولكنك أوغلت في الهرب منذ البداية اعتماداً على معلوماتك الخاطئة التي جمعتها عن طريق أذنيك.. وأوغلت في الهرب.. وأوغلت في الهرب حتى أصبح الجري وحده أهم أهداف رحلتك. ويضحك العجوز بجانبك ويقول مشيراً إلى قدميك المرتجفتين، إن المرء يعجز عن الجري ذات يوم، ويستبدل حذاءه الثقيل بمست جلدي بالغ النعومة، ويقتعد الكرسي المرمري في الحديقة العامة ويهز رأسه برتابة. المرء لا يواصل الجري إلى الأبد، يقول لك العجوز.

فإذا لم يدهسه القطار، ولم يطعنه أحد السكارى بمطواة خلال هروبه المسعور، يعود في نهاية المطاف لكي يبحث عن مكان خال في الحديقة العامة ويواجه سيده اليأس لأول مرة منذ أن سقط فوق أرض هذا العالم المغلق. ثم يشرع في هزِّ رأسه متابعاً سنوات الجري. سنوات الهرب من زحام المدن وعيون النساء والحانات والشجار والصراخ بملء صدره وصياغة الأشعار المضحكة والتقاط الصور التذكارية ومطاردة السائحات وعاملات التليفون. ويوالي هزَّ رأسه برتابة، ويرى ذلك العبث كله يتكوم بجانبه خالياً من الإثارة، ويرثي له من مقعده المريح في الحديقة العامة ويتركه هناك عندما يعود متباطئاً لأداء صلاة المغرب.

«يتركه وحده». يقول لك العجوز:

ويعود يجر قدميه المرتجفتين لكي يقف أمام الله، ويعتذر عن ذلك العبث المحزن، وفيما يدس وجهه في تراب المسجد ويركع على ركبتيه مختتماً رحلة الجري، يحس بأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله.. شيئاً ظل يحمله طوال حياته ويرزح تحته مثل بغل أخرق ثم وضعه الآن على التراب.. وعندما يرفع رأسه يعرف أنه لم يعد حمالاً.. ولم تعد ذكرياته مجرد كيس من حشرات القراد.

«المرء لا يواصل الجري إلى الأبد». يقول لك العجوز:

حتى إذا دهسه القطار، حتى إذا طعنه أحد السكارى بمطواة، لا بد أن يدرك في اللحظة الخاطفة التي تسبق الموت أنه كان في الاتجاه الخاطىء ويجري هرباً من وهم خاطىء، وأنه يريد أن يتوقف.

كل ما في الأمر أن بعض العدائين لا تتاح لهم الفرصة لكي يجدوا طريقهم إلى الله إلاّ عبر عجلات القطار، يقول لك العجوز.

وتنظر في عينيه العميقتين. وتتقلص أصابعك حتى تصير مثل مخلب قرد، وتتمنى لو كان بوسعك أن تقول له إنك مريض بوباء الملل أو الفقر أو المشي بلا هدف خلال النوم، وتتمنى لو كان بوسعك أن تجعله يرى قلبك من الداخل. ثم تكتشف أنه يراه وأنه كان يملك واحداً مثله تركه بلا مبالاة على المقعد المرمري في الحديقة العامة.

وتنحبس كلماتك في حلقك مثل حسك الشعير، وتعتريك الحيرة فلا تجد شيئاً تفعله أو تقوله لذلك العجوز سوى أن تهرب منه، لأنك ما زلت قادراً على الجري، وفيما تعبر مفترق الطرق حاملاً كيس القراد، وفيما تزداد سرعتك وآلامك سيوقفك شرطي المرور ويحرر لك مخالفة. فلا تتجاوز السرعة المحدودة يا أيها العداء، لا تعرض حياة باقي العدائين للخطر.

1967

الذي كان يحرث القمر

في مدن الشرق الوقورة.. في بنغازي ودمشق «حين يبلغ البدر تمامه» ويقبض كل امرىء راتبه، تضاء المقاهي وبيوت الدعارة، وتتصاعد خرافات الحب الشيّقة عبر سحابات التبغ والحشيش، ويحتسي الرجال حاجتهم من النبيذ، ويتحدثون عن النساء والغلمان ولحظات الشبق العميقة المبلولة بالعرق.

فإذا طلعت الشمس.. طار الغراب، واستعاد الرجال وقارهم محاولين أن يتفادوا ذكر الليلة الماضية، وعرضت علب الفضيلة بكل الأثمان، وكتبت المقالات الجيدة الصياغة لحماية الأخلاق ريثما تغيب الشمس وتتعذر الرؤية في الظلام.

الحب في الشرق لعبة ليلية، ونزار قباني الذي اختار أن يلعب في وضح النهار، مزق الرجال سمعته ودعوه «زانياً مخنثاً سيىء التربية»، وجلسوا يأكلون جثته في سوق الحميدية ويلقون عظامه للسنانير. فلو كان نزار بائع عرقسوس، لو كان يحسن الكذب وخداع البصر، ويخرج الأرانب من قبعته ويبيع العرقسوس لدعاه الشرقيون بأسماء أخرى أكثر أدباً، أما أن يتحدث نزار قباني عن

المرأة قبل أن يعم الظلام، ويتحدث عن الحب والجنس وبقية الفضائح، فإن ذلك أكثر مما تطيق شرطة الآداب.

الشرق كله شرطي آداب، الشرق شرطي آداب جاهل يدمن الحشيش والعادة السرية، ويكره النساء في النهار، ويحترق بالشبق في الليل، مثل خنزيرة مسيسيلية في شهر مايو، فإذا رأى قصيدة من الشعر تتحدث عن امرأة، رفع بندقيته وأطلق النار في الحال. فأين يذهب نزار؟

لصغار الأخلاقيين الذين لا يكفون عن إساءة الظن بالنساء، لتجار الغلمان وكتّاب الأحجبة ووصفات القبول؟ للشرق الذي ما يزال يصرخ كل يوم مطالباً بإعادة المرأة إلى زير القديد وتغطية وجهها المشين وإحكام الرقابة على فترتها الشهرية مثل عنزة بياع اللبن؟ للمحاربين الذين لا يريدون أن يسمعوا شيئاً سوى صيحات الثورة واستعادة فلسطين وقتل كل ما يمكن قتله في الطريق؟ لمذيعي أخبار السلام والخبز والمؤتمرات.. لمن؟ وماذا يكتب نزار؟

إنه يصرخ الآن:

«يا ليت باستطاعتي
أن لا أكون شاعراً ..

يا ليتني
أقدر أن أكون شيئاً آخر
مرابياً، أو سارقاً
أو قاتلاً
أو تاجراً

يا ليتني أكون يا صديقتي الحزينة

لصاً على سفينة

فربما تقبلني المدينة

مدينة القصدير والصفيح والحجر

تلك التي سماؤها لا تعرف المطر

وخبزها اليومي

حقد وضجر

يا ليت باستطاعتي

أن لا أكون شاعراً

لكنما الشعر قدر»

فلو كان نزار بائع عرقسوس، لو كان حاكم دمشق، لما سمع أحد عن دمشق، ولما تردد اسم تلك المدينة الصغيرة في جامعات العالم ومطابعه، وانحنى مئات المستشرقين يدرسون وجهها باعتبارها وطن أحد شعراء العصر الكبار. في أوروبا، وفي أمريكا أيضاً، يقولون عن نزار قباني إنه شاعر من مستوى منقطع النظير ويترجمون أعماله عاماً بعد عام ويكتبون في مقدماتهم «إن المرأة في شعر نزار مخلوق أكثر اكتمالاً من المرأة في الشعر الأوروبي»، وفي الشرق تعامل المرأة مثل عنزة بياع اللبن، ويرفع الرجال حواجبهم عندما يسمعون اسم نزار قباني ويشيرون إليه في لحظات هدوئهم باعتباره «طليعة جيل فاسد».

نزار عمره نصف قرن، ويكتب شعراً تقليدياً موزوناً ومقفى، ولكن الشرقيين مازالوا يدعونه «طليعة جيل فاسد» باعتبار أن الشعر الحر عملية زنا، وباعتبار أن نزار قباني يكتب شعراً حراً زانياً.

وقد نشر أول قصائده منذ عشرين عاماً، واستقبلته الملائكة بالصفير، ثم اجتمع البرلمان السوري ليحكم عليه بالإعدام لأنه قال إن الرجل الشرقي يعامل امرأته مثل وعاء للصديد، وأكلت الصحف جثته ثلاث سنين بلا انقطاع لكي ينسى الرجل الشرقي أمر الرضاء الجنسي في فراش زوجته:

«لا. لا أريد!

ودفنت رأسك في المخدة يا بليد

يا جداراً من جليد

وقبيل ثانيتين:

كنت تجول كالثور الطريد

والآن أنت بجانبي

قفص من اللحم القديد»!

وهذه الصورة الموحشة مجرد أكذوبة في خيال نزار بالطبع! لأن الرجل الشرقي لا يستثير زوجته جنسياً ويتركها معلقة مثل وعاء للصديد.. أليس كذلك؟ مرة أخرى، كتب نزار قصيدة إلى جميلة بوحيرد، وعادت الصحف تأكل ما بقي من جثته، وهجاه عبد الوهاب البياتي مشمراً عن ساعديه لحماية بطلة الثورة، لأن نزار قال إنها امرأة وإن عينيها مثل قنديلين موقدين في معبد.

كان البياتي لا يريد أن يصدق أن جميلة بوحيرد ليست غولة رهيبة تركب مكنسة وتقاتل ـ مثل هرقل ـ بأظافرها. أما المستشرق «ديمون» فقد ترجم قصيدة نزار وقال عنها إنها عمل فني لا مثيل له في تحديد درجات الضوء داخل «الصورة الشعرية المرتبة»:

«إبريق للماء

وسجان

ويد .. تنضم على القرآن

وامرأة

في ضوء الصبح

تسترجع في مثل البوح

آيات

محزنة الأرنان

من سورة «مريم»

و«الفتح»

وفي سوق الحميدية وفي بنغازي، ظل نزار قباني «شاعراً داعراً»، ورفع الرجال حواجبهم، ودعوه «طليعة جيل فاسد». وأعطوه الشهرة التي قتلته في نهاية المطاف، فقد ربطوا اسمه بالموضوع الكريه القادر على استثارة ازدراء كل الشرقيين، وأشهروه باعتباره «شاعر المرأة والجنس..» وذلك يعني - في الشرق - «شاعر المواد الممنوعة». وتمزق نزار، وأصدر ديوانه الأخير(*) المليء بالأخطاء والخيبة، وفي هذا الديوان ثمة قصيدة مهداة إلى شرقنا المصنوع من الصفيح:

«أشعاري الأولى، أنا أحرقتها

ورميت كل مزاهري وموائدي

أشعلت في حطب النجوم حرائقاً

وأنا أمامك كالجدار البارد

(*) يقصد ديوان «الرسم بالكلمات».

شيّدت للحب الأنيق معابداً

وسقطت مقتولاً .. أمام معابدي..».

فهنيئاً للسنانير بالجثة، ورحم الله الذي كان يحرث القمر.

1967

غربة

الليلة .. في قطرة مطر وصلت رائحة السموات.. وانطفأ قنديل القمر، وطفق الموت يطاردني على نتيجة الحائط، الليلة.. قال الموت لي: سنذرع السماء في قطرة مطر، ونحلب النجوم من قرونها، ونزرع الزجاج بلا محراث في حقول الظلمة ونتركه لينضج في سبتمبر. والموت طفل عيناه نجمتان، يبيع السجق على رصيف القطار الذاهب إلى بكين ويقرص السائحات تحت الإبط بحذر متناهٍ، وامرأة عرجاء تتربص به وراء إحدى العربات حاملة مطواة، هل أتركها تقتله؟ وتقول جارتي مغمضة العينين: هذا ليس من شأننا دعنا نغلق النافذة، أعني اتركها تقتله، أليس ذلك بائع السجق؟

ويتحرك القطار ويرتفع صوت السائق يحدو العربات.. (لو كان الفقر رجلاً لقتلته) وأهمس في أذن جارتي: هذا سر أبوح به عن تجربة، لو كان الفقر رجلاً لمات من الجوع. ثم يسقط شعاع القمر عبر نافذتنا وتومض زجاجة النبيذ في حقيبتي مثل موقد البلور، وتقول المرأة بجانبي: دعنا نسكر حتى الموت.. تعنين حتى بائع

السجق. أعني الموت. ابن العاهرة الموت. ألا تقولون ذلك في بلادكم؟ وأضع الزجاجة في يدها، وتتعلق عيناها بي مثل فراشتين عاقلتين، ويطرق سمعي صوت طفل يصرخ على صدر القمر.

هذا طفل ليبي، هذا طفل زنجي من ليبيا علق أجدادي أمه من ثدييها على سطح القمر. هذا عبد من حوش الباشا.

وتقول جارتي باسترخاء: عبد الباشا على سطح القمر، لماذا صعد إلى هناك؟

لا أدري..

ماذا تعني؟

أعني لا أدري، إنها قصة طويلة على أية حال وقد علق أجدادي تلك المرأة من ثدييها على سطح القمر. وتتعلق عيناها بي مثل فراشتين عاقلتين، وأقول لها رغم أنفي: حسناً سأعترف لك، إن تلك الزنجية الخرقاء قد ألقت كسرة خبز في المرحاض، مرحاض الباشا؟

أجل، أعني مسحت طفلها بكسرة خبز، وألقتها هناك هل تصدقيني؟

فأومأت برأسها، وقالت بعد ذلك: أجل أنا أصدقك. إن الفقراء يرتكبون دائماً أسوأ الجرائم.. وأشهرها. ثم هتفت بضيق: والأميركان سيواجهون مشكلة الزنوج مرة أخرى على سطح القمر. وقلت لها مهدداً: تلك السيدة من رعايا (المملكة الليبية) إن أحداً لا يستطيع أن ينالها بسوء.

الزجاجة الخامسة: كل شيء على ما يرام. وقاطع التذاكر المشقوق العينين يطلب مني بلسان صيني فصيح أن أعطيه علبة

سجائري مقابل القطار، وجارتي تسألني عما يقول، فأكتب لها باصبعي في الهواء، هذا الرجل يملك قطاراً للبيع، ونشتري القطار كعادة السواح. ويطلب مني قاطع التذاكر أن أعيّنه مديراً عاماً مقابل علبة السجائر، وتضطر جارتي إلى أن تلفت نظره إلى أنني من ليبيا.

ماذا يعني ذلك؟

يعتي أنك تبيع الماء في حارة السقايين!

ويهز قاطع التذاكر كتفه في لامبالاة، وأقول له مؤكداً: وأسوأ ما في الأمر أن الناس في ليبيا لا يشترون الماء على الإطلاق.

ماذا تعني؟

أعني أنهم لا يشترون الماء، ألا تصدقني، إنهم يلجأون للنوم عندما يحسون بالظمأ وتسقيهم الغزلان. وجحظت عينا قاطع التذاكر ومات من الشهقة. وقالت جارتي فيما كانت تعينني على إلقاء جثته من النافذة: أي رجل هذا، لقد مات من كذبة واحدة. ولفت انتباهها إلى أنني لم أكن أكذب، فركلتني على قدمي وقالت بغيظ: وما الذي كنت تقوله إذن عن الغزلان؟

كنت أشرح لقاطع التذاكر كيف يحصل الناس في ليبيا على حاجتهم من الماء. ألم يكن ذلك كذباً كله؟

.. لا ليس كله، إن الغزلان ووزارة الأشغال مصدر كل قطرة من الماء. وسألتني جارتي كيف يستطيع أحد الغزلان أن يحمل كوب الماء؟ ولم أجد شيئاً أقوله لها، ثم اعتراني الشك. لعل الأمر كله أكذوبة، ولعل العجائز يقلن ذلك للأطفال لكي لا يبولوا في فراشهم. وندمت أشد الندم على موت قاطع التذاكر، أليس هذا ما يدعونه الموت بالمجان.

وقالت جارتي شيئاً لم أفهمه، ثم نهضت باسترخاء وألقت زجاجتنا الحادية عشرة من النافذة ولم يعد ثمة ما يربط بيننا. نحن سنفترق الآن يا سيدتي.

أجل لم يعد ثمة ما يربط بيننا، وتعودين أنت للعمل في مصنع (الفليت)، وأعود أنا إلى ليبيا، إن كل ذبابة أقتلها هنا ستذكرني بك. أجل، وسوف أكتب إليك أيضاً، فأنا أزمع أن أفتح محلاً للكتابة العمومية والخاصة.

ومدت لي يدها مودعة، وتعلقت عيناها بي مثل فراشتين عاقلتين، وأحسست بالهواء البارد يلفح وجهي فيما كنت أنزلق عبر النافذة بحثاً عن أمنا الأرض. إنها ليست هنا، الأرض التي أبحث عنها ليست هنا، مجرد كتلة صلدة من التراب والشوارع، ولكن الأرض الحقيقية شيء آخر، شيء يملك قلباً وذراعين مثل كل الأمهات. الأرض أمي العظيمة التي تتحدث لغتي، وتدمن القهوة مثلي، وتحلم بالغزلان وزنوج القمر، وينشق قلبها عندما أموت، والباقي أمهات الآخرين. يجمعني بهن القطار وزجاجة النبيذ ثم اضطر لفراقهن بعد الزجاجة الحادية عشرة. والليلة قال الموت لي: سنذرع السماء في قطرة مطر، ونحلب النجوم من قرونها، ونزرع الزجاج بلا محراث في حقول الظلمة، ونتركه لينضج في سبتمبر مثل كل الغرباء.

1967

رسالة إلى سياف الخليفة

سيدي الفاضل

الحر في دمشق لا يطاق.. وبائع العرقسوس مات حتف أنفه.. مات من الملل وكثرة العيال، وشرب الحشيش والدخان، وعدم الاغتسال من الجنابة، والأكل بالأصابع والعادة السرية والسرطان. وبكيناه بدمع العين، ثم أنشدنا قارىء الهلالية: «من لم يمت بالسيف مات بالسكين»، وعدنا من حيث جئنا، والزناتي تركناه عند باب السوق ومرعي تركناه يعانقه في شوق ويشكو ليالي الفراق في سنين الفراق، والحر في دمشق لا يطاق. فمن يبيعنا تفلة بدرهم؟ من يبلغ أحبابنا أنّا نموت بوباء الظمأ في حارة السقايين؟ من؟ الجريدة الرسمية؟ الطواشي محرر عمود الوفيات؟ وكالة الأنباء السعيدة؟ من؟ ومن يضع الصوفة في مكانها دون أن يخدش جلال الموت؟

ما أطول عرض حالنا!! ما أتعسه! فاقرأ يا سياف الخليفة بعين العطف، ودع عينك الأخرى مغمضة! اقرأ رغم أنفك:

في رحلتنا الأولى.. اكتشفنا أن الله يخلق معظم الرجال مثل ثمار البلح، أعني يغطيهم بالشحم ويترك قلوبهم نواة.. ثم قابلتنا

أول بلحة على رصيف قطار الديزل الذاهب إلى هامبورغ واكتشفنا أن الشحم أيضاً يغطيه الخياط بالقماش. وعندما قلنا لرفيقنا إنه مجرد إعلان متحرك على مهارة أحد الخياطين، زعل كثيراً وتفل فوق وجوهنا، ثم شكانا لقاطع التذاكر وأنزلونا من القطار. ومضى الإعلان إلى أثينا.. مضى لكي ينعم بالحب مع «ماريا لاخاروس» مقابل ثلاث وعشرين دراخما.

في رحلتنا الثانية.. تزودنا بحجاب.. كتبناه بدمائنا عند أحسن الفقهاء، وغسلناه في سبع موجات، وقلنا هذه المرة تسلم الجرة إن شاء الله، ولكن الله لم يشأ، وقد قابلنا الحظ السيىء عند البوابة وفحص أوراقنا وضحك من خط الحجاب القبيح حتى استلقى على قفاه ثم سألنا: إلى أين؟ وقلنا له إننا نقصد هامبورغ إن شاء الله، وإننا نبحث عن إنسان ليس قلبه نواة أو حذاء قديماً أو فاتورة حساب. وابتسم الحظ السيىء، ولكنه لم يتركنا نمر عبر البوابة.

في رحلتنا الثالثة .. توسط لنا شاه بندر اللصوص وأقلعنا من ميناء البصرة بمحصول البلح، وقد طابت لنا الريح وقضينا وقتاً ممتعاً في الجلوس على أكياس البلح في الشمس، والحديث مع الرجال الذين قلوبهم نواة، وخلال الرحلة اكتشفنا أن الطفل لا يجلس في بطن أمه تسعة أشهر إلاّ لكي يتعلم الصبر قبل أن يذهب إلى المدرسة، وأن معلمنا القديم قد دارت به الدنيا وأسقطته ـ مع ألف نواة أخرى ـ في مخلاة بغل. وزرناه وتلطفنا في الحديث معه، ولكنه كان حزيناً للغاية، وكان لا يفتأ يشكو من الدنيا، ومن صروف الدهر ووزارة المعارف، ثم قال لنا إنه تعب من الحياة، وإنه يحس كأنه يعيش بين فكي بغل.

في رحلتنا الرابعة.. اعترانا الحزن.. وطفقنا ننشد العزاء في

كتب النبيذ والفلسفة، ثم قرأنا في لسان الهند أن الله يخلق ابن آدم في السماء ويرسله إلى الأرض لكي يشتري لنفسه كفناً، ولكن ابن آدم ينسى تلك المهمة على الدوام ويبدأ في شراء أشياء أخرى ثم يجره الشيطان إلى جناح الألعاب الرياضية ويغريه بصرف نقود الكفن في شراء قارب بخاري. وعندما يكبر ابن آدم ويصير عنده قارب وعربة وزلاجة للانزلاق على الجليد وبيت وثلاثة مطابخ، يأتيه الموت ويضطر إلى أن يقابل الله بلا كفن.

في رحلتنا الخامسة.. جئنا إلى السوق. قررنا أن نبادر إلى اتخاذ الحيطة تجاه مشكلة العري الفاضح بين يدي الموت، وقد جئنا محملين بالنوايا الحسنة والدولارات، وصعدنا السلم إلى مخزن القماش وكدنا أن نشتري الكفن، لولا أن السيدة «ايفاليزا بايارن» تدخلت في آخر لحظة وأغرتنا بالذهاب معها إلى بحيرات كاتافيا في أقصى الشمال. ومشينا بلا إرادة، وبلا حذاء.. مشينا مثل فأر في بطن حوت، وانزلقنا على الجليد، وشربنا النبيذ المعتق، وجلسنا في ضوء القمر وكتبنا الأشعار في عين السيدة «ايفاليزا بايارن»، وقد قلنا لها كل ما لدينا، وصنعنا لها من رموشنا مكنسة، حتى أفقنا ذات يوم واكتشفنا أننا نسينا الكفن كلية.

في رحلتنا السادسة.. ذهبنا إلى مكة. قررنا أن نغتسل، وأن نبدأ اللعبة من جديد، وقد مشينا على الفور مزمعين أن نهتدي إلى مكة بعلامات المرور، ولم نكن نعرف أن تلك العلامات تشير دائماً في الاتجاه المضاد، حتى بدأنا نقرأ المكتوب.

العلامة الأولى تقول: «الطريق من هنا. اذهب في اتجاه أنفك.. أنت لن تجد شيئاً على أي حال، فأنت مجرد عبث، مجرد عابر سبيل».

العلامة الثانية تقول: «الطريق من هنا. اذهب واغتسل ودع الله ينقذك من نفسك، فأنت مجرد عبث.. مجرد عابر سبيل».

والعلامة الثالثة تطلع لسانها للمارة وتقول: «الطريق من هنا. اسمع ما أقوله لك. الطريق من هنا، فاذهب حيث ما أشير عليك اذهب أينما تشاء، فأنت ستعود على كل حال.. تعود راكباً حمارك بالمقلوب، والأطفال يصفقون وراءك ويقولون: «هذا خادم الدجال». وتبحث عن الطريق.. وتبحث عن علامات المرور حتى يعتريك اليأس وتضطر إلى المشي بدون هدف. ثم تمشي بدون حذاء، وتحرث العالم بقدميك، وتتمزق مثل ورقة قديمة، فيما يمد لك الموت يده عبر متاهة أحزانك، وتحس بأنك ستجد السلام في نهاية المطاف، تكتشف بعينيك الميتتين أنك نسيت الكفن.

في رحلتنا السابعة.. نسينا الكفن.. أغوانا الشيطان، وايفاليزا بايارن، وعلامات المرور حتى نسينا الكفن. فيا سياف الخليفة لا تتركنا نذهب إلى الجنة عراة، ولا تتركنا أضحوكة في أفواه المتقين. أعطنا كفنا. أعطنا.

1968

بياع الكلمات

في موسم الطوفان.. في المطر.. أنا أبيعكم الماء.. أحمل لكم أحسن ما عندي واملأ الأزيار والبراميل القديمة بأجود أنواع الماء، ثم أخط لكم الحساب على الجدار بقطعة فحم، وأعود أخوض في الغدران معلناً لحماري الجائع أن سكان بنغازي قد شربوا جميعاً في نهاية المطاف.

كنت أنشط الورادين.. وكنت أخوض دائماً في الغدران بحثاً عن أزياركم القبيحة الصنع وأحرث أزقة بنغازي والمدن النائية، وأنقب على الأرصفة وفي المكتبات المضاءة طوال الليل والمرافىء والحانات وقبور الموتى لكي أعطيكم عظماً أحلى مذاقاً من بقية العظام.

كنت أطعمكم مثل قطيع من الجرذان البائسة. وكنت أحبكم أكثر من أي شيء آخر، وأكثر من طفلي، وأكثر من ماريا لاماكوف التي تجمدت من البرد فيما كانت تكنس شوارع موسكو لكي توفر لي ثمن رغيف الخبز، وقد ماتت وحيدة، وأكلت أنا جثتها، كما قالت لي في الوصية.

أكلت يدها اليمنى ليلة الأحد الموافق صفرين من شعبان، ثم عدت وأكلت يدها الأخرى وأوقدت عينيها شمعتين لكي أكتب لكم بقية أشعاري عبر حزم الضوء الأسود، وفي ظلام موسكو.. في أزقة هلسنكي المقرورة وعربات المترو في باريس.. وفي أكواخ الغجر وباعة الأفيون والنشالين وأنصاف الموتى على أرصفة الدار البيضاء.. في كل شبر من أرض العالم كنت أحلم بكم.. وكنت أركع على ركبتي طوال الليل لكي أجمع كلماتي المبعثرة وأضعها فوق الورق مثل قطيع من النمل الحاد الأسنان، وكانت تلك المخلوقات لا تكف عن قرضي وقد حفرت طريقها في رئتي. وحفر التبغ والحزن والجرذ الآخر الذي اسمه الملل، ولكنني لم أكف عن العناد وطالت رحلتي. وضعفت عيناي كما يحدث في القصص القديمة، وبت أتلمس طريقي ببقية عكاز ولقد مشيت حتى تعلم عكازي رائحة العالم وصار كلباً من الخشب.

كنت أريد أن أتعلم الكتابة.. أن أجعل المخلوقات السوداء الموغلة في الشراسة التي يدعوها الناس ـ كلمات ـ أصدقاء لي. وكنت أعرف أن المرء لا يفعل ذلك دون أن ينسى بقية أصدقائه، وقد دفعت هذا الثمن نقداً، ومشيت على أنفي عبر البحر. ومزقت قدمي وأكلت الجرذان النيئة تحت جدار برلين.

وفيما يحط الليل رحاله وتظهر الأشباح، ويعود الرجال المهذبون إلى بيوتهم أضع رأسي على حافة المقعد المرمري في الحديقة العامة وأحلم بكم وبكلماتي، وبيع الماء في المطر. كنت أريد أن أتعلم الكتابة ثم أحدثكم عن ليبيا. عن المصانع العملاقة وصوامع الغلال والحقول الممتدة بعرض السماوات، عن الحفر بالأظافر وحب العرق وجرّ المحاريث وراء الشمس.

أحدثكم عن أرضنا العجوز التي تجلس عارية عند ناصية الزقاق، عن سنابل القمح الميتة في باطن الأرض، والأطفال الميتين. كنت أريد أن أحدثكم عن المستقبل وحده. وكنت أعد كلماتي لكي تؤدي هذه المهمة وأعلمها الحلم مفتوحة العينين. وقد مزقت أبعادها حتى جعلتها تضرب الرمل وتقرأ الفنجان وتتلوى من الإرهاق مثل مخلوقات حقيقية، وعندما نفذت هذه الجريمة وجئت لأحدثكم عن المستقبل اكتشفت على جدار بغداد أنكم تبدأون كل القصص ـ بكان يا ما كان ـ تبدأون بالماضي. بالأشياء الميتة.. بالعظام، وبكيت عند قبركم، ذرفت خمس دموع، وجلست أستمع إليكم مثل بقية المتفرجين، فالمرء لا يفقد اهتمامه بالحكايات.

وسمعت قصة علاء الدين الأحمق، وقصة المتعهد الذي سرق المصباح وطفق يزرع العمارات في بنغازي. والسائح الذي اشترى أثينا، ومجموعة الليبيين الذين يملكون شركة لبيع البيض والعمال. ثم سمعت في الليلة الثانية قصة الغلاء، والبحث عن الكنز وشراء العجائز بنقود البنك العقاري، ومقايضة الضمير بأوراق العملة.

ثم سمعت في الليلة الثالثة قصة الحقد الذي نما بين الشحاذين الأصدقاء والعراك بالمطاوي من أجل العطاءات، والموت تحت جدار البنك العقاري في انتظار الرحمة، والمرض بوباء اسمه السياحة على نفقة الدولة.

وسمعت في الليلة الرابعة قصة الشاطر حسن الذي يستورد الجير من غرناطة برخصة استيراد مزورة ويتزوج كل ليلة عاهرة عذراء.

وسمعت في الليلة الخامسة قصة الحياة على هامش الحياة، والموت مثل قرادة متورمة بدماء الآخرين. وذرفت خمس دموع..

بكيت من الملل، من قصصكم الرديئة إلى حد الغثيان، من شهرزاد المزرية التي نهضت من قبرها لتغرق هذا العصر الفاتن بحماقات الشاطر حسن.. وكنت أريد أن أتعلم الكتابة! أنا بياع الماء في المطر.. أريد أن أتعلم الكتابة لكي أكسب عيشي بين قطيع من القصاصين!! أليس ذلك مضحكاً؟ ألا يحس المرء بمعدته تحترق من الضحك عندما يخطر بباله أن أحداً ما في هذا العالم يريد أن يكسب عيشه بالحديث إلى الليبيين عن المصانع وصوامع الغلال والحفر بالأظافر وجر المحاريث وراء الشمس.

أنا مت من الضحك. أعني من الجوع وأكلت جثة ـ ماريا لاماكوف ـ وانطلقت أتسول جثة أخرى على أرصفة هامبورغ، وعندما أمسك الشرطة بخناقي أخرجت لهم جواز سفري وقلت لهم إنني سائح ليبي وأريد أن أشتري هامبورغ. ولم يمسني الشرطي بسوء من دون بقية الشحاذين. وحللت مشكلة إقامتي.. ولكني لم أجد حلاً للمشكلة الأخرى، أعني اللعبة الخرقاء الأخرى التي أنفقت معظم أيامي أحاول إتقانها، فقد تجمع لديَّ جراب هائل من التجربة والخبرة في الحديث عن المستقبل، وكبرت كلماتي وتعلمت قراءة الفنجان مثل أحسن منجمات الغجر، وبات في وسعي أن أجعلها تقول ما أريده بالضبط، وأجعلها تطلع لسانها وتصدر أصواتاً غاية في التناسق وتخلب لب المارة، ولكني لا أعرف ماذا أفعل بها الآن. فهي لا تستطيع أن تعبر حلقة القصاصين التي نبتت في ليبيا بعدنا.. ولا تستطيع أن تقفز فوق جثة شهرزاد دون أن تصاب بالغثيان، وهي لا تملك شيئاً تقوله سوى تلك الخرافة الغامضة المدعوة بالمستقبل التي لم تعد تهم أحداً.

إنها مخلوقات عاطلة. شيء حي عاجز عن كسب عيشه، ولا

بد أن أطعمه من رئتي، ولا بد أن تموت ماريا لاماكوف من البرد لكي توفر لنا ثمن رغيف الخبز. ألم أقل لكم؟ أنا بياع الماء في المطر..

1968

الحياة ظاهرة إخصاب

نمو بالتناسل وحده، من ميلاد نبتة بحرية على أرض المحيط إلى ميلاد الإنسان المليء بالغرور والفضائل، والمرء لا يستطيع أن يفهم بناء العالم قبل أن يتوقف في لحظة ما لكي ينظر إلى هذه الحقيقة بعينين مفتوحتين.

إننا جميعاً نتاج ظاهرة واحدة.. نحن والأسماك والخنازير والقواقع والعشب.. والبيض أيضاً، وليس ثمة شيء في العالم جاء بطريق آخر سوى الله وحده. والمرء يتوقع أن يجد في ثقافات الشعوب كل ما يحتاج من الأدلة على هذه الحقيقة، يجد علماً محدداً لدراستها، منهجاً خاصاً بها، شيئاً يستطيع أن يدعوه بكلمتين «ثقافة الإخصاب» أو «ثقافة الجنس». فالرجل البدائي لم يخلق هذه الثقافة، ولم يعتبر دراستها علماً حقيقياً إلاّ بعد سبعة آلاف وثمانمائة سنة من اختراع الكتابة، ولم يكف عن محاولة إخفائها في الظلام قط. بل إن المرء في بعض دول العالم يستطيع أن يذهب إلى السجن بسبب مقال صريح عن الجنس. وحاصل اللعبة أن الرجل العادي يعرف عن ظاهرة ارتداء ملابسه أكثر مما

يعرف عن ظاهرة إنجاب أطفاله، ويهاب أخطار الطعام ومخالفة إشارات المرور أكثر مما يهاب أخطار الظاهرة التي تحفظ وجوده ذاته من الانقراض. إنها حقيقة تدعو إلى الازدراء. ولكننا قبل أن نتورط في ممارسة هذا الشعور، دعوني أقول لكم أولاً لماذا حدث ذلك. لماذا نعتبر الجنس موضوعاً مغلقاً.. لماذا نعتبره «عيب»؟ السبب الرئيسي هو اعتبار المرأة نفسها موضوعاً مغلقاً. سر خاص بكل رجل على حدة يخبئه وراء جدران البيت.. يخبئه في العباءة، يحفظه من «الألسن»، لا يتحدث عنه مع أحد، ولا يسمح لأحد أن يفعل ذلك أيضاً.

وإذا كان ثمة ملامح واضحة لهذه الحقيقة في ثقافات الشعوب المتأخرة، فإننا نستطيع أن نلمس بأنفسنا هنا أن ثقافتنا الليبية تحمل مجموعة كاملة من تلك السمات، فليلة الدخلة عندنا هو أول إجراء للتأكد من أن «السر» لم يعرفه أحد من قبل. والعباءة وجدران البيت هي الإجراء الثاني للمحافظة على السر بقية السنوات. وكلمة «حرم» نفسها إشارة شبه كاملة إلى حقيقة اللعبة. بعد ذلك تصل سلسلة معقدة من التفاصيل الصغيرة تستطيع أن تقودكم إلى المكان الخفي الذي تحتله المرأة في ثقافتنا الليبية. يأتي اللباس الوطني، غطاء الرأس والرداء والحزام والقطعة الباقية التي ندعوها «جرجار» لتغطية الساقين. وتغطية الوجه أوقات الأزمة.. بكلمة أخرى «تغطية السر» على نحو موثوق به، ويأتي شكل العباءة التي تبدأ فوق الرأس عبر الوجه وبقية الجسد أسفل الركبتين مشيراً بوضوح إلى أن المرء لا يستطيع أن يجد طريقة أفضل لإخفاء أحد أسراره، فالعباءة الليبية مصممة بحيث لا تسمح بالرؤية خلالها ولا تسمح بإبراز تقاسيم الجسد، إنها أفضل اختراع في العالم بأسره لأداء هذه المهمة. ثم يأتي الحذاء الليبي الخاص بالنساء

الذي ندعوه «الرقعة» وهو في الواقع اختراع آخر شبه كامل لتغطية الساقين أو الجزء الباقي تحت العباءة.

هذا الزي بالذات ـ كما نعرف جميعاً لا يلائم مناخنا الحار، ولا يمكن أن نعتبره حلاً اقتصادياً لمشكلة البحث عن حجاب رخيص، فالواقع أن الزي الليبي أكثر تكاليف من سواه.. أعني من الساري الهندي والعباءة الشرقية وبقية الأزياء في إفريقيا. ونحن نستطيع أن نرى في هدوء أن شكل هذا الزي وتصميمه قد انبثقا من حاجتنا إلى «تغطية» نسائنا عن أعين الفضوليين تغطية كاملة خالية من الثغرات، وإذا كان هذا لا يعني أننا نعتبر المرأة الليبية «سراً» خاصاً لا يجوز إفشاؤه، فماذا يستطيع أن يعني؟

بعد ذلك أريد أن ألفت انتباهكم إلى نقطتين هامتين:

الأولى: أن المجتمع في ليبيا ينقسم بوضوح إلى مجتمعين يعيش كل واحد منهما ظروفاً «ثقافية» مختلفة: مجتمع النساء المليء بالأسرار، ومجتمع الرجال المليء بالنقود. والعلاقة الوحيدة بينهما التي يمكن تحديدها بوضوح هي علاقة «اقتصادية» وليست «ثقافية». علاقة الانفاق على البيت وتربية الأطفال وتقسيم العمل، أما فيما عدا ذلك فإن مجتمعنا في ليبيا هو أحد المجتمعات القليلة في العالم التي يتولى الرجل وحده إدارتها.

النقطة الثانية: أن سيادة الرجل شبه المطلقة في ليبيا قد ساهمت في إنتاج ثقافة ذات اتجاه معين تضع المرأة دائماً وفي كل الظروف في المقام الثاني، وهو مكان يعني أشياء كثيرة، منها بالطبع أن الرجل أفضل من المرأة.

هنا أنا أتمنى أن ألفت انتباهكم إلى بداية هذا الحديث عندما قفز

أمامنا السؤال المحرج: لماذا نعتبر الجنس «عيب»؟ فالإجابة الآن أصبحت أكثر يسراً، إننا نفعل ذلك لسببين:

أولهما: اعتبار المرأة نفسها سراً لا يجوز الحديث عنه.

ثانيهما: انا نعتبر العلاقة الجنسية بين المرأة والرجل علاقة اقتصادية بطريقة ما.. فهي «الثمن» الذي يناله الرجل مقابل قيامه بأعباء الأسرة. والمرء لا يحتاج إلى معرفة خاصة لكي يقبض ذلك الثمن، إنه يذهب إلى فراش زوجته ويناله مستشعراً امتيازه باعتباره «الرجل» دون أن يخطر بباله أنه يستطيع أن يرتكب خطأ ما في هذه المنطقة. ولعلني أملك عذراً في إيذاء مشاعركم عندما أقول لكم إنه ليس ثمة حيوان واحد في العالم يتصرف على هذا النحو سوى الرجل نصف البدائي الذي لا يزال يعيش في بعض الأقطار النامية. فالجنس مصدر الحياة نفسها. وأحقر جرذ يراه المرء يتودد إلى أنثاه في المرحاض يعرف هذه الحقيقة، ويعرف أن قانوناً هائلاً كلي الشمول يحكم علاقته بها، وأنه لا يستطيع أن يقبض منها أي «ثمن» مقابل أي شيء.. وأنه إذا فعل ذلك يحفر قبره بيديه. والجرذ يتعلم هذه الحقائق بغريزته.. ويقضي حياته دون أن يرتكب خطأً واحداً في هذه المنطقة، أما الإنسان فلم يعد يملك هذه المناعة.. إنه يستطيع أن ينتحر في أي لحظة دون أن يعرف ذلك. والأبحاث الحديثة تستطيع أن تمدنا بقائمة من الأمراض الفظيعة والمضحكة التي يمكن أن تنجم عن علاقة جنسية غير سليمة، ولكني لا أريد أن أتورط في إثارة سخطكم إلى هذا الحد، إن كل ما أهدف إليه هو أن أضع بين أيديكم ـ وبأقصر طريق ممكن ـ الخطوط العريضة ذات العمق الساحق التي تكمن وراء ما يزعمه الرجل نصف البدائي عن حقوق الزوجية وعفة المرأة والطهارة والشرف إلى آخر

القائمة القديمة التي لم يكف ذلك المخلوق العقيم عن ترديدها دون فهم من أي نوع.

فاللعبة كلها مجرد محاولة لتغطية رذيلة الجهل. والرجل الذي يصدع رؤوس أصدقائه في مقاهي ليبيا بفضيلة العفة هو نفس الرجل الذي يتسلل لشراء عاهرة نصف ميتة بحفنة قروش.. نفس الرجل الذي يحطم قلبه بالعادة السرية. نفس الرجل الذي يقف مستعداً لاغتصاب أي رجل آخر مثله بمجرد أن تتاح له الفرصة. إننا لسنا شعباً من الملائكة. وإذا كانت ظروف العالم الثقافية سيئة فإن ظروفنا أكثر سوءاً وبالذات ثقافتنا الجنسية الوضيعة التي لا تخلو من المنطق فحسب بل من الشجاعة أيضاً. وإلى أن نتعلم أن الجنس مصدر الحياة بكل أنواعها، وأن المعرفة ليست عيباً أو سراً بل واجباً أولياً لا بد من أدائه، وإلى أن نتعلم أن الجنس وحده من الطقوس الأصيلة لممارسة الحياة نفسها، سوف نظل نولد في الظلام بطريقة تشبه ميلاد الأطفال غير الشرعيين ونظل نسيء فهم وجودنا ذاته.

الجنس ليس صورة عارية، ليس لعبة إثارة.. ليس لعبة من أي نوع. إنه طريقنا إلى هذا العالم، طريقنا لتنفيذ إرادة الله في إنشاء الخلق.. فلماذا يكون ذلك «عيب»؟

1968

عودة الأميرة

بداية ديسمبر ..

«عزة» طفلة من القدس تبناها عجوز سويدي واحضرها معه إلى استوكهلم، وقد رأيتها تجلس بجواره على المقعد الخشبي في مدينة كلير كافيغن. و«عزة» لا تعرف أحداً في استوكهلم. ولا تفهم ما يقوله العجوز من الكلمات السيئة النطق، وعندما تهز له رأسها وتنظر إليه بعينيها الواسعتين، يطلع العجوز قاموسه ويقرأ لها كلمة بكلمة: «أنا أحبك كثيراً يا أميرة بيت المقدس».

عزة أميرة من بيت المقدس عمرها خمس سنوات، وقد رأيت عينيها الواسعتين تقفزان من الإثارة عندما ركعت بين قدميها ذات يوم وقلت لها متجاهلاً قاموس العجوز: أنا يا سيدتي بحكي عربي. وتعلقت بعنقي في لهفة، ثم دفنت رأسها تحت معطفي وسمعتها تسألني بخفوت: صحيح عمو بتحكي عربي؟

منتصف ديسمبر

هطل الجليد لأول مرة، وتجمع الأطفال بزلاجاتهم فوق طول الحديقة العامة وتجمدت التلال الصغيرة المقامة على البحيرة المقابلة

لكلير كافيغن وعبرها المواطنون كطريق مختصر إلى وسط المدينة. وعندما حملت عزة فوق كتفي وعبرنا البحيرة في صحبة العجوز طفقت تنظر حولها في دهشة ثم رفعت يديها وأعلنت ضاحكة إننا نمشي على وجه الماء. وفي المقهى المقابل جلست عزة بجوار النافذة وواصلت النظر إلى البحيرة مبدية فضولاً ملحوظاً لأن تعرف ماذا حدث للأسماك تحت طبقة الجليد ثم استرعى انتباهها غراب صغير كان ينطوي مغروراً على حافة السياج وطفقت تتأمله منشغلة عن كوب اللبن الذي وضعه العجوز أمامها، وكانت درجة الحرارة قد هبطت إلى عشرة تحت الصفر، واختفى المواطنون وراء معاطف الفراء ذات الياقات العالية، وبدت عزة بجوار النافذة عبر ذلك العالم الأبيض الموغل في العزلة والقبر مجرد صورة معلقة على الجدار.. «صورة فاتنة معلقة على الجدار»، تقول صاحبة المقهى: انظر إلى عينيها.. يا إلهي أنا لم أر طفلة مثلها قط. إنها أميرة من بيت المقدس. وتقول المرأة مرة أخرى: انظر إلى عينيها.. يا إلهي.. هل قلت إن اسمها أزة؟

أجل. ويتجه إلينا أحد الرواد، وينحني لكي يتحدث مع العجوز فيما تلتفت عزة بعد أن سمعت اسمها وتقول بفضول: شو؟

لا شيء يا سيدتي. إن تلك المرأة التي تحمل القهوة قد قالت إنك أجمل طفلة في استوكهلم. وأضع يدي فوق كتفها فتنطوي بجواري وتواصل النظر إلى البحيرة المتجمدة. ثم يتصلب صدري مثل قفص من عيدان القصب الجافة ويجتاحني شعور غامر بالإرهاق، وفيما أحاول يائساً أن أدفن وجهي وراء باب النافذة أحس بدموعي تنبثق تحت الجلد وتصطدم عيناي بنظرات العجوز فأبتسم له معتذراً وأستأذنه، وأغادر المقهى. وعلى طول الشارع

المزدحم راقبني المارة في فضول، وتوقفوا ليلاحقوني بنظراتهم.. وطاردني بائع الصحف لكي يبيعني نتائج الانتخابات في هلسنكي. وعند محطة القطار تعلق بي بائع آخر، فجذبته من معطفه إلى أعلى الدرج وقلت له عبر دموعي الزجاجية إن هلسنكي والانتخابات والسويد لا يستحقون تفلة. وضحك البائع معلناً أني زنجي مخمور بالغ الطرافة.

ليلة عيد الميلاد..

في مدينة عزة ولد المسيح، قال العجوز من طرف المائدة الممتدة في وسط البحر رافعاً قدحه فوق رأسه، في مدينة عزة، في مثل هذه الليلة ولد المسيح، فدعونا نشرب نخب ميلاده محتفلين بالحادث السعيد الذي انتهى نهاية سيئة. وضحك المدعوون ورفعوا أقدامهم، فيما انحنت جارتي لكي تلفت انتباهي إلى أنني لا أملك قدحاً، وقلت لها إني رجل مصاب بالسرطان، وإن تبادل الأنخاب يضر بصحتي خصوصاً إذا كان النخب لميلاد المسيح، وسمعني العجوز فوضع قدحه جانباً وسألني بصوت عالٍ: إن شهر ديسمبر اسمه رمضان في الشرق هذا العام.. أليس كذلك؟

أجل. هذا العام.

والمسلمون لا يشربون الخمر، خلال الشهر كله.. أليس كذلك؟

أجل. تقريباً. ولكن لماذا تلاحقني بأسئلتك يا سيدي؟

وبهت العجوز. لقد بهت حتى أومضت عيناه القبيحتان من الدهشة ثم اتكأ في مقعده وقال بهدوء أنا أعتذر. إنني لم أهدف إلى مضايقتك، ولكن ما الذي دعاك إلى أن تنهرني. كانت حفلة عيد الميلاد تتحول ببطء إلى معركة صغيرة، وكان العجوز الذي

وعد ضيوفه بسهرة مسلية حافلة بالطرائف الشرقية قد بدأ يندم على دعوتي إلى بيته، مستشعراً خيبة أمله في أن أجلس هناك على طرف المائدة وأمطر ضيوفه بالحكايات المشوقة وقصص اللاجئين والحرب وإسرائيل، وقد تمنيت في البداية لو كان بوسعي أن أعمل بنصائح مكاتب الدعاية العربية، وأروي لحفنة العجائز المخمورين كل ما يخطر ببالي من القصص التي من شأنها أن تعرف العالم بحقيقة إسرائيل ونواياها العدوانية، مفرغاً جهداً إضافياً - بجانب الجهد الحربي - لاستمالة مزيد من المناصرين لقضية فلسطين، ولكني لم أفعل ذلك، فالمرء في العادة لا يتذكر نصائح مكاتب الدعاية في الوقت المناسب خصوصاً عندما يحدق أحد العجائز في وجهك ويطلب منك إيضاحاً لسلوكك الخشن، وقلت للعجوز: الذي دعاني إلى أن أنهرك أنك تريد أن تجرني إلى حديث تعتقد أنت أنه مشوق، تريد أن تسمعني أشكو مظالم إسرائيل وأسفح دموعي أمام ضيوفك في محاولة لكسب ودّهم، وتريدني أن ألقي خطبة المساء عن أحزان اللاجئين بعد أن تفرغوا أنتم من ديك عيد الميلاد، وتريدني أن ألوح بقبضتي في الهواء وأعلن لكم أننا سنسترد القدس ونغرق اليهود في البحر. أنت يا سيدي تريدني أن أساعدكم على توليد شحنة من الإثارة في عالمكم الوديع الممل الغارق في الأمن والاسترخاء وأضواء النيون.. وأنت يا سيدي أحضرت عزة إلى هنا لكي تؤدي لك هذه المهمة. وطلب مني العجوز أن أغادر بيته.

التاسع والعشرون من ديسمبر

شوارع استوكهلم البيضاء تتثاءب من الملل، وليس ثمة أحد في الطريق سوى عامل النظافة، وطائر صغير أزرق اللون يقتعد حافة

النافذة ويحدق في الجليد ببله، محطة القطار تقع على بعد ميل كامل من الهوتيل، والموظفة التي طلبت منها أن تستدعي لي عربة أجرة تعبث بسماعة التليفون وتحدثني عن «فام لي»، أنت لا تعرفه، إنه أجمل طفل في العالم، وقد تبناه جارنا عندما ذهب إلى فيتنام واشترى له دراجة وصندوقين من اللعب، «فام لي» يا إلهي أنا لم أر طفلاً مثله، وليس ثمة أحد في منطقتنا لا يبدي إعجابه به. وسألتها عما إذا كانوا يدعون «فام لي» أميراً من سايجون، فنظرت إلي ببرية ثم قالت بعد ذلك: ماذا تقصد؟ إن البقال يدعوه أحياناً بهذا الاسم ولكن بقيتنا يدعوه ببساطة «فام لي». وفيما كانت تفتش حقيبتها لكي تريني صورة الغلام رن جرس التليفون وسمعت صوت العجوز المرتجف يطلب التحدث إليّ، وكانت الرجفة ما تزال تشوبه عندما قال لي في النهاية إنه سيأتي بنفسه لكي يرافقني إلى محطة القطار.

وجاءت عزة بصحبته، وكانت تلتف بشال أبيض ذي أهداب زرقاء، وكذلك عيناها العاقلتان تعكسان أضواء اللهو في صفاء مطلق، وقد ركعت بجانبها، وتركتها تحدثني عن الهدايا التي وجدتها في المدخنة ليلة عيد الميلاد، وفيما كنت أدس وجهي في طيات شالها أحسست بيدي العجوز فوق كتفي، وسمعته يقول لي بصوت منخفض إنه سيذهب مع عزة لزيارة القدس في ديسمبر القادم، وأني لا بد أن أرافقهما إلى هناك.

الواحد والثلاثون من ديسمبر

سيدي العجوز الفاضل: أنا لا أستطيع أن أذهب إلى القدس لأن سلطات إسرائيل لن تسمح لي بالدخول، وعزة كذلك لا تستطيع أن تذهب إلى هناك، فالقدس لم تعد تخصنا، ونحن غير

راجعين. ولكن، لأن عزة ماتزال في الخامسة من عمرها، ولأنها تحمل جواز سفر سويدي، ولأنها لا تستطيع أن تهدد الأمن في بيت المقدس، ولأنها طفلة عاقلة حسنة السلوك فأنا أعتقد أن سلطات إسرائيل سوف تتركها تدخل برفقتك لكي ترى بيتها القديم.

وبعد عام من الآن ستكون عزة قد نسيت شوارع القدس، وزادت في الوزن وصارت بشرتها بيضاء، ولن يشك أحد هناك أنها مجرد سائحة عادية.

أول يناير

يا مطلع هذا العام، عائدون عائدون، عائدون. على الأقل بتأشيرة دخول.

1968

قصيدة من منزل الأقنان

منزل الأقنان بناء متهدم في قرية جيكور في العراق. وهو أيضاً نفس العنوان الذي اختاره بدر شاكر السيّاب لديوانه الصادر خلال عام 1963، تلك المجموعة من القصائد المعبأة بالموت التي كتبها السيّاب في مدينة لندن فيما كان ينتظر موته الخاص وراء جدران مستشفى سان ماري.

كان مصاباً بشلل في الظهر، وبتلف نهائي في عضل ساقه اليمنى ومصاباً أيضاً بالسل، وكان قد ترك وطنه منذ بضع سنوات، وترك أطفاله وبيته، وانطلق يعرج على عكاز بحثاً عن الله، وعندما وجده قال له:

«لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الألم

لك الحمد، إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم

ألم تعطني أنت هذا الظلام

وأعطيتني أنت هذا السحر

فهل تشكر الأرض قطر المطر

وتغضب إن لم يجدها الغمام»

والسياب عندما كتب هذه القصيدة، كان قد خرج لتوه من تجربة دينية متصفة بالشذوذ في مدينة بيروت، وكان يفرغ قلبه من بقايا تلك التجربة بتعمد حافل بالريبة، متطلعاً عبر رؤيا صوفية كلية الشمول والعمق إلى قوة الجذب في العالم.

والمرء يستطيع أن يتوقع إذ ذاك سوى هذا البناء الشعري الحافل بالفلسفة والرضاء الصوفي والتزام أبي العلاء الذي يتعدى حدود اللفظ، وحكمة المزامير المنسوب إلى النبي أيوب، ولكن نقطة الإثارة هنا أن السيّاب لا ـ يكتب ـ هذه الرؤيا بل يعيد بناءها من جانب محايد بطريقة متعمدة. إنه لا يريد أن يضيف بعداً شعرياً إلى فكرة التراث، لذا فإن كل كلمة وردت هنا تجرّ وراءها بعداً زمنياً حافلاً بالظلال.

فكلمة ـ عطاء ـ اصطلاح خاص استعمله الاقتصاد الإسلامي لمعنى المنحة الواردة من بيت المال أو من صاحب الأمر.

والتزام قافية الهمزة في عجز البيت الأول والثاني، والتزام قافية الميم ارتباط بلزوميات أبي العلاء التي ظلت على الدوام مثالاً نادراً للإخلاص اللفظي والفكري في أشعار الصوفيين.

وتقديم البعد الزمني عبر ألفاظ الشعر القديم المتداولة ـ قطرة المطر والغمام والسحر والرزايا والكرم ـ إلى جانب الإصرار على بنائها القديم أيضاً، فالرزايا عطاء والمصيبات بعض الكرم، والأرض ـ تشكر ـ قطر المطر، والمقطوعة بأسرها محدودة عبر هذا الخط الحاد، والشاعر يحس بالتيه داخل لعبته الخطرة، ويحس بأنه معرض

للضياع عبر ظلال الرؤية الممسوخة. لذا فإن الإشارة إلى عذاب السيّاب تصل على الدوام محددة بأدوات اللغة.. باسم الإشارة ذاته:

«ألم تعطني أنت «هذا» الظلام»

«وأعطيتني أنت «هذا» السحر»

فالألم لا علاقة له بالآخرين، إنه ألم السيّاب وحده، وهو لا يريد أن يطمس هذه الحقيقة عبر محاولته المرهقة لالتزام جانب الحياد في السرد اللفظي، ولذا أيضاً فإن الجزء الوحيد الخاص بالشكوى في هذه القصيدة يصل هنا:

«شهور طوال وهذي الجراح

تمزق جنبي مثل المدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى»

ثم تعود لحظة العزاء عبر مزامير أيوب، تعود مثقلة بالمحاولة المرهقة التي يؤديها السيّاب بجرأة تليق بموهبته:

«ولكن أيوب إن صاح،

صاح:

لك الحمد، إن الرزايا ندى

وإن الجراح هدايا الحبيب

أضم إلى الصدر باقاتها

هداياك في خافقي لا تغيب

هداياك مقبولة، هاتها!»

وفكرة الهدايا الإلهية فكرة ترد في مزامير أيوب حقاً وترد على لسان المسيح، ولكن السيّاب يستعملها هنا بمعناها الصوفي الإسلامي كما تحدد عبر أشعار رابعة العدوية بالذات، فالألم بالنسبة لأيوب تحد لفكرة الصبر، وهو أيضاً طريق الإنقاذ من ضلالة الرخاء الدنيوية، أما بالنسبة للصوفيين الإسلاميين فالألم يظل على الدوام تذكاراً من الله وطريقاً معبداً للاغتسال من الذنوب، لذا فإن فكرة الألم العذب فهم صوفي إسلامي خاص يتصف بواقع شاذ من إعلان الرضا بطريق الغزل. والمرء يستطيع أن يسمع رابعة العدوية بوضوح تام عبر هذا المقطع الذي يكتبه السيّاب:

«أشد جراحي وأهتف بالعائدين

ألا فانظروا واحسدوني فهذي هدايا حبيبي

وإن مست النار حر الجبين

توهمتها قبلة منك مجبولة من لهيب

جميل هو السهد أرعى سماك

بعيني حتى تغيب النجوم

ويلمس شباك داري سناك»

وهذا الغزل الصوفي المتخمر، برائحة التكايا وفلسفة النورانيي،ن ينتهي فجأة بجزء حسن الإعداد حافلاً بخيبة الأمل يقتطعه السيّاب عبر نافذته في مستشفى سان ماري:

«جميل هو الليل

أصداء بوم

وأبواق سيارة من بعيد

وآهات مرضى،

وأم تعيد

أساطير أبائها للوليد

وغابات ليل السهاد، الغيوم

تحجب وجه السماء

وتجلوه تحت القمر»

والأم التي تعيد أساطير آبائها للوليد، صورة حافلة بالظلال، فالسيّاب الذي التزم جانب الحياد حتى الآن مصراً على رواية الحادثة كما وصلته في مزامير أيوب ولزوميات أبي العلاء، يتوقف فجأة ليصفها بالأسطورة مرة واحدة في اقتضاب خاطف عبر تلك الصورة التي تبدو بريئة من جميع الوجوه، فالوليد لفظ تستعمله اللغة العربية للطفل قبل أن يتعلم الإنصات لأي صوت خارجي، والأم لا تستطيع أن تروي له أساطير حقيقية خلال تلك الفترة، ولكن السيّاب يهدف إلى إقرار هذا الخطأ بالذات لإيضاح الهمزة في الصورة. ثم تأتي بعد ذلك خاتمة المطاف محددة بأداة الشرط:

«وإن صاح أيوب كان النداء

لك الحمد يا رامياً بالقدر

ويا كاتباً، بعد ذاك، الشفاء»

فالمرء لا يجوز أن يقول شيئاً آخر، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يلتزم الصمت. أما إذا قرر أن يصيح.. أن يصرخ من فرط الألم بملء رئتيه، فليس أمامه ثمة فرصة للاختيار سوى أن يتبنى أشعار داوود، أن يتبنى فكرة ثقافتنا غير المتكاملة عن الألم.

1968

المقهى

1 ـ روما اختفت في قبعات السواح

وبراميل النبيذ تجرها البغال، والشوارع تختنق بالحجاج وشرطة المرور وباعة اليانصيب البلهاء، روما ـ ملتقى الطرق ـ اختفت في قبعات السواح.

2 ـ «فلا تمت من الوحدة»

تقول روزيتا بعينيها «لا تتيبس في ركن المقهى مثل دودة عجوز، ولا تدع البابا يصيبك بالذعر من نار جهنم»، وأومىء لها، وادعوها إلى قدح من القهوة. كم أتمنى يا سيدتي لو أنني أعرف اللسان الروحي لكي أفهم ما يقوله البابا.. ولكنني مجرد دودة عجوز.

وتضوع رائحة القهوة. ويتسلق الدخان زجاج النافذة إلى فوهة التهوية عند السقف، ويسعل أحد الرواد، ويقول لروزيتا هل هو مفلس؟

أجل.

دعيه وشأنه.

أعني إذا كان مفلساً حقاً، دعيه وشأنه، إن المدينة مليئة بالسواح، وتنهض السيدة، وتترك لي ابتسامة قديمة فوق المنضدة، وأنطوي في الركن وراء جدار لزج من رائحة أحذية الرواد، وأقضم أظافري.

3 ـ «فلا تمت من الوحدة»

لا تدع الصدأ يأكلك مثل لغم ضائع في الرمل، اشترِ لنفسك عاهرة وعلبة تبغ وكثيراً من الطعام المعلب، وامش على رأسك إلى القوارب المقلوبة فوق أحجار الليدو، وهناك أعني تحت أحد القوارب ستقتل وحدتك، وتنعم بالأكاذيب والقصص القديمة المملة إلى حد الموت، وتقول لك السيدة إنك أحسن بضاعة في السوق. ثم تذرف لك دموعها عند منتصف الزجاجة، وتقول لك إن طريق الرذيلة شاق ومليء بالشرطة، وإن المرء لا يربح سوى خمسمائة ليرة في اليوم، حتى إن صاحبة البيت تضطر إلى أن تبحث بنفسها عن الزبائن وتنتظر وراء الباب طوال صباح الأحد لكي تحصل على إيجار الغرفة، ويتورم قلبك من الملل. وتتيبس في ركن القارب المقلوب مستشعراً تيار الهواء عبر الفجوة.. وتقضم أظافرك. وعند نهاية الزجاجة يخطر لك أنك في حاجة إلى زجاجة أخرى، وتنطلق بحثاً عن دكان البقال ثم تنسى أن تعود. إن المرء ينسى دائماً أن يعود إذا كان بيته مجرد قارب مقلوب على أحجار الليدو.

4 ـ عاملة الهاتف تنظف مطفأة السجائر، إنهم يفعلون ذلك في روما لكي يقولوا لك إنك جلست أطول مما يجب، وإنك لا بد أن تشتري قدحاً آخر من القهوة.

ويسعل أحد الرواد، ويلفت انتباهي إلى أن عاملة المقهى تملك

ساقين بديعين، فألفت انتباهه إلى أني أعرف ذلك، وفيما يقترب بمقعده لكي يشرح لي إشاراته البذيئة، تقول له الفتاة بشراسة تثير الغيظ: «أنطونيو! يا ابن الزانية هل طلبت منك أن تبيعني؟ ماذا تريد أن تقول له الآن؟».

لا شيء، ذلك ليس من شأنك. ولماذا تقترب بمقعدك!

وينظر إليها أنطونيو من فوق كتفه، ويتجعد عنقه مثل جلد ضفدعة، ثم يدق المنضدة بقبضته صارخاً بهياج: هذا ليس من شأنك، إنني أستطيع أن أذهب بمقعدي في أي اتجاه.

وتنحني الفتاة عبر المنضدة ويسقط ثدياها فوق أنفي، ويدس أنطونيو وجهه بيننا قائلاً بثبات: ألف ليرة.. إنه ليس غنياً كما تتصورين. ابتعدي قليلاً، دعيني أتحدث، ليس أكثر من ألف ليرة.

وتسألني الفتاة: أليس هذا الرجل مضحكاً؟

أجل ..

أليس هذا الرجل، مضحكاً إلى حد الغثيان؟

ويقول أنطونيو بنفسه: أجل. ولكن ليس أكثر من ألف ليرة.

وفيما يدوس أحد ما على قدمي تحت المنضدة، أحاول يائساً أن أتذكر أين نسيت حقيبتي، ويخطر بذهني أن أعود إلى محطة القطار وأصرخ على الرصيف حتى يتبرع أحد النشالين بإرشادي إلى تلك الحقيبة، ولكن انطونيو يخف إلى نجدتي بثبات متزايد. إنه سيرافقني إلى مكتب المفقودات في محطة روما، وأقول له إنني لا أعرف أين فقدت الحقيبة بالضبط فيمسكني من ذراعي ويهزني قائلاً بثقة: إن مكتب المفقودات سيجدها بالتأكيد، وفيما ننطلق

6 ـ فهل نغادر روما قبل أن نقول ذلك للبابا.

هل يتركنا الحراس، والبوابات الحديدية، وأجراس الإنذار، نمر عبر الساحة لكي نراه؟ وارفع يدي فوق رؤوس رواد المقهى مطالباً بالسؤال، ولكن العاملة لم يعد يهمها أمري، وأنطونيو الوضيع سرق ولاعتي وذهب ليشتري علبة السجائر، وروزيتا عادت في صحبة رجل سويدي هائل الحجم وطفقت تدلق جرار النبيذ في جوفه معلنة للرواد أنها ستذهب معه إلى استوكهلم.

«البرد قارص هناك»، أريد أن أقول لها البرد يقرص أسنان الأشباح في استوكهلم، فلا تذهبي إلى استوكهلم، لا تتركي شمس روما من أجل أحد، إن المرء عندما يقترف هذا الخطأ يصبح دودة عجوز.

«فيفا روما»، يقول الرجل السويدي تحت وطأة النبيذ؟

7 ـ ....

1968

معاً عبر الشوارع المزدحمة بقبعات السواح، يضيع صديقي أنطونيو في الزحام ويعود إلى المقهى ليأخذ الحقيبة التي رآني بعيني رأسه أضعها وراء الباب. وتمنحه الفتاة ابتسامة فاتنة فيومىء لها بيده، ثم يستعد للخروج بوقار يثير البكاء، وتذهله المفاجأة عندما يراني أقف أمامه فيشرع في عناقي كأننا التقينا بعد ألف عام.. وأسقط عند قدميه من الضحك. كنت أريد أن أعيدها إليك، يقول أنطونيو بكبرياء، كنت أريد أن أنقب عنك العالم وأعيدها إليك ألا استحق المكافأة. وأدعوه إلى قدح من القهوة وأعتذر له عن لعبة الحقيبة محاذراً أن لا أجرح مشاعره باعتباره أسوأ لص في المنطقة، ولكنه يصر على أن يعرف ما الذي دعاني إلى هذا العبث والملل. يا صديقي أنطونيو، الملل والقوارب المقلوبة والإحساس بالظلم في عالم يختنق بالقضاة. ويضع يده على كتفي ويسألني عن مهنتي، ثم يهز رأسه كأنه يعتذر عن ذلك السؤال، ويصلني صوته من وراء الجدار اللزج قائلاً بود: العالم بغل سيىء العشرة.

5 ـ «فلا تمت من الوحدة»

ولا تدع البابا يصيبك بالذعر من نار جهنم، فالواقع أن الذين يذهبون إلى هناك لا يعرفون ذلك قط حتى تصلهم رائحة الشواء، الذين يذهبون إلى هناك هم آخر من يعرف، لأن الشيطان مخادع محترف لا يقود ضحاياه حاملاً مشعلاً، ولا يثير الريبة حول فخاخه، الشيطان والصياد يضعان فخيهما حيث يعتقد الضحية أنه يستطيع أن يمشي مغمض العينين.

فلا ترتكب هذه الرذيلة. لا تدع وباء الثقة بالنفس يفسد حياتك. إن قليلاً من الشدة مثل قليل من الملح يصلح المعرفة ويساعد على تقوية العينين.

رسالة إلى الرئيس بومدين(*)

سيدي الفاضل: أنت تحتجز في بلادك طائرة تخص إسرائيل. تحتجز آلة من الصفيح وستة ملاحين، وأحد عشر رجلاً يهودياً سيىء السمعة، وأنت تريد أن تقنع العالم بأن آلة الصفيح جزء من غنيمة الحرب القائمة ضد «عصابة اللصوص» التي سرقت أرضنا في الخامس من يونيو. والعالم يهز رأسه ويضحك ملء شدقيه الأبيضين، ويرثي لحالنا وحال يونيو. فالنكتة أسوأ من أن تحتمل، والمرء ـ يا سيادة الرئيس ـ لا يعاقب اللص بأن يسرق حذاءه من المسجد. فدعني أحدثك، ولا تقل قط إنني جاسوس يعمل لحساب إسرائيل، فأنا لا أخاف تلك التهمة، ولا أعرف اللسان العبري مثل بقية الرجال الذين صفقوا لك عندما قررت أن تحتفظ بآلة الصفيح. إنني أضع يدي وراء ظهري وأدعوك ـ عبر ضوضاء التصفيق الأخرق ـ إلى أن تطلق سراح تلك الطائرة، وتتركها تذهب إلى الجحيم.

(*) وجهت هذه الرسالة إلى الرئيس الجزائري آنذاك (هواري بومدين) في أعقاب احتجاز طائرة تابعة لشركة العال الإسرائيلية في مطار الجزائر صيف 1968 بواسطة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين).

اتركها تعد إلى أصحابها، لكي يغسلوها في مياه نهر الأردن يشربوا الغسيل، فمعركتنا يا سيادة الرئيس ليست مجردة لعبة شيرة بالمسدسات، وليست مجرد مطاردة هزيلة لآلات الصفيح، صغار الجواسيس، والقتلة، والوثائق السرية، ومضيفات الطائرات. ننا نملك مليون إنسان يخوض في الحزن والرمل على طول جبهة لقتال السوداء، وليس من حق أحد ـ أو من حقك أنت ـ أن ينقل للك الجبهة إلى دور السينما وأعمدة الكاريكاتير، عبر تشجيع لمغامرات الصغيرة وراء آلات الصفيح.

إسرائيل تقتلنا بالدبابات. وتلطخنا بالعار أمام العالم بأسره، وتطردنا من أرضنا وتحرق أطفالنا بجحيم النابالم، ونحن نواجه سرائيل بالخطط البائسة لخطف الطائرات المدنية معلنين لأصدقائنا وأعدائنا على السواء أننا أيضاً مجرد حفنة من اللصوص العاجزين. وتصدر الصحف في كل مكان. ويتناقل العالم القصة عبر موائد الإفطار، ويضحك ملء شدقيه الأبيضين من مهزلة اللصوص الأقوياء في تل أبيب، ومهزلة اللصوص غير الأقوياء على ضفاف نهر الأردن. فهل نحن أيضاً لصوص يا سيادة الرئيس؟ وهل نقول للعالم إن إسرائيل قد سرقت أرضنا، ثم نسرق طائرات إسرائيل؟ وهل من حق أحد أن يضع هذا السلاح الإعلاني القبيح في أيدي اليهود بالمجان؟ أنا لا أصفق لك.

إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك رغم إعجابي الشديد بصياغة خطبك.. فالنكتة أسوأ من أن تحتمل، وافتتاحيات الصحف هنا ـ بعيداً عن مكان السيرك عندكم ـ تمزق قلبي مثل أسنان منشار حاد. فهل تحب أن تسمع ماذا تقول الصحف؟ إنهم يطالبون بتعيين حارس خاص لكل سفير من إسرائيل، وتعيين حارس خاص لكل

عاملة تليفون، وكل طبّاعة، وكل عاهرة في إسرائيل. والصحف تقول لقرائها إن ذلك الإجراء أصبح ضرورياً جداً، بعد أن قرر مائة مليون لص عربي أن ينقلوا مسرح نشاطهم من الشرق الأوسط إلى أي مكان آخر تتوافر فيه «البضاعة».

صحف لندن تطالب شركات الطيران بتعيين حارس خاص «مدرب على قتال اللصوص العرب» لمرافقة كل طائرة إسرائيلية تضطر للاقتراب من «تلك السموات البلهاء المليئة بالمؤامرت والجبن».

رسامو الكاريكاتير في السويد ـ وهو بلد كان محايداً رسمياً على الأقل ـ يعملون الآن في إعداد مجلة خاصة «بحوادث الخطف المضحكة في الشرق الأوسط»، والعدد الأول يا سيادة الرئيس سيحمل صورتك وأنت تقود «عربة الترام» التي اختطفتها من تل أبيب. استوديوهات السينما في هوليود أعلنت بدورها أنها قررت إنتاج «فيلم كامل مليء بالبنات واللصوص عن حادثة خطف الطائرة الإسرائيلية» والفيلم سيقوم بتمثيله جيمس بوند نفسه، وسوف يكون ذلك المسخ الأخرق نداً لنا جميعاً، وسوف يستعيد الطائرة من الجزائر بمسدسه الذهبي.

صحيفة «هلسنكي سانومات» البلهاء تعلن الآن «لجميع الناس الطيبين الذين سفحوا دموعهم حزناً على مصير الأطفال العرب في خيام اللاجئين، أن يقرأوا حادثة خطف الطائرة المدنية ليعرفوا على وجه الضبط نوع العدو الحقير الذي تواجهه إسرائيل».

الحزن كأسنان المنشار يا سيادة الرئيس. وأنت تعرف ذلك أكثر، وتعرف أن فرنسا اختطفت طائرة رفاقك الخمسة ذات مرة، إننا دعونا ذلك العمل في صحفنا العربية «قرصنة لا حد لها»، وإننا

عملنا على استغلال الحادثة لمزيد من الدعاية، ومزقنا سمعة فرنسا بالنكات. ذلك يحدث لنا الآن. يحدث على نحو أوسع، وبطريقة أكثر رقياً وتنظيماً، فخبراء إسرائيل يحسنون اللعبة أكثر منا، ولديهم النقود وشركات الإعلان والسينما وقلب العالم الأبله. ونحن لدينا آلة الصفيح وستة ملاحين، وأحد عشر يهودياً سيىء السمعة، ومليون لاجىء يخوض في الحزن والرمل من مدينة السويس إلى دمشق المغلقة، ويحاول أن يعرض قضيته على العالم ويستدر عطفه عبر سجلنا الأخرق الذي بدأ بسرقة طائرة مدنية.

وصحفنا تصفق لك مغمضة العينين، فالرجال الكبار عندنا ما تزال تهزهم قصص المغامرات كما تهز الأطفال قصص طرزان، ومايزال الحزن كأسنان المنشار. فدعني أحدثك واضعاً يدي وراء ظهري: العمل الفدائي يحتاج إلى السمعة الطيبة أكثر من حاجته إلى التصفيق. وأنت ورفاقك تعرفون ذلك أكثر من سواكم، فقد قاتلتم سبع سنين بلا انقطاع، وواجهتم أسوأ أنواع الأعداء في الفرقة الأجنبية، وواجهتم قطعان اللصوص والمتشردين من موانىء مارسيليا إلى موانىء نيويورك، ولم تحاولوا قط ـ رغم مليون شهيد من الأبرياء ـ أن تقاتلوا أعداءكم بنفس السلاح القذر الذي يستعملونه ضدكم، ولم تخطفوا طائراتهم المدنية، ولم تذهبوا لمطاردة المضيفات في مطارات العالم. بل بقيتم في الجزائر، وضممتم جبال أطلس حجراً بعد حجر بأيديكم المخضبة بالدماء. وقد انتصرتم، وكان قلب العالم معكم.

ثم جاء الفيت كونغ، وواجهوا مثلكم أسوأ أنواع الجنود والأسلحة، واحترقوا بالنابالم ورؤوس الصواريخ السوداء، وطاردتهم طائرات الولايات المتحدة في كل مكان من مخابىء

الغارات في هانوي إلى تلال الأدغال المميتة حول سايجون، ولم يحاولوا قط ـ ولن يحاولوا أيضاً ـ أن ينقلوا ذلك المسرح المقدس المليء بالعرق والدماء إلى دور السينما وأعمدة الكاريكاتير عن طريق القصص المثيرة للأطفال.

الحزن كأسنان المنشار يا سيادة الرئيس، والعمل الفدائي لا ينهض فوق كوم القصص البوليسية والأضواء وافتتاحيات الصحف والمصفقين. إنه ـ مثل الصلاة بالضبط ـ عمل يقوم على التركيز وحده، ويتجه لتأدية أهدافه من أقصر طريق ممكن وفي وسط الهدف بالضبط. فماذا فعلت آلة الصفيح لقضية اللاجئين؟ وماذا أثبتنا نحن من وراء هذه اللعبة سوى أننا ـ مثل إسرائيل ـ مستعدون للنهب ما دمنا نملك نصف فرصة. وما دام عدونا خالي اليدين من السلاح. الفرق الوحيد بين سرقات اليهود وبين سرقاتنا أنهم يفعلون ذلك بالمجموعات، ويجرون دباباتهم القاتلة لتوفير الحماية أمام عمليات النهب، ويحرقون صاحب البيت بالنابالم ويغرقونه في خليج العقبة ويعودون بالغنائم في وضح النهار. أما نحن فإنّا نفعل ذلك بآلات الصفيح ومضيفات الطائرات وعجائز الطليان الذين يذهبون لقضاء إجازاتهم في بيت المقدس. وبقي أن نخطف عاملات التليفون في سفارات إسرائيل، وسائقي عربات السفراء اليهود، وفريق كرة السلة الذي سيسافر إلى لندن خلال هذا الشهر، ونقول للعالم إنهم يملكون وثائق سرية في حقائبهم، وأن سلامة اللاجئين تحتم علينا أن نحصل على تلك الوثائق.

الحزن كأسنان المنشار يا سيادة الرئيس.

وافتتاحيات الصحف والعالم الأبيض الشدقين، نالوا كل ما كانوا يبحثون عنه لتشويه سمعة الكفاح العظيم الذي يقوم به

شعب فلسطين الحقيقي.. إن إسرائيل قد أعطتنا آلة صفيح، وأخذت منا قلب العالم مرة أخرى.

فلا تدعهم يخدعونك يا سيادة الرئيس.. ولا تدع ضوضاء التصفيق تطغى على صوت ضميرك.. أترك تلك الآلة تذهب إلى الجحيم، وقل لإسرائيل أن تغسلها في مياه الأردن وتشرب ماء الغسيل، فنحن لدينا مليون إنسان مشرد يحتاج إلى سمعته أمام محاكم العالم، ولدينا دموع نهر الأردن..

1968

إحنا والقمر لم نعد جيران

المطر في بيروت، مثل السياسة، مجرد كارثة تسقط عبثاً من السماء، والمساء يقطر بالملل وفتاة البار قبيحة كالجحيم، والويسكي أيضاً قبيح. والجو هنا مشبع برائحة التبغ والأحذية المبلولة.

موشى دايان أحرق المطار. هذا نبأ العام الممل، والزبون الأصلع الذي يجلس بجانبي أنفق كل نقوده في شراء العرق ثم نسي ولاعتي في جيبه وبدأ يستعد للخروج معلناً أنه يريد أن يشارك في المظاهرات، وفتاة البار تحاول أن تلفت انتباهي إلى اختفاء الولاعة، وأقول لها دعيه يأخذها معه. أنا أريد أن أشارك في المظاهرات بولاعتي على الأقل.

ـ شو؟

ـ قلت لك دعيه يأخذ الولاعة معه. إن المرء لا بد أن يشارك في المظاهرات الحالية بطريق أو بآخر.

ـ ولكن أين المظاهرات؟

ـ لا أدري. أعني أن ذلك ليس من شأني على أي حال.

وتنحني الفتاة القبيحة إلى الأمام وتقول ببلاهة: أنت أعطيتها له؟

ـ لا..

ـ شو.

ـ أنا لم أعطه شيئاً. إنه مجرد مواطن لبناني في حاجة إلى ولاعة لكي يشارك في المظاهرات.

وتمنحني الفتاة ابتسامة تشبه ورقة العملة القديمة، فيما يجمع الزبون الأصلع حاجياته وينطلق عبر الباب ببطء يثير الهيبة. موشى دايان لا يعرف بالطبع أن أحد المواطنين في بيروت قد خرج لتوه ممتلئاً بالغضب لكي يشعل النار في جثته بولاعتي. وتفحصني الفتاة من ركن البار ثم تقول فجأة: هل نشرب نخب موشى دايان؟

ـ أجل.

ـ شو؟

ـ قلت لك، أجل، دعينا نشرب نخب موته. كم يساوي ذلك عندكم؟

ـ ست عشرة ليرة.

ـ هذا موت رخيص حقاً، دعينا نشرب نخب موته مرتين، أعني خمس مرات. اسمعي دعينا نشرب نخب موته إلى الأبد، كم يساوي البرميل عندكم؟

ويضع أحد الزبائن يده فوق كتفي، ويقول بازدراء: هل تريد أن تغرق موشي دايان في برميل من الويسكي المخلوط بالماء؟

ـ لا.

ـ شو؟

ـ قلت لك لا. أنا لا أريد أن أغرق ذلك الرجل الكريه في أي شيء. أنا أريد أن أغرق فتاة البار والزبائن فقط. هل أشتري لك كأساً؟

ويهز الزبون رأسه ويقول بازدراء أكثر: أنا لست في حاجة إلى برميلك المضحك، إننا جميعاً هنا لسنا في حاجة إليه، اسمع، موشى دايان بالنسبة لنا عدو فظيع يقف على باب دارنا، ونحن لا نريد أن ننساه بعد كأس من الويسكي. إننا نريد أن نقف على أقدامنا ونقاتله إلى آخر قطرة من دمنا.

ـ أجل.

ـ شو؟

ـ قلت لك أجل. هذا نبأ سار للغاية.

ويمشي الزبون إلى نهاية البار، ويقول مرة أخرى: نحن نريد أن نقف على أقدامنا ونقاتل عدونا الفظيع. إن ذلك لا يمكن إنجازه بالويسكي. لقد تعلمنا الدرس جيداً.

ـ تعني درس الخامس من يونيو؟

لا. أعني درس المطار. انتظر. أعني الخامس من يونيو والمطار معاً، فالواقع أننا تعلمنا في الخامس من يونيو أن إسرائيل في حالة عداء دائم مع بعض الشقيقات العربيات، ثم تعلمنا الآن أنها في حالة عداء دائم معنا أيضاً.

ـ هذا نبأ سار.

ـ شو؟

ـ قلت لك هذا نبأ سار يستحق أن نشرب نخبه. هل أشتري لك كأساً؟

واشترينا من الفتاة القبيحة كالجحيم قدحين مغشوشين بالماء المالح، وشربنا نخب المطار ثم شربنا نخب ولاعتي، وعندما ذكرني الزبون بأننا سنقاتل إلى آخر قطرة من دمنا شربنا نخب ذلك أيضاً. وفي نهاية المطاف سقطت فريسة للصداع، وقررت أن أخرج للفرجة على المظاهرات.

ليس ثمة مظاهرات في الخارج، تقول فتاة البار، ليس ثمة مظاهرات في العالم بأسره. إن الناس قد أقلعوا عن تلك العادة الرديئة التي لا طائل وراءها سوى إقلاق راحة الشرطة. اسمع. لماذا لا تبقى هنا معنا وتتركني أشاركك نخب موت موشى دايان؟

وأمشي عبر شارع البحر المزدحم بالأضواء والمطر وسائقي العربات الطويلة، أعني اللامتناهية الطول، الذين يسابقون الريح لأغراض الدعاية والفوز بإعجاب المارة الحفاة، ثم أهبط إلى الشاطىء لكي أنتظر الفتاة المتوسطة السمنة، أعني العاهرة المتوسطة السمنة التي قال عنها سائق عربة الأجرة إنها أحسن ممثلة في السوق، وإن والدها يملك نصف العمارات المقامة في العالم.

أنا ما زلت أملك ست عشرة ليرة ثمن الممثلة، وأملك حاجتي من الوقت لكي أشتري بعض الحب ثم ألحق الأوتوبيس الذاهب إلى الجبهة وأتفرج على قليل من الحرب الدائرة بين لبنان وإسرائيل، وأعود في المساء لألحق مظاهرات الساعة العاشرة. وقد طاف بذهني أول الأمر أنني قد أضطر للتنازل عن حصتي من الحب هذه الليلة نظراً لسوء الأحوال الجوية وعدم توقع وصول السيدة الممثلة في مثل هذا الوقت مقابل ست عشرة ليرة، ولكن الحب ـ في بيروت لا يفسده المطر.. إنه مصنوع بدقة تضاهي أفخر صناعة الساعات.

وقد جاءت السيدة المذكورة في الميعاد، وقبلتني بكبرياء يليق بالمقام، وحدثتني عن مشاكل الحياة في سويسرا. ثم ذهبنا إلى البيت وتبادلنا الحب بما مقداره ست عشرة ليرة. وكان في وسعي أن أغش الميزان وأقضي مزيداً من الوقت في المتعة والحديث عن سويسرا لولا أن السيدة انتقلت فجأة إلى الأحاديث المحلية، وبدأت تضع أمامي خطة شبه كاملة للقضاء على إسرائيل. وقد اضطررت أن أعتذر لها عن رفضي للخطة نظراً لعدم الاختصاص، ولعجزي المطلق عن أن أحرك جندياً واحداً من مكانه في الجبهات الأربع عشرة المفتوحة حالياً للحرب. ثم ودعتها عند الباب وتمنيت أن تموت قبل أن تجد الزبون القادم، فالواقع أن إسرائيل أيضاً تستطيع أن تحصل على الخطة مقابل ست عشرة ليرة. أنا ما زال في برنامجي أن أعود إلى المدينة، وأبحث عن الأوتوبيس الذاهب إلى الجبهة ولكني في الواقع لم أعد أرغب في الخروج، فالمطر في بيروت لا يحتمل، وكذلك عادات المرور والأحاديث السياسية المميتة التي تجري في البارات. ثم إن المرء يستطيع أن يتفرج على الجبهة في التلفزيون، ويشاهد الخيول العربية تدخل تل أبيب بقيادة الحاج محمد الكحلاوي في نشيد الساعة التاسعة، ويسمع اللاجئين يقرضون الأشعار الساخنة طوال فيلم السهرة وينام بعد ذلك هادىء البال دون أن تصيبه سيارة واحدة، ودون أن يسرق أحد ولاعته، فميزة البلدان السياحية أنها قادرة دائماً على إرضاء رغبات الزبون مهما كانت سخيفة دون خسائر تذكر.. أعني حتى إذا كان الزبون يريد أن يشاهد الجبهة، أو يريد أن يحرق المطار فإن البلدان السياحية قادرة دائماً على الاحتفاظ بزمام أعصابها، كما يفعل عمال البارات المهذبون في حالات القيء المتعمدة أو غير المتعمدة على السواء. وموشى دايان الأخرق لم يراع هذه الحقيقة

البسيطة. لقد استقبل عمال المطار لصوصه الفظيعين كما تعودوا أن يستقبلوا شحنة السواح القادمة من السويد، وهرعوا إليهم بالسلالم المزينة بأجنحة الأرز وبعض اللافتات. ولكن الإسرائيليين ذوي النوايا السيئة فضلوا أن يقفزوا بدون سلالم على عادة الرعاع وأشعلوا النار في أجنحة الأرز بطريقة أساءت إلى أصول السياحة في العالم بأسره.

إن الناس في إسرائيل لم يتعلموا خلال العشرين عاماً الماضية ما يكفي من الذوق لكي يستحقوا شرف الحياة في جوار لبنان. هذا واضح للغاية، وواضح أيضاً أن لبنان والقمر الحقيقي فقط جاران.

ويزحف الليل مغموساً في المطر وتتصاعد روائح الجثث المتعفنة على الحدود، ويطرق سمعك صراخ أطفال اللاجئين الذين يقضون كل ليلة مغموسين في المطر، ثم يصل الحاج محمد الكحلاوي ليغني نشيد الساعة التاسعة على ظهر حصانه الأبيض، ويستجدي النصر من جدران القدس، ويوزع البالونات الملونة على أطفال اللاجئين. فلا تبكوا قط يا أيها الصغار.

1969

منحة المعاناة

«.. قبل قيام إسرائيل بأربعة عشر قرناً نزل قوله تعالى:
﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾

المرء قد يوجعه ضرسه فجأة خلال الليل، فيدفن رأسه بين يديه ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويبصق على الأرض، ويشتم سوء الحظ الذي أصابه بالسوسة حتى يطلع الصباح، والمرء يتصور بالطبع أن ذلك الضرس مجرد كارثة خرقاء وأنه يحرمه من النوم عبثاً ويعمل على عقابه من أجل ذنب لم يقترفه متعمداً. فالألم يبدو دائماً بمثابة محنة لا طائل وراءها سوى إنزال العقاب بضحية المرض. ولكن ذلك في الواقع مجرد خرافة. فالألم لا يحدث في الضرس المصاب بالتسوس، ولا علاقة له بالعقاب أيضاً. إنه يحدث في المخ دفاعاً عن بقية الأسنان. ويحرمك من النوم لكي يجعلك ترى موضع الخطر، وليس بوسعك أن تغمض عينيك قبل أن تعمل على شفاء ذلك الضرس، ولكن ليس بوسعك أيضاً أن تحب حارسك الكريه.

إن الألم يحرس العالم لأنه صديقه اللدود. وبدونه يستطيع المرء أن ينعم بالنوم طوال الليل، ثم ينهض في الصباح ويكتشف أن الجرذان قد أكلت قدميه وبدونه يشم المرء رائحة جلده المحترق قبل أن يكتشف أنه يقف حافياً على موقد النار، وبدونه يبدو العالم

مجرد كتلة من المعتوهين المحكوم عليهم بالفناء. فمهمة الألم أن يدعو الكائن الحي إلى توفير الحماية لبقائه ضد عوامل التدمير، وعندما ينتهي ذلك الكائن، وتنضب منه الحياة، تنتهي مهمة الألم ويكف عن الحدوث. وذلك يعني أن الألم جزء من الحياة وليس جزءاً من الموت. وإنه يحدث لكي يحافظ على الحياة، لا لكي يسبب الموت، وإن بعض الأشياء الفظيعة التي قد يعتقد المرء أنه يكرهها من قلبه تحدث في الواقع لكي تمنحه فرصة البقاء.

وأنا أريد أن أقول إنه ليس كل شيء يحدث ضدك ويعمل على إلحاق الضرر بك، وإن إشارة المرور الحمراء تضيء أمامك وتعرقلك عن السير، ولكنها أيضاً تنقذك من حادث تصادم، وإن وجع الأسنان يحرمك من النوم ولكنه أيضاً ينقذ بقية أسنانك من التسوس.. وأن الله الذي خلق العالم على هذا النحو لم يفعل ذلك بالصدفة.

فالحياة حتى الآن تجربة للبحث عن الأفضل بدأت في كهف متواضع منذ بضعة آلاف من السنين وما تزال تأخذ طريقها في الشقق المفروشة بإتقان، وماتزال تواصل البحث عن الأفضل في كل اتجاه منذ اختراع الشمعة البدائية من شحم الخنزير البري إلى اختراع مصابيح النيون الكلية السطوع. والمرء لا يستطيع أن يتوقع قط أن هذه التجربة الهائلة تتم دائماً بنجاح دون أن تتورط في الخطأ.

فالخطأ من طبيعة التجربة. والأخطاء التي حدثت في هذا العالم في كل الميادين يستطيع المرء أن يراها تمشي في كتب التاريخ. والأخطاء مثل الأمراض بالضبط لا بد من شفائها أولاً قبل أن تواصل التجربة مجراها.. والأخطاء مثل الأمراض بالضبط تسبب

الألم وتحرم المرء من النوم لكي تجعله يرى موضع الخطأ القاتل. فدعوني أتجنب لهجة الحكماء المضحكة، وأحدثكم ببطء عن إسرائيل.

نحن في الشرق الوسط عشنا تجربة عظيمة ابتدأت بالضبط خلال الفتح الإسلامي وماتزال تأخذ طريقها بثبات حتى الآن. وقد حققنا كثيراً من النجاح في بعض الميادين، ولكننا أيضاً ارتكبنا مجموعة من الأخطاء التي طفقت تتراكم في طريقنا حتى أصبحت مصدر خطر حقيقي على بقائنا ذاته. وكما يحدث للفرد، حدث للأمة، وكما يعاني الفرد الآلام الناجمة عن أمراضه، عانت الأمة الآلام الناجمة عن أخطائها، وسقط الإنسان العربي فريسة المعاناة الطاحنة التي بدأت بسقوط الأندلس وما تزال مستمرة حتى الآن.

وكما يبدو الألم مجرد حارس كريه للفرد نفسه، بدت معاناة الإنسان العربي مجرد حارس آخر لبقائه وكما يدفع الألم الفرد إلى البحث عن علاج، دفعت المعاناة الإنسان العربي للبحث عن حلول. وكما يذهب الفرد أحياناً إلى الفقي لكي يشفيه من وجع الأسنان أو يذهب للطبيب لتأدية الهدف نفسه بطريقة أفضل فإن الإنسان العربي أيضاً وجد كثيراً من الحلول التي يبدو بعضها مضحكاً ويبدو بعضها الآخر أكثر جدوى. فالمقياس الحقيقي لمعالجة المرض ليس في الواقع علاج الجزء المصاب، بل إعادة الصحة إلى الجسد كله، سواء ببتر ذلك العضو أو حرقه بالنار، والمقياس الحقيقي لحل المشاكل القاتلة ليس مجرد مسحها بالممحاة بل خلق الجو المناسب لحلها ومنعها من تكرار النمو وبقدر قيمة العلاج يصل الشفاء.

وإسرائيل التي سلبت أرضنا ولطخت سمعتنا في العالم مجرد مرض في جسدنا والآلام التي نعانيها في الشرق الأوسط مجرد ظاهرة طبيعية لشد انتباهنا إلى ذلك المرض ودفعنا إلى البحث عن علاجه. فالأخطاء التي تراكمت في طريقنا زرعت فيه إسرائيل كما تتراكم الأطعمة الفاسدة في فم أي مخلوق وتسبب له تسوس الأسنان، والألم الذي نعانيه منحة عظيمة من الله تعمل على حماية بقائنا كما يعمل الألم العادي في مخ الفرد على حماية بقية جسده. ومادمنا نحس بالألم فنحن أحياء. وإذا فقدنا الإحساس به ذات يوم دون أن نتخلص حقاً من أمراضنا فإن ذلك لا يعني شيئاً سوى أننا متنا دون أن ندري.. فالمعاناة لمشاكل أمتنا هي الدليل الوحيد على إحساسنا بالحياة، وهي أيضاً المنحة الحقيقة التي لا يجوز قط أن تعمينا آلامها عن إثبات وجودنا.. فنحن نحس الألم تجاه ما تفعله إسرائيل، ونحن نعرف أن ذلك مرض نجم عن أخطائنا الخاصة. والمرء عندما تتوفر له الحقائق عن إصابته بالمرض يذهب دائماً للبحث عن العلاج. وهذا بالضبط ما تفعله الأمة العربية في الشرق الأوسط. إنها تبحث عن علاج، ويذهب بعضها إلى الفقي لكي يكتب له حجاباً، ويذهب بعضها إلى الطبيب المختص، ولكنها جميعاً تبحث عن علاج وسوف تجده ذات يوم وتزول إسرائيل.

إن ذلك بالنسبة لي حقيقة واقعة مثل إسرائيل نفسها، فأنا أعرف بطريقة لا تحمل ذرة واحدة من الشك أن الألم لا يحدث في العالم بدون هدف، وأن الألم الذي تحدثه إسرائيل للأمة العربية لا يمكن أن يؤدي في النهاية إلاّ إلى زوال إسرائيل لأنها جزء مصاب بالمرض والفلسفة في جسد الإنسان نفسه، ولأنها لا تستطيع أن تصلح مناهجها وتصبح دولة إنسانية دون أن تنهار على

رؤوس أصحابها الذين قرروا أن يفصلوها ـ مثل بدلة السهرة ـ على جسد الإنسان اليهودي الصهيوني وحده.

ولكن ذلك لن يحدث الآن. وإذا استطاعت القوة العسكرية العادية أن تجعله يحدث، فسوف تصاب أمتنا العربية بمرض آخر قد لا يكون أفضل من إسرائيل، فعلاج المرض لا يتم دائماً بمجرد أن يقلع المرء الجزء المصاب. إنه يتم فقط عندما يقلع المرء الجذور ويعطي الجسد حاجته من الصحة للمقاومة. وجسد الأمة العربية لا يشفيه زوال إسرائيل. فهي مجرد قرحة على الجلد لمرض آخر في الداخل يستطيع دائماً أن يخلق مزيداً من القروح. إنها مجرد ظاهرة خاصة عن طبيعة مرضنا، ونحن لا يجوز أن نحس بالخلاص إذا استطاعت قواتنا العسكرية غداً أن تهدم إسرائيل. إن ذلك لن يعني سوى أننا قطعنا قرحنا الكريه بسكين ونسينا طبيعة المرض من الداخل.

وذلك بالضبط ما فعله صلاح الدين. لقد طرد الصليبيين من بيت المقدس لأنهم أيضا كانوا مجرد قرحة على الجلد، ولكنه لم يستطع أن يشفي أمته من المرض الخفي الذي دمرها كلية في نهاية المطاف، وجعلها تسقط مرة أخرى في أيدي الصليبيين. لقد استردت الأمة العربية فلسطين بقوة السلاح وحدها، وقطعت القرح المؤلم بمطواة حادة، ولكن المرض الداخلي كان دائماً قادراً على خلق مزيد من القروح، وقد فعل ذلك في نهاية المطاف وفقدت الأمة العربية فلسطين، وفقدت أيضاً بقية أراضيها وعاشت تحت نعل الغزاة لكي تبدأ من الصفر.

والإنسان قد يكرر خطأه مرتين، وقد يذهب غداً ليشن هجوماً خاطفاً على القرح المتعفن في إسرائيل، ويعود حاملاً راية النصر

على حصانه الأبيض. ولكن النتائج النهائية ستظل دائماً رهناً بحقيقة ذلك النصر فإذا كان الأمر مجرد انتصار عسكري محض فإن القروح ستخرج في مكان آخر، وإذا كان نصراً من الداخل خلقه العلاج الصائب لموطن الداء نفسه فإن القروح ستغيب.

وليس ثمة أحد بوسعه أن يغير هذه الحقائق، وليس ثمة أحد بوسعه أن يزيفها أو يطليها بالألوان في افتتاحيات الصحف أو يعيد صياغتها على هواه في تعليق الإذاعة. إن المرض لا يشفي إلاّ إذا لقي العلاج الحقيقي، أما إذا أعطيته مهدئاً، أما إذا زيفت طبيعته في الصحف، أما إذا وقفت على رأسك وتظاهرت بالصحة، فأنت في الواقع لا تخدع أحداً سوى نفسك. وسوف تفضحك القروح المتعفنة. فدعونا نتجنب لهجة الحكماء المضحكة، ودعونا نتحدث عن أنفسنا. نحن أمة مريضة، والدليل القاطع على ذلك أننا نحس بالألم، وأننا مصابون في فلسطين. ولكن ما هو مرضنا بالضبط؟ وما هو مصدر الألم؟ ولماذا أصبنا في فلسطين؟ الإجابة غير متوفرة، وأنا أعرف أن ذلك يبدو مدهشاً ولكنه في الواقع مجرد حقيقة أخرى. إن أحداً لا يستطيع أن يعرف موطن المرض إلاّ إذا أخبره المريض نفسه، ووضع إصبعه على المكان المطلوب بالضبط. وفي العادة يتكلم المريض في عيادة الطبيب. وفي العادة أيضاً تتكلم الأمم في صحفها وتضع إصبعها على موطن الداء وتعلن بصوت عال أن الألم الحقيقي يأتي من هنا، ولكن الأمة العربية لا تقول شيئاً في صحفها يمكن أن يشير إلى طبيعة المرض الذي تعانيه.

إن كل الصحف عندنا في كل الدول العربية، تبدو سعيدة وممتلئة بالعافية، وهي تخلو كلية من الشكوى فيما عدا بالطبع الشكوى من إسرائيل وبعض موظفي البلدية. فأين المرض؟ أعني

كيف جاءت إسرائيل؟ أعني كيف نشأ الألم الناجم عن قرحنا المتعفن في فلسطين. نحن نعرف عينة المرض فقط ولكننا لا نعرف المرض نفسه، وذلك بالضبط يشبه أن يذهب المريض إلى عيادة الطبيب، ويقول له انظر يا سيدي أنا سعيد وممتلىء عافية ولكني مصاب باصفرار الوجه دون أن يذكر له بالطبع أنه في الداخل مصاب بالسرطان.

والأمة العربية مصابة بمرض من هذا النوع، ولكن المرء لا يستطيع أن يكتشف طبيعته على وجه الضبط قبل أن تتكلم الأمة العربية نفسها. فاقرأوا صحفكم. اقرأوها من اليمين إلى الشمال ومن أعلى إلى أسفل واقرأوها مقلوبين على رؤوسكم وسوف لن تجدوا فيها شيئاً سوى المريض السعيد الممتلىء عافية.

1969

في المزاد العلني

«... وإذا قتلت إنساناً دون أن تحمل جثته إلى بيتك
لكي تقتات بها العائلة بدل شراء اللحم بالدين من الجزار،
فأنت في الواقع قاتل مبذر..»

.. وفي كل يوم تركع المناضلة «فاطمة برناوي» على أرض المعتقل القائم في وسط الطريق بين تل أبيب وبين مدينة بيت المقدس وتقول لحبات الرمل: الله أكبر يا حبات الرمل. وتدب الصلاة في جدران الزنزانة وفي عروق الأرض مثل نهر خفي بعيد الغور، وينحني سياج المعتقل ويتثاءب الحراس ويبدأ النهار في بيت المقدس وفي مدن العالم الأخرى بتقديم القهوة وموجز الأنباء. ثم تفتح الأمم المتحدة أبوابها ويحمل الكناس حصيلة البارحة من الأوراق الرسمية إلى علبة القمامة ويضع جرس المزاد على منضدة الرئيس، ثم يبدأ المزاد. إن المرء يستطيع بالطبع أن يجد كلمة أخرى، ولكن كلمة المزاد.. أيضاً ليست سيئة. ثم إن طريقة الأمم المتحدة في نقاش قضية الشرق الأوسط لا بد أن تذكرك بالمزادات الصغيرة التي تقام عادة في ميدان البلدية لبيع تركة أحد الموتى من قطع الموبيليا. فالناس هناك ـ أعني في الأمم المتحدة ـ يصلون إلى السوق دون أية تحديدات سابقة لأسعار البضاعة.. إنهم يفضلون أن يعرضوا القضية على المتفرجين، ويتركوهم يقولون لهم آخر

كلمة لديهم، أعني آخر سعر، ثم يرسو المزاد على الزبون الذي يقدم أكثر من سواه.

واللعبة المخجلة من الداخل، أن أحداً في الأمم المتحدة، لا يملك منطلقاً واضحاً غير قابل للمساومة تجاه إسرائيل أو اللاجئين.. فالمرء ينتظر أفضل فرصة ممكنة بغض النظر عن فكرة العدالة لكي يجد حلاً أكثر قبولاً من سواه، وإذا قررت الدول العربية غداً أن تعقد معاهدة صلح مع إسرائيل وتترك اللاجئين لمصيرهم، فإن الأمم المتحدة لن تتردد لحظة واحدة في اعتبار المشكلة منتهية، وتحتفل أيضاً بالمناسبة على نفقة إحدى شركات الويسكي التي تتبرع عادة بمنتجاتها لحفلات السلام بحثاً عن قليل من الدعاية.

فالمرء يريد أن يستريح من وجع الدماغ، ذلك يحدث في المزادات الصغيرة وفي الأمم المتحدة أيضاً على حد سواء، لأنه ليس ثمة إنسان هنا يهمه حقاً أن يحمل مبدأه فوق كتفه ويعبر به تلال أورشليم لكي يصلب فوقه عارياً لمجرد الدفاع عن فكرة العدالة. إن الذين فعلوا ذلك وقفوا جميعاً خارج الأمم المتحدة من المسيح إلى جيفارا وياسر عرفات والفيت كونغ.

وإذا كانت الصحف العربية الهائلة الإمكانيات قد نجحت دائماً في إغراء العالم بالأفكار المتمثلة في ميثاق حقوق الإنسان الصادر رسمياً من الأمم المتحدة، فإن الملاحظ بطريقة خالية من الغموض أن ذلك الميثاق ـ والصحف الغربية أيضاً ـ وقفا على الدوام ضد الإنسان، الباحث عن حقه، في عناد لا يمكن تفسيره بأنه مجرد صدفة.. وقد وقفا ضد شعب كوريا الشمالية وضد شعب الصين وفيتنام وفلسطين، وعملا معاً ـ في تعاون يثير الشك ـ على تشويه

قضايا النضال الإنساني البسيط، واتهامه بالانحراف في أي اتجاه تأتي به الصدفة.

ولعله مما يبعث على خيبة الأمل أن يلتفت المرء إلى الوراء فجأة ويكتشف بعيني رأسه أن المنظمة الدولية التي تبرعت بالعمل لحل مشاكل الصراع العالمي، منذ نهاية الحرب الماضية، لم تضم قط تحت قبتها الفاتنة المغطاة بالمرمر سوى أصحاب معاطف الفراء. أما عراة الأجساد فقد ظلوا يقفون في المطر عبر سهول ديان بيان فو وكوريا الشمالية والجزائر وأدغال فيتنام وفلسطين، وظلوا يموتون بالنابالم وشتائم الصحف الغربية وقصائد الشعراء الإنسانيين على أرصفة نيويورك.

إن الأمم المتحدة قد وقفت دائماً بجانب الإنسان، هكذا تبدأ الخرافة البيضاء، ولكن ذلك الإنسان لم يكن قط غير أبيض الجلد، ولم يكن أبداً عربياً أو مسلماً أو من منطقة الشرق الأوسط، وهذه النقطة يمكن نقاشها من أية زاوية يقع عليها الاختيار دون أن تتعرض لحظة واحدة إلى الشكوك، ولكني هنا أريد أن أعرضها للنقاش من أكثر الزوايا عتمة في العالم.. من المعتقل القائم في وسط الطريق بين تل أبيب وبين بيت المقدس حيث تسقط المناضلة «فاطمة برناوي» كل يوم على وجهها، وتقول لحبات الرمل الله أكبر يا حبات الرمل. فالأمم المتحدة والصحف الغربية وطلاب الجامعات الممتلئون بالحكمة إلى أفواههم الذين لا يكفون عن صناعة المظاهرات الصاخبة من أجل إسرائيل يعرفون جميعاً ـ وبطريقة لا تقبل الجدل ـ أن المرء لا يستطيع أن ينطلق من نقطة واضحة حقاً عندما تجره عواطفه البسيطة التركيب لكي يخرج للتظاهر ضد امرأة تدفن وجهها في أرض المعتقل وتتحدث مع الله.

إن ذلك لا بد أن يظل إلى آخر مداه مجرد نوع من الكره الأعمى غير العاقل الذي لا يصدر من منطلق واضح، والمرء يستطيع بالطبع أن يجد حاجته من الأعذار المعقدة، ويستطيع أيضاً أن يفترض أن الوقوف بجانب إسرائيل ضد شعب جائع حافي الأقدام عادة يومية ـ مثل عادة التدخين ـ لا تحتاج إلى منطق معين، ولكن هل بوسع أحد في الأمم المتحدة أو في الصحف الغربية أن يتجنب الوقوع فريسة الإحساس بالتفاهة عندما يأوي إلى فراشه في نهاية المطاف ويكتشف أن ما فعله طوال النهار، أنه بات يدمن الكره إلى جانب إدمانه للتدخين؟؟

فالمنطق لا بد منه لكي تموت أو لكي تعيش، والصحف الغربية التي تريد أن تفترض أنها تقف بجانب إسرائيل ضد الدول العربية، وليس ضد اللاجئين، لا بد أن تواجه ـ أمام نفسها على الأقل ـ الحقيقة القائلة بأن الدول العربية أيضاً مجرد احتياطي في الشرق الأوسط لمزيد من اللاجئين. وأن نقطة الصدام لا تتمثل في معارك الحدود الحالية بل في المعارك المتوقعة حول الحدود القادمة في العام التالي أو العام الذي يليه.. وأن المرء لا يدفن وجهه في أرض المعتقل ويتحدث مع الله لأنه يريد أن يقتل اليهود، بل لأن اليهود يريدون أن يقتلوه.

الصحف الغربية والأمم المتحدة والطلاب المدهشون الذين يمتلئون بالحكمة والمربى لا بد أن يواجهوا حقيقة الموقف في لحظة ما من لحظات النهار.. على الأقل عندما يضطر أحدهم إلى الجلوس وحده في المرحاض ويكتشف أن ضميره لم يبق وراء الباب. والمرء يتوقع عندئذٍ أن يحس ذلك المخلوق بأن بعض الأشياء التي يحملها الإنسان في داخله قد لا تجد مكاناً أفضل من أنبوبة

المجاري، وأن فكرة الأمم المتحدة والصحف الغربية عن قضية اللاجئين تدخل في ذلك النطاق.

فالمعركة في الشرق الأوسط ـ رغم ما حدث فيها حتى الآن ـ ماتزال مجرد كلمة واحدة. إنها معركة بين امرأة تدفن وجهها في أرض المعتقل وبين رجل ينظر إلى العالم بعين واحدة، ومهما قالت المظاهرات بعد ذلك وقالت الصحف الغربية والأمم المتحدة يذهب إلى المرحاض. فالسياسة لا يجوز أن تفسد مبادىء العالم. والمرء ـ منذ البداية ـ لا يستطيع أن يفترض أن ثمة إنساناً يستحق القتل لأي سبب من الأسباب أو تحت أية ظروف إلاّ إذا كان ذلك الإنسان نفسه يؤمن بالقتل. ومادمنا لا نتغذى على لحم بعضنا، كما نتغذى على لحم البقر ـ فلا بد أن المبرر الوحيد لأن يقتل أحدنا الآخر هو أن يكتشف أنه لا يملك فرصة لمواصلة الحياة بجانبه، ذلك يعني أن يكتشف أنه مثل الحية السامة يحمل شيئاً قاتلاً بداخله.. يحمل فلسفة. والصهيونية فلسفة. إنها لا علاقة لها بالدين اليهودي أو الأديان الأخرى، ولا علاقة لها بالأجناس أو الأراضي.. إنها مجرد فلسفة تستطيع أن توجد في أي دين وفي أي مكان.. وقد وجدت ذات مرة في مدينة ميونيخ ووجدت في مدينة روما وتوجد الآن في تل أبيب. وقد دعاها أحدكم ذات مرة نازية، ودعاها أيضاً فاشية، وندعوها نحن ـ بلغتنا البسيطة الإمكانيات ـ إسرائيل، ولكننا نعني في الواقع أكثر من ذلك قليلاً.

فنحن لا نملك فلسفة في الشرق الأوسط، إننا ندفن وجوهنا في أرض المعتقل ونتحدث مع الله. والله ليس فلسفة، ولا يتبع أحد الأديان دون سواه، أو أحد الأجناس دون سواه، أو تحد أرضه بوابة عسكرية.. الله يضم العرب واليهود معاً، والصهيونية لا تضم سوى

اليهود.. والله يقول إن الناس سواء، والصهيونية تقول إن سكان إسرائيل هم شعب الله المختار والباقي ليسوا مختارين. والله يريد أن يرفع الاضطهاد عن كل إنسان، والصهيونية تريد أن ترفع الاضطهاد عن الإنسان اليهودي وحده بالذات حتى إذا اضطرت إلى دفع الثمن بجثث الآخرين، والله يقول إنه ينزل المطر في أرض فلسطين لكي يزرعها الإنسان، والصهيونية تقول: إنه ينزله لكي يزرعه اليهود وحدهم في حراسة دوريات الحدود، والله محبة، والصهيونية محبة اليهود وحدهم، والله مبدأ الإنسان، والصهيونية مبدأ الحزب.. والله أكبر وحبات الرمل تعرف ذلك. فماذا يستطيع محررو الصحف الغربية أن يفعلوا عندما يضطرون لمواجهة ضمائرهم في لحظة ما من لحظات الخلوة بالنفس. على الأقل داخل المرحاض؟

إنهم يقنعون أنفسهم بأنهم في الواقع يقفون بجانب شعب إسرائيل الصغير ضد مائة مليون عربي مصنوع من الفولاذ.. ويقنعون أنفسهم بأنه ليس من العدل أن يتشرد اليهود في العالم ويواجهوا الاضطهاد والعنت ثم يتجمعون في فلسطين ويواجهون مذبحة بالجملة، ويقنعون أنفسهم بأن الإنسان اليهودي يملك الحق كاملاً في أن يعيش بسلام إلى آخر لحظة من عمره.. ويقنعون أنفسهم بأن العرب الذين ينكرون هذه الحقائق البديهية من ميدان الأمم المتحدة لا بد أن يقبلوا ذلك بالقوة.

فمن ينكر ميثاق الأمم المذكورة أعلاه حقاً؟ الله أم الصهيونية؟ مبدأ الإنسان أم مبدأ موشى دايان الذي ينظر إلى العالم بعين واحدة؟ ومن يحمل قارباً أكثر اتساعاً؟ الربان الذي يريد أن يحمل جميع الغرقى أم الربان الذي جاء لالتقاط ركاب الدرجة الأولى

وحدهم، وشتم الآخرين في الصحف الغربية؟ ومن يرغب في القتل؟ الذي فقد فرصة الاختيار ولم يعد أمامه سوى أن يقبلك معه في بيته؟ أم الذي يعلن لك أسفه لأنه مضطر لقتلك نظراً لعدم حصولك على شهادة ميلاد يهودية؟ من؟ الذي يقول دعنا نعش معاً، أم الذي يقول إنه لا يستطيع أن يعيش معك لأنك لست من شعب الله المختار..؟ من؟ هل يعرف المرحاض؟ هل تعرف الأمم المتحدة المذكورة أعلاه، والصحف الغربية التي تفوح بروائح الفلسفة الإنسانية البيضاء الجلد.. وهل يعرف طلاب الجامعات؟

إن الأمر يدعو إلى الأسف.. فالإنسان مايزال في حاجة إلى بضعة قرون أخرى لكي يتعلم عدم الوقوع فريسة عواطفه البسيطة التركيب.. والعالم في حاجة إلى مزيد من المعرفة.. إنه في حاجة إلى معلم كل يوم.. فانظروا ما يحدث: في كل يوم تركع المناضلة «فاطمة برناوي» على أرض المعتقل القائم في وسط الطريق بين تل أبيب وبين بيت المقدس وتقول لحبات الرمل: الله أكبر يا حبات الرمل.. وفي كل يوم يصلب معلم في أورشليم.

1969

ركاب الدرجة الأولى

«.. إسرائيل نبات بري عديم الفائدة يغزو حقول الشرق الأوسط هذه الأيام نظراً لغياب الفلاحين..»

وإسرائيل دولة مفلسة فكرياً إلى حد يدعو إلى الرثاء، إنها لا تملك شيئاً تقدمه لإنسان العصر القادم المليء بالأفكار والتجارب سوى أن تضع فوق ظهره نجمة مسدسة مثل بقية المنتجات المحلية وتقول له إنه ابن الله، وإنه يستطيع أن يثبت ذلك بشهادة البلدية.. ثم تجره إلى رمال النقب لكي يزرع الأرض ويدفع الضرائب ويعيش فوق المزرعة مع بقية الأبقار، حتى يكتشف ذات يوم أنه وحيد، وأن انتماءه إلى الله مباشرة قد حرمه من انتمائه لهذا العالم البسيط، وأن الحياة في المزرعة وحدها لا تكفي، ثم يكتشف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاه عزلته المفجعة في رمال النقب إلاّ إذا قرر أن يعبر السياج ويمد يده لجيرانه باعتباره لم يعد راغباً في استغلال قرابته من الله ضد اللاجئين البسطاء.

إنسان العصر القادم لا بد أن يعبر سياج إسرائيل، لأنها دولة مفلسة فكرياً، ولأنها تجربة غير خصبة عاناها العالم بوضوح صاعق في ألمانيا النازية ودفع ثمنها بالجثث ولم يعد بوسعه أن يرى فيها سوى العقم المخلوط بقليل من الفلسفة المحلية، فإذا ألقى موشى

دايان إحدى خطبه المثيرة أو إحدى قنابله الأكثر إثارة وضج المسرح بالتصفيق فإن ذلك لا يعني أن لعبة موشى دايان في إسرائيل لعبة مقبولة. إنها ـ في الواقع ـ مجرد مشهد من مشاهد العنف، أعني مثل وصول طرزان فجأة لذبح قطيع من العبيد المتوحشين، والصالة ـ عادة ـ تضج بالتصفيق، ولكن معظم المصفقين من الأطفال... فالرجال الناضجون يلتزمون جانب الوقار ريثما تكبر الحقيقة القائلة بأن طرزان وموشى دايان معاً ليسا في الواقع أفضل من أي عبد متوحش.

والحقائق تكبر كل يوم، إنها ـ مثل الناس ـ تحتاج إلى عنصر الوقت وتولد لكي تكبر وتساهم في بناء العالم، ثم تخلي مكانها على الفور بمجرد أن يصل جيل آخر أكثر قدرة على البناء، وقد ولدت فكرة إسرائيل منذ بضعة آلاف عام، وأصبحت عجوزاً مجنونة وصنعت كل الرجال المجانين من هتلر إلى موشى دايان، ولم يعد بوسعها أن تواصل خداع أحد سوى رواد الأفلام المثيرة، وحفنة من قصار النظر الذين يضعون فوق عيونهم خرقاً سوداء.

أما العالم المفتوح العينين فإن أفكار العنصرية البلهاء لا تستطيع خداعه، إنها تخسر معركتها معه كل يوم رغم خيانة الأمم المتحدة ورغم نشاط الصحف الغربية الطائشة في تشويه سمعة المقاتلين. وإسرائيل المجنونة اختارت أن تجلس تحت المقصلة، وليس بوسع أحد أن ينقذها من الموت خلال هذا القرن أو القرن الذي يليه. إن المقصلة ستسقط بمجرد أن تكبر الحقيقة القائلة: إن الإنسان لا يمكن حشره في سجل البلدية أو دفتر الكنيسة أو لون جلده الخارجي أو مسقط رأسه، لأن ذلك يحدث فقط لأسماك السردين التي توضع داخل علبة ويكتب المرء فوقها أنها نتاج محلي، وأنها

تحمل العلامة التجارية المتميزة عن بقية مصانع علب السردين، أما الإنسان فإنه لا يوضع داخل علبة، إنه يختنق في الداخل ويموت ـ مثل سمكة السردين بالضبط ـ مع مراعاة أن الإنسان الميت ـ بعكس سمكة السردين ـ لا يمكن أكله أو بيعه، إنه يفقد كل قيمته بمجرد أن يموت ويصبح عبئاً لا بد من حمله إلى المقبرة.

إسرائيل تحكم على نفسها بالموت داخل علبة معدة للأسماك فقط، إنها ـ مثل أي مرض آخر ـ تسعى إلى تدمير بقائها ذاته كلما امتدت إلى بقعة جديدة، فالقانون العظيم الذي لا يمكن تغيير مجراه يجعل الأهداف النهائية لأي عنصر شرير أن يدمر نفسه في نهاية المطاف، فالسرطان يدمر الجسد لكي يدمر نفسه أيضاً. والنار تأكل الخشب لكي تتحول إلى رماد، والمبادىء الرديئة تأكل الإنسان لكي تموت بالجوع على أشلاء جثته.

إن الأمر غاية في اليسر، فليس ثمة عنصر في العالم يستطيع أن يواصل البقاء على حساب عنصر آخر، دون أن يتعرض بدوره إلى الفناء، والفلسفة التي تعتبر أحد الناس أفضل من الآخر لا بد أن تتورط في الصراع، ولا بد أن تتطور مثل مرض السرطان بالضبط الذي يختار عضواً معيناً في الجسد ثم يضطر لتدمير كل الأعضاء حتى ينهي بقاءه ذاته.

وإسرائيل تفضل اليهود على بقية الناس، وتريد أن يعيش اليهود على حساب سكان فلسطين، وإسرائيل لا تستطيع بأي حال من الأحوال أن تتجنب الصراع مع الجبهة الممتدة على طول الخط المقابل حيث تتجمع الخيام المزدحمة بالرجال الذين لا تعتبرهم إسرائيل من أبناء الرب، وعندما يبدأ الصراع لا يمكن أن ينتهي بدون حل حاسم، لأنه سابق على البقاء ذاته، ولأن الطرف الآخر

لا يملك فرصة الاختيار. إن عليه أن يموت داخل خيمته الممزقة أو يموت على خط النار الحافل بالتجارب المشجعة. والطرف الآخر لا بد أن يختار القتال، لأن أحداً لا يستطيع أن يجلس في انتظار الموت دون أدنى حراك، ولأن إسرائيل لم تعطه فرصة أفضل للنجاة، والفلسفة التي لا تستطيع أن تخدم اليهود إلاّ إذا طردت غير اليهود من بيوتهم لا بد أن تظل نوعاً من المرض الخبيث المسبب للآلام، والذي ليس بوسعك أن تواصل الحياة معه، ليس بوسعك أيضاً أن تفعل حياله شيئاً سوى أن تستأصله أو تتركه يقتلك. وإسرائيل لا بد أن تموت لأنها فلسفة تسبب الآلام في جسد الإنسان، ولأن الإنسان تعود دائماً أن ينتصر على أمراضه في نهاية المطاف. فهل ثمة أحد لا يستطيع أن يرى ذلك رأي العين رغم خيانة الأمم المتحدة؟

إن الأمر غاية في اليسر، فالنكسة التي حدثت في إسرائيل تنتصب بثبات أمام العالم بأسره لكي تذكره بالفجائع السابقة في سجله الحافل، والمرء لا يجوز أن يفترض أن خيانة الأمم المتحدة قد صدرت نتيجة لعدم وضوح الرؤية، فالواقع أن العالم يعرف بالضبط ما يحدث في إسرائيل، ولكنه لم يتعلم حتى الآن مدى قبح هذه المعرفة البذيئة، ولم يكف عن خيانتنا في الأمم المتحدة.

ولكي يتعلم الطفل شيئاً لا بد أن يحمله إليه المدرس، ولكي يتعلم العالم شيئاً لا بد أن يحمله إليه الإنسان على جثث الضحايا والآلام والخيام الممزقة والتجربة الكلية النضج، والإنسان في الشرق الأوسط يؤدي هذه المهمة على خط النار حول إسرائيل وفي الضفة الغربية وأزقة المدن الترابية الموحشة مقيد القدمين، إنه يخوض حرباً كاملة مزينة بالأناشيد وقنابل النابالم، ويقف أمام مكتبة التاريخ

لكي تحصي هزائمه بالنكات الرديئة، ولكن أحداً لا يرى أنه مقيد القدمين.

فوجود إسرائيل في المنطقة ليس مجرد صدفة، إنه مثل وجود الأعشاب البرية في المزرعة المهملة، عمل طبيعي يحدث في العالم بصورة تلقائية، ومزرعة الفكر المهملة في الشرق لا بد أن تغزوها الطحالب والصهيونية. إنها لا تستطيع أن تتجنب ذلك ما دام المزارع مقيّد القدمين، وما دام الإنسان يعيش في الشرق الأوسط ليقرأ سيرة الزناتي المدهش. فالركود الفكري الذي غمر المنطقة منذ بداية العصر الحالي سلب الإنسان العربي قدرته على المشي، لقد أعطاه كل شيء معد للاستعمال وتركه يموت بالبهاق في مباراة السيجة. أعطاه الجنة والمجد والتفوق في صياغة الأشعار ودفتر الأنساب المزيفة، وتركه يجلس في الظل. وقد جلس الإنسان العربي هناك بضعة قرون تحت إشراف الشرطة المحليين والأجانب. ونسي بفعل الوقت حقه في الشكوى وفي النقد ثم نسي حقه في المساواة، وعندما طالت اللعبة نسي أنه إنسان وطفق يبني قبور الأولياء ويتمسح بالحجارة وأحذية الموظفين وببيع النفاق في قصائد الشعر، والمرء لا يستطيع أن يتصور مكاناً أفضل لتجربة الصهيونية من المنطقة التي يسكنها العربي الميت في الظل.

إنها مسرح معد بطريقة شبه كاملة لتجربة أية فكرة في العالم، وقد جاءت إليه الصهيونية من أوروبا لأنها لم تجد مسرحاً أفضل منه على طول الطريق، لقد ولد الصهيونيون خارج الشرق الأوسط ولكنهم جاؤوا للحياة فيه لأنه كان يضم الشيء الذي تحتاج إليه الصهيونية إنساناً يعتبر نفسه بقرة في ضيعة الباشا.

والمواطن العربي كان بقرة في ضيعة الباشا، وكان الله يرسل له المطر عن طريق الفقهاء، وكان يتمسح بقبور الموتى في وضح

النهار، ويبيع كرامته في الافتتاحيات الرسمية، ويتعامل مع عفاريت الجن الفظيعين لكي يوفروا له الحماية من شرّ مواطنيه ويدفع مرتبات الشرطة لكي يدقوا عنقه في وقت الحاجة، والمواطن العربي كان دائماً في حاجة إلى الشرطة.

لقد عاش في المنطقة بضعة آلاف من السنين، ولكنه لم يستطع قط أن يثبت أنه يريد أن يحمل مسؤولياته متطوعاً، لقد ظل المرء في حاجة إلى ضربه على الدوام، وفي حاجة إلى أن يصدر له البلاغات المتوالية طوال ثلاثين قرناً تقريباً حتى بات من المؤكد أن معايشة ظروف الديمقراطية في هذا العصر ماتزال بالنسبة لإنساننا العربي مجرد موضة خارجة عن التقاليد.

إنها مهزلة الصراع في الشرق الأوسط بين فلسفة الصهيونية البلهاء التي تتبنى مناهج غير إنسانية وبين مواطن المنطقة الذي لم تتح له قط فرصة الدفاع عن إنسانيته.

مهزلة الصراع بين الفلسفة التي تعتبر العالم ـ مثل عربة الترام ـ يحمل اليهود في الدرجة الأولى وبقية الشعوب في عربة البضائع، وبين الشعوب التي تعلمت دائماً ـ قبل إسرائيل وبعدها ـ أنها لا تملك مكاناً غير عربة البضائع. إنها مهزلة الصراع بين المرض الخبيث وبين مجرد حب البقاء الذي يضعه الناس بين حوائجهم مثل حلم خارق التوهج دون أن يعرفوا ـ عادة ـ لماذا يحبون أن يبقوا.

الصهيونية في الشرق الأوسط مهزلة صراع واحدة. ونموها في المنطقة تحت رعاية الأمم المتحدة فضيحة إنسانية منقطعة النظير، ولكن الدرس نفسه واضح المعالم بالنسبة لكل المتفرجين، فعنصرية إسرائيل عقاب لا بد من قبوله بالنسبة للإنسان العربي الذي رضي

أن يتنازل عن إنسانيته طوال هذه القرون، ورضي بأن يضع نفسه في الصف الثاني وراء قبور الأولياء وكتاب الأحجية والمهرجين السياسيين وعفاريت الجن.

إنه الآن يجلس في الصف الثاني وراء الصهيونيين، ويستعد لدفع الثمن بالعملة المتداولة، وإذا كان مواطننا قد دفع ثمن جلوسه وراء أصنام ثقافته المتأخرة من رصيده الروحي، فإنه الآن يدفع ثمن جلوسه وراء إسرائيل بجثث الأطفال والخيام الممزقة. ولكن إسرائيل لا بد أن تموت، إن ذلك لا يخص العرب أو الشرق الأوسط، إنه قانون في صلب العالم نفسه، فالإنسان الذي يفترض أنه ينتمي مباشرة إلى الله، كما يقال في التوراة، إنسان جاهل يجعل مملكة الله محاطة بدوريات الحدود، ويجعل العالم ضيقاً إلى حد يخنق الأنفاس.

إنه لا بد أن يموت في عزلته الباردة، ويبقى الإنسان، تبقى الحقائق الكلية الشموخ والإنسان العظيم الذي يرفع رأسه إلى السماء، ويتعلم من المطر أن الله لا تضمه الحدود أو الأجناس أو الديانات أو المعاهد، وأن الماء يصل إلى الأرض لكي يهبها الحياة بمحاريث الزنوج والبيض على السواء، وبمحاريث العرب واليهود.

1969

رسالة إلى عبد الناصر

سيدي الرئيس.. الحل السلمي أحضره لنا محمود رياض(*). سيادتك تعرف ذلك، وتعرفه أروقة الأمم المتحدة أيضاً، ومعظم القاعات المهيبة التي شهدت اجتماعات السيد الوزير بممثلي دول العالم، والحل السلمي كما بدأ يتضح الآن بصورة أفضل مجرد خطأ سياسي يضعنا جميعاً في موقف متناقض إلى حد مزرٍ عند ثلاث نقاط محددة:

الأولى: أنه يجعلنا نقبل «بالحل العادل لقضية اللاجئين» الذي رفضه اللاجئون أنفسهم.

والثانية: أنه يضع عشرين عاماً من الحرب ضد إسرائيل على الرف مقابل لا شيء.

والثالثة: أنه يجعل إعادة تسليح قواتكم مجرد لعبة باهظة التكاليف تتم عبثاً لكي تنتهي عبثاً؛ فإسرائيل لن تضطر إلى قبول الصدام مع قواتكم المسلحة ما دام الباب الآخر مفتوحاً أمامها على

(*) وزير الخارجية المصرية في تلك الفترة، ثم أمين الجامعة العربية بعد ذلك.

أي حال. والمرء يقول بالطبع إن إسرائيل لن تقبل الحل السلمي، وإنها ستواصل رفضه إلى النهاية حتى تتاح لنا فرصة بناء قواتنا العسكرية وتلحق بها هزيمة حاسمة.

ولكن ذلك ـ يا سيادة الرئيس ـ مجرد محاولة غير معقولة لقراءة الغيب. فالناس في تل أبيب ليسوا في الواقع بلهاء إلى هذا الحد. إنهم قد يركبون رؤوسهم فترة من الزمن. وقد يغامرون أيضاً ببضعة معارك على نطاق محدود، ولكنهم بالتأكيد لن يتورطوا في قبول الانتحار فوق تلال سيناء مادام في وسعهم أن ينالوا فرصة أفضل عن طريق الحل السلمي.

إن اللعبة مقفولة من حولنا بإحكام. سيادتك تعرف ذلك أكثر من سواك، وليس ثمة ما يدعوني إلى إضاعة وقتك عبثاً في سرد بقية التفاصيل. ولكني أكتب إليك هذا لكي أضع أمامك الوجه الآخر للحل السلمي. الذي أعتقد مخلصاً أن الفرصة لم تتح لسيادتك لكي تراه عن كثب.

أنا أكتب لك بشأن محمود رياض. ذلك يعني ـ يا سيادة الرئيس ـ بشأن الرجل الذي قاد معركتنا السياسية في الأمم المتحدة وخرج منها محملاً بالحلول السلمية، ثم عاد إلينا وجعلنا نعتقد أن المرء ـ أحياناً ـ يذهب إلى نيويورك لكي يحضر الذئب من ذيله. فقد تمَّ الإعلان عن صدور القرار المضحك من مجلس الأمن باعتباره «نصراً سياسياً» ساحقاً. وعملت أجهزة الإعلام العربية بضعة أيام متوالية لكي تقنع شعوبها المتواضعة الإمكانيات بأن ما أنجزه اللواء السابق محمود رياض في الأمم المتحدة هو ـ في الواقع ـ ما أرادت الأمة العربية المجيدة أن تنجزه في عشرين عاماً عبثاً.

وكان ذلك ـ يا سيادة الرئيس ـ مبالغة لا تغتفر. وكان محمود

رياض قد ارتكب خطأً مميتاً عندما قرر أن يذهب لصيد الذئاب من ذيولها في أروقة الأمم المتحدة. فالناس الذين يجلسون هناك ليسوا مجرد مستمعين عاديين للخطب العربية المؤثرة. إنهم في الواقع وجه القضية الآخر الذي يتصور العالم أن أحداً لا يستطيع أن يغفله. وقد انزلق السيد محمود رياض في فخ شعري مثير للسأم عندما وقف وراء المنصة الرئيسية وطفق يمطر خطباً من سقف الأمم المتحدة دون أن يتذكر بالطبع أن اللعب السياسية التي تقوم على الدهاء وحده قد انقضى عصرها منذ بضعة قرون..

كنا أصحاب الحق في الأمم المتحدة. وكنا لا نحتاج إلى شيء آخر سوى أن نعلن ذلك بطريقة ثابتة، ونقول لوفود الأمم المتحدة؛ الكبيرة وغير الكبيرة على السواء، إن إسرائيل قد أخذت أرضنا وإننا لا نملك حلاً آخر سوى أن ندعوها لتصفية ذلك العدوان الآن أو غداً أو بعد مليونين من السنين. فنحن نستطيع أن ننتظر، ولكننا لا نستطيع أن نمنح إسرائيل ضماناً واحداً للسلام حتى تقوم بتصفية قضية فلسطين تصفية إنسانية .

وكنا ـ يا سيادة الرئيس ـ نستطيع حقاً أن ننتظر. وكنا ما نزال نملك المنطقة الشاسعة التي تقع بين الخليج والمحيط، ونملك إمكانيات هائلة تضمن لنا الحياة هنا بضعة ملايين أخرى من السنين دون حاجة إلى تلال سيناء والضفة الغربية. وكانت إسرائيل تجلس داخل فخ حقيقي أمام العالم بأسره.

ولكن السيد محمود رياض نسي ذلك كله في غمرة بحثه عن الذئب الميت. وانطلق إلى الأمم المتحدة مزمعاً بصلابة أن يقول للعالم إننا كنا نكذب بشأن إلقاء إسرائيل في البحر، وإننا أمة «بائسة» لا تعرف ما تقول، وإن إسرائيل بالطبع تستطيع أن تبقى

داخل حدود آمنة إذا عادت إلينا أراضينا. وكان ذلك ـ يا سيادة الرئيس ـ خيانة للقضية الإنسانية التي تصور أصدقاؤنا أننا نريد أن ندافع عنها في رمال فلسطين. وكان ذلك يعني أن عشرين عاماً من الحرب ضد إسرائيل قد وضعت على الرف مقابل لعبة رياض التي يدعوها «كسب الرأي العام العالمي».

فنحن لم نتورط في الحرب مع إسرائيل من أجل «أراضينا المحتلة»، بل من أجل «أرض فلسطين التي اغتصبها نظام نازي يدعو نفسه دولة يهودية» ونحن لا نحتاج إلى كسب الرأي العام العالمي لكي نستعيد أراضينا المحتلة، بل لكي نستعيد العدالة في أرض فلسطين.

وإذا كان كل ما نريده حقاً هو أن تنسحب إسرائيل إلى حدودها القديمة فلماذا إذن لا نعترف بها؟ أجل.. لماذا يا سيادة الرئيس؟ ولماذا ينصب محمود رياض نفسه محامياً عن قضية لا يؤمن بعدالتها؟ إن الأمر لا يحتمل أكثر من تفسير واحد. فنحن لا بد أن نرفض إسرائيل كلية أو نعترف بها كلية. أما إلقاء الخطب الغامضة وراء منصة الأمم المتحدة فقد كان في الواقع لعبة غير ضرورية.

وكان السيد محمود رياض قد اكتشف فجأة أن كل ما قيل قبل الخامس من يونيو مجرد «أكاذيب عربية مجيدة» وأننا لا نستطيع أن «نكسب الرأي العام العالمي» إلى جانبنا إلاّ إذا تركناه يطوف العالم، ويعلن لكل امرىء يقابله أننا «كنا نكذب قبل الخامس من يونيو». وفي هلسنكي قال السيد محمود رياض ذلك بالضبط للرئيس كيكونين، و«كسبه إلى جانبه». ثم انطلق إلى كوبنهاجن وأعلن في مؤتمر صحفي أنه شرح «وجهة النظر العربية»

للمسؤولين في فنلندا، بطريقته الجديدة وكسبهم مرة واحدة إلى جانبنا.

وفي اليوم التالي ـ يا سيادة الرئيس ـ قالت وزارة الخارجية الفنلندية إن السيد محمود رياض «يتصور أشياء غير حقيقية، وإننا لم نقل له أننا استقبلناه هنا ـ كما استقبلنا أبا إيبان من قبله ـ واستمعنا إلى وجهة نظره وعرفنا منه أن الدول العربية محبة للسلام وأنها ترغب في تسوية سلمية مع إسرائيل، ولكنها لا تستطيع أن تعترف بها مراعاة لمشاعر شعوبها»..

وكان ذلك يعني أن السيد محمود رياض قد تورط كعادته في خطبة مميتة أثناء المحادثات، وقال لمستمعيه إن الحكومات العربية ليست مجنونة حقاً إلى الحد الذي يدفعها إلى تجاهل وجود إسرائيل، ولكن الشعوب العربية وحدها هي المجنونة، وهي التي تمنعنا من إعلان رأينا العاقل. وكان ذلك يعني أيضاً أن السيد محمود رياض يسمح لنفسه أحياناً بالكلام نيابة عن وزارة الخارجية الفنلندية دون أن يتقيد بالواقع. وفي ذلك المؤتمر المضحك قال السيد محمود رياض بالحرف الواحد أمام مجموعة من الصحفيين «إن إسرائيل حقيقة واقعة ونحن بالطبع نعترف بذلك». ثم عاد مرة أخرى وأنكر هذا التصريح عندما هاجمته الصحافة العربية خارج الجمهورية العربية المتحدة. وبعد ذلك عاد إلى القاهرة لكي يجتمع بالسفراء العرب معلناً لهم بغضب أنه وحده المحامي المعترف به عن القضية العربية.. وأنه لا بد أن ينال مطلق الحرية لكي يقول ما يشاء ثم قال لهم أيضاً «بس أنتو سيبوني أتكلم ومالكوش دعوة». إلى هذا الحد كان الأمر مضحكاً يا سيادة الرئيس. وكانت قضيتنا العادلة تبدو كذلك حقاً بالنسبة لنا جميعاً ما عدا السيد محمود

رياض نفسه الذي اعتبرها منذ البداية مجرد لعبة سياسية تقوم على الدهاء، وكسب الرأي العام العالمي بالحيل المتواضعة. وقد تعود أن يبدأ خطبه في كل اجتماع بحديث نصف مؤثر عن «الأمة العربية المسكينة»، وعن المعتدين الإسرائيليين الكبار وسوء الحظ والفقر والحاجة إلى الفلوس لبناء المستشفيات، وبقية الأشعار التي تكسر القلب. وكان يقول دائماً إننا لا نريد شيئاً سوى السلام مع إسرائيل. أما «استعادة الأرض المغتصبة» فإن السيد محمود رياض لم يعد يريده لأن ذلك يدخل في نطاق الأكاذيب العربية المجيدة قبل الخامس من يونيو. أما نازية إسرائيل وطبيعتها العنصرية المميتة واعتبارها لأبناء فلسطين مجرد مواطنين من الدرجة التاسعة.. أما قضية الإنسان المهان في خيام اللاجئين... وقضية الدعارة الفكرية في دستور إسرائيل فإن السيد محمود رياض يضعه على الرف لكي يكسب الرأي العام العالمي مؤقتاً على الأقل. هنا ـ يا سيادة الرئيس ـ أستطيع أن أقول لك إن محمود رياض لم يكسب مخلوقاً واحداً إلى جانبنا حتى الآن. وإن إسرائيل قد فقدت حقاً بعض التأييد الواسع الذي كانت تلقاه من أصدقائها، ولكن ذلك حدث نتيجة سوء تصرفات إسرائيل وليس نتيجة فهم جديد لقضيتنا،وإن أحداً في العالم لا يصدق كلمة واحدة من خطب السيد محمود رياض. والدليل الحاسم على ذلك أننا مازلنا جميعاً في النقطة نفسها التي بدأنا عندها في الخامس من يونيو التعس.

نحن لم نكسب شيئاً من الحل السلمي سوى تلك الفرصة الطيبة التي أتيحت لكم في مصر لكي تعيدوا بناء قواتكم، وهي فرصة أتيحت منذ البداية على أي حال بقبولكم لقرار إيقاف إطلاق النار.. ولكنكم الآن قد تضطرون إلى وضع تلك القوات الجديدة على الرف إذا قررت إسرائيل أن تكتفي بالغنائم التي

منحها لها مجلس الأمن بمساعدة السيد محمود رياض. بعد ذلك ـ يا سيادة الرئيس ـ أنا أعترف لك هنا بأنني قد اخترت أن أتحدث عن السيد محمود رياض شخصياً لأنني أعرف أنه هو الذي فرض الحل السلمي على السياسة العربية، وفرض عليها أيضاً أن تعتبر ذلك الحل، نصراً سياسياً سعيداً، وأنا أردت أن أنقل هذه الحقيقة هنا لأن ذلك من واجبي تجاه إخلاصك العظيم لقضية أمتنا.

1969

الزيتون

تقول «روبيكا» بائعة التبغ وبطاقات البريد في غرناطة: دون كيخوت كان سيفه حقاً من الخشب ولكن بغلته على الأقل كانت بغلة حقيقية. أما أنت فإن كل ما تملكه مصنوع من الخشب. حتى أنفاسك مصنوعة من الخشب، وأنت مجرد لعبة خشبية خرقاء لا تساوي أكثر من نصف بيزيتا.

ثم تقول «روبيكا» بلهجة أكثر سوءاً: أنا لا أستطيع أن أعطيك شيئاً على الحساب. إنني أيضاً امرأة فقيرة، وليس من شأني أن أتكفل بحاجتك من التبغ بالمجان. إن عليك أن تدفع ثمن تبغك على الأقل، وتدفع أيضاً ثمن الأيقونة التي سرقتها من غرفتي ليلة البارحة. وأقول لها متجاهلاً سلوكها البذيء: أنا لم أسرق أية أيقونة. ثم أنظر في عينيها وأتسلق الرموش الطويلة الطائشة حافي القدمين وأخوض في البحيرتين البالغتي السواد وأرى عقبة بن نافع على حصانه الأبيض وأرى غرناطة وبيت المقدس، وأكتشف فجأة أن روبيكا تملك في طرف عينها اليسرى خاتم سليمان.

ـ أنا لم أسرق أية أيقونة.

وتصرخ روبيكا بغضب: أنت تعرف أنك سرقتها. لقد كانت تلك الأيقونة معلقة في غرفتي عندما جئت أنت. يا إلهي، هل تستطيع أيقونة خشبية أن تمشي وحدها خارج الغرفة؟ وأهز لها رأسي، وأرى الغضب الجامح يعتري عينيها وراء موجة الضوء السوداء حتى يتوهج خاتم سليمان في طرف عينها اليسرى مثل قنديل مضاء في قاع كهف مائي.. ثم ترفع رأسها وتقول بثبات: أنا لم أسمع قط بأن ثمة أيقونة خشبية مشت وحدها خارج أية غرفة. إن الشيطان لا بد أن يحملها تحت معطفه. أجل الشيطان وحده، يستطيع أن يفعل ذلك. فلا تدعني أنشب أظافري في عنقك.

وأهزّ لها رأسي مرة أخرى وأستدير في اتجاه الشارع المزدحم. لم يعد ثمة فائدة من الإنكار. لقد سرقت تلك الأيقونة يا جناب الشيطان.. إنك لا بد قد سرقتها دون أن تدري وجعلتني أفقد عطف بائعة التبغ.. ماذا تعتقد أنني أستطيع أن أفعل في غرناطة بدون تبغ. ماذا يفعل الشيطان بأيقونة خشبية تمثل القديس أوجستين الخارق، وأين يذهب المرء في غرناطة لكي يحصل على قليل من التبغ.

- يجمع أعقاب السجائر .. يقول صوت من الداخل.

يبيع الصحف، ويجمع أعقاب السجائر، ويغسل الصحون في مطعم البياتزا تريفولي. هذا ما يفعله المرء في غرناطة لكي يحصل على أي شيء.

وأقول للصوت الغامض الذي ينهض في صدري: إذا مرَّ عقبة ابن نافع على حصانه الأبيض ورآني أغسل الصحون ماذا سيقول عني.. وإذا مرَّ بي عقبة بن نافع صدفة في عربته الفيات ورآني

أجمع أعقاب السجائر ماذا سيقول عني.. أنا حفيد عقبة بن نافع. لعلك لم تسمع ذلك قط، ولكنني في الواقع حفيده حقاً ولا أستطيع أن أتركه يراني أجمع أعقاب السجائر في عاصمة ملكه. ويصرخ بائع الصحف على مدى السماوات: لقد أحرقوا المسجد الأقصى. وأمشي عبر البياتزا تريفولي والتقط عقب سيجارة واحدة ليس غير. ويراني رجل أسود الشعر يقود عربته الفيات في وسط الميدان، ويحدجني بنظرة ازدراء خاطفة ثم ينشغل عني بزحمة المرور. لعله عقبة بن نافع، لعله ليس عقبة بن نافع، لا أحد يدري على وجه الضبط، ولكني أستطيع أن أتظاهر دائماً بأن عقب السيجارة وقع من يدي.

ـ ويصرخ بائع الصحف: لقد أحرقوا المسجد الأقصى. هل تريد أن تقرأ الأخبار.

ـ من أحرقه؟

ـ أدفع نصف بيزيتا وأقرأ الأخبار.

كيف يحصل المرء على نصف بيزيتا في غرناطة لكي يقرأ عن حرق المسجد الأقصى؟ وكيف يقرأ المرء بدون تبغ. يا جناب الشيطان لماذا سرقت تلك الأيقونة. لماذا حرمتنا من نعمة الشرف التي تتيح للناس أن يجلسوا في بيوتهم ويدخنوا ويقرأوا عن حرق المسجد الأقصى. ويسألني بائع الصحف: هل فقدت شرفك إلى هذا الحد.

ـ أجل. إلى هذا الحد. ليس ثمة تبغ. ليس ثمة نصف بيزيتا. ليس ثمة أخبار عن حرق المسجد الأقصى. إن الناس الشرفاء ـ الذين لا يسرقون أية أيقونات ـ يستطيعون أن يجلسوا في بيوتهم ويشعلوا سيجارة حقيقية ويقرأوا الأنباء بالتفصيل. ويصفر بائع

الصحف مبدياً دهشته، وأقول له مؤكداً إن بعض الناس الشرفاء حقاً يستطيعون أيضاً أن ينالوا فنجاناً من القهوة مع أخبار حرق المسجد الأقصى. بل إن بعضهم ينعم الله عليه بمنحة الشرف إلى حد أنه يستطيع أن يشعل سيجارته بولاعة ذهبية قبل أن يشرع في سرقة أيقونة القديس أوجستين.. أعني الشيطان فعل ذلك، أو فعله الجندي الأميركي الذي جاء بعدي إلى غرفة السنيورة روبيكا، إن أحداً ما قد سرق أيقونة القديس أوجستين وحملها تحت معطفه. لا يهم من فعل ذلك على وجه الضبط فالنتيجة في نهاية المطاف أن السنيورة روبيكا تعرف الآن أنني سارق أيقونات.. وذلك يعني على وجه التقريب أن أحرم من نعمة الشرف. ليس ثمة تبغ. ليس ثمة نصف بيزيتا. ليس ثمة أخبار عن حرق المسجد الأقصى.

ويصل زبون ما، ويشتري لنفسه الجريدة ثم يقود عربته الفيات ويخترق وسط الميدان. لعله عقبة بن نافع. لعله ليس عقبة بن نافع. لا أحد يدري على وجه الضبط، ولكنه بالتأكيد سوف يقرأ كل الأخبار عن حرق المسجد الأقصى. وكذلك سيفعل كل المواطنين الشرفاء الذين لا يتورطون في سرقة أية أيقونات. وسوف يجلسون على الأرائك متكئين. ويعد لهم الخادم فنجاناً من القهوة. ويشعل لهم لمبة الصالون لكي تصير الرؤية أكثر ملاءمة لقراءة الأنباء عن حرق المسجد الأقصى.. وسوف يقرأون كل شيء بالتفصيل، ويعرفون أيضاً أن الجنرال موشى دايان المشهور بأبي لهب الأعور وامرأته العجوز المدعوة بحمالة الحطب قد تسللا بعد منتصف الليل وأوقدا النار في الحرم المقدس.

الناس الشرفاء سيعرفون كل شيء بالتفصيل. لأنهم ـ من ناحية ـ يملكون ثمن الجريدة، ولأنهم من ناحية أخرى يستطيعون أن

يجلسوا بهدوء على أريكة الصالون ويرتشفون القهوة المعطرة بروح الزهر ويدخنون أحسن أنواع التبغ ويقرأون في سلام أنباء النيران المشتعلة في مسجد السلام. أما أنا فلا شيء لديَّ سوى أرصفة البياتزا تريفولي. ليس ثمة نصف بيزيتا. ليس ثمة تبغ. ليس ثمة صالون أو أريكة أو خادم. ليس ثمة شيء على الإطلاق. ويقول بائع الصحف فجأة: خذ. هذه نسخة بالمجان. اقرأ ما تشاء عن حرق المسجد الأقصى. إنني لا أستطيع حرمانك إلى هذا الحد. خذ تمتع بقراءة النبأ مثل بقية المواطنين. وأهز له رأسي خمس مرات لكي يعرف أنني أرفض القراءة مثل بقية المواطنين.

فأنا لست مثل أحد منهم.. إنني لا أملك شيئاً في غرناطة. لا أملك شيئاً على الإطلاق، ولا أستطيع أن أقرأ كلمة واحدة عن حرق المسجد الأقصى. لأنني أعرف على وجه اليقين أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً تجاه تلك الجريمة الفظيعة. إنني لا أستطيع أن أقتل موشى دايان وامرأته حمّالة الحطب، ولا أملك بندقية، ولا أملك راتباً أشتري به بندقية، ولا أملك أريكة في الصالون يمكنني أن أبيعها لكي أشتري بثمنها بندقية، ولا أملك عربة مرسيدس يمكنني أن استبدلها ببندقية، ولا أملك ولاعة ذهبية يمكنني أن أتخلى عنها مقابل بندقية. أنا لا أملك شيئاً على الإطلاق. وليس ثمة نصف بيزيتا.. وليس ثمة جريدة، وليس ثمة ما أستطيع أن أفعله تجاه حرق المسجد الأقصى.

وبناء عليه ـ يا جناب بائع الصحف ـ أنا أرفض أن أتورط في القراءة. إن موشى دايان وامرأته حمّالة الحطب يستطيعان أن يحرقا كل المباني المقدسة في العالم. فذلك النبأ لا يهمني مادمت أعرف أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً تجاه هذين القرصانين المتسلطين.. إنني

رفض بكل شدة أن تجعلني أبدو مضحكاً مثل بقية المواطنين.

ويمنحني بائع الصحف ابتسامة مليئة بالود، ويدير لي ظهره منطلقاً وراء المواطنين الذين يرغبون في قراءة الجريدة. وألوح له بيدي عبر البياتزا تريفولي، واجتاز الجسر إلى شارع الملكة أنطوانيت مزمعاً مرة أخرى أن أعود إلى السنيورة روبيكا.

ولكن القدر يأخذ بيدي إلى مزرعة الزيتون. ويجعلني أنطلق عبر غرناطة القديمة إلى ميدان المتادور. ويجعلني أغمض عيني وأواصل المشي في الأزقة الضيقة المشمسة، وأنصت إلى الجدران والأبواب وحبات التراب والأطفال والحمالين وباعة القسطل المشوي والرجال الفقراء والأحياء والميتين يقرأون بصوت واحد موجز الأنباء:

﴿تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله

وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته

حمّالة الحطب، في جيدها حبلٌ من مسد﴾.

وكان ذلك حقاً موجز الأنباء، وكان العالم كله يرتله بصوت واحد وترسمه الرياح في جبين الشمس، وترسمه على موجات النهر والمحيط، وتحمله بين يديها عبر غابة الزيتون لكي تبثه للأشجار الخضراء الطيبة الرائحة. فدعيني أضع رأسي هنا يا غابة الزيتون وأنصت إلى كلمات الله. لا ترغميني على العودة إلى غرناطة. لا تتركيني أفقد اتزاني في أقوال الصحف مثل بقية المواطنين. إنهم مجرد قراء، إنهم جميعاً مجرد قراء ميتين ليس بوسعهم أن يفعلوا شيئاً سوى القراءة.

1969

العيد من الداخل

﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾

قرآن كريم

القول الشائع بأن الله يطلق سراح الشيطان في يوم العيد لا يبدو ـ في الواقع ـ مجرد رمز لغوي محض، أعني ليس في بلدنا على الأقل، فالمرء هنا ـ داخل هذه التكية المزدحمة بالخطباء والدراويش ـ لا يستطيع أن يغالب الشعور بأن ما يشبه الشيطان من جميع الوجوه يخرج حقاً في يوم العيد مخفياً ذيله تحت جرده الحرير لكي يضحك على ذقوننا حتى تدمع عيناه. أنا أعرف أن ذلك المخلوق ليس مجرد أسطورة. وأعرف أيضاً أنه يعيش بيننا مطلق السراح طوال أيام العام، لأن الله لا يدنس سمواته النقية بحبسه فيها لحظة واحدة، ولكننا نراه بوضوح أكثر في يوم العيد بالذات ونتورط في الاعتقاد بأنه خرج لتوه من سجنه السماوي، متناسين بالطبع ـ على عادة الشعوب الحسنة النية ـ أن السماء نفسها مقاومة في داخلنا.

فماذا أردت أن أقول لكم؟ ليس ثمة سماء فوق رؤوسنا، ليس ثمة شيطان، ليس ثمة شيء في هذا العالم المسطح سوى الله والإنسان ولو ذهب فقي حارتنا العجوز لكي يبحر في الفضاء إلى الأبد، فإنه لن يجد شيئاً يضيفه إلى هذه القائمة سوى علب

القمامة النتنة التي تركها رواد الفضاء على سطح القمر.

هذا وجه الحق ... ولكن المرء لا يجوز أن يحرم فقينا من شيطانه الطيب القلب لمجرد الرغبة في إظهارالحق. إنه بوسعه أن يحتفظ به في تكيته إلى يوم القيامة، وبوسعه أن يطلعه لنا يوم العيد لكي يبتز راتبه من وزارة الأوقاف، فالأمر كله مجرد حرفة لكسب العيش، والفقي البسيط التركيب لا يحتاج بالطبع إلى أن يموت بالجوع مثل الحاوي الذي ماتت قردته. لا.. ليس ثمة من يريد أن يذهب إلى هذا الحد، ولكن الفقي أيضاً مطالب بأن يلتزم حدود القانون، ويكف عن خداعنا ـ فالقول بأن الشيطان مخلوق سري يتسلل تحت جنح الليل لكي يغري المواطنين بارتكاب المعاصي، قول مريب يهدف إلى مساعدة المجرم الحقيقي على الهرب. لأن الشيطان ـ في الواقع ـ لا يتسلل تحت جنح الليل، ولا يعمل بطريقة سرية أيضاً. إنه ينبت في بلدنا مثل نبات الحلفا نفسه، ويتحدث مع مواطنينا في وضح النهار على أرصفة الشوارع، ومن الإذاعة الليبية والجريدة المزرية، وأحياناً أيضاً من منبر الجامع. فماذا أردت أن أقول لكم؟ أجل! الشيطان الطيب القلب مجرد مواطن ليبي. يلبس كاطه المحروقي يوم العيد، ويشعل سيجارته الغريان، ويخرج للنزهة على شاطىء البحر لكي يتحدث مع مواطنينا بلكنته الليبية التي لا يخطئها السمع، وليس ثمة ما يميزه عن أحد منا سوى أنه «دائماً ـ ومن هنا إلى الأبد ـ مخلوق جاهل».

وأنا أعرف أنني أستطيع أن أفقد فروة رأسي مقابل هذه الإهانة لمقام الشيطان ولكنني ـ في الواقع ـ مضطر لقبول المغامرة رغم أنفي.. فالمخلوق الغريب الذي يتحدث عنه فقي حارتنا العجوز، ويزعم أنه يملك ذيلاً مغطى بالشعر ويضع قرنين فوق رأسه لا علاقة

له بالشيطان، إنه مجرد قردة مدربة يسرح بها الفقهاء في الشوارع لابتزاز نقود المارة، أما الشيطان الحقيقي فإنه يجلس في «صدور الناس».

فماذا أردت أن أقول لكم؟ أجل! الشيطان هو جهلنا، هذه هي الحقيقة المسطحة التي يطلق الله سراحها في يوم العيد، فنحن لا نجلس في الجامع ونرفع أيدينا إلى «السماء» عبثاً، إننا نفعل ذلك لأننا نعتقد أن الله ليس في «الأرض»، ولأن الرب السماوي وشيطانه المضحك، الذي يحمل ذيله فوق رأسه قد تسربا إلى صدورنا عبر أربعة عشر قرناً حافلة بالميثولوجيا والفقهاء، وأنا لا أتمنى أن أثير غضبكم بهذا القول، فالواقع أن ذلك لن يغسلكم من خرافاتكم بمقدار عقلة إصبع، ولن يجعل حقائق الحياة في بلدنا تبدو أقل قبحاً، إننا لا بد أن نتعلم النظر إلى أنفسنا بأمانة.

فالفقي الذي يضع عمامة فوق رأسه، ويلبس جبته الحريرية لكي نعرف أنه فقي ونقبل يده من باب التأدب، لم يجد هذا الزي في القرآن، ولم يطلب منه الله أن يميز نفسه عن بقية المواطنين، ولكنه تعلم هذه الحيلة من تاريخ الكهنوت السيىء السمعة. فرجال الدين في مصر الفرعونية كانوا يلبسون زياً خاصاً لكي يتعرف عليهم المواطن ويمنحهم ما لديه من البيض وصغار الماعز، وأحبار المعبد اليهودي كانوا يلبسون زياً خاصاً لكي يتعرف عليهم اليهودي الورع ويسارع بتقبيل أيديهم عندما يجدهم يطاردون امرأته من باب المحبة في الله، وقسس الكنيسة المسيحية كانوا يلبسون زياً خاصاً لكي يميزهم جباة الضرائب عن بقية الرعاع، وفقهاء لمسلمين يلبسون زياً خاصاً من أجل ذلك كله مرة واحدة. فهل ثرت غضبكم؟

حسناً.. إن الفقي المسلم الذي يجلس للوعظ والإرشاد مقابل راتبه من وزارة الأوقاف، لم يجد ذلك في القرآن أيضاً، ولم يطلب منه الله أن يترك بقية الحرف ويتطوع بفرض وصايته على الدين، ولكنه تعلم هذه الحيلة من تاريخ المعبد العبري.. فالأحبار وحدهم هم الذين ابتدعوا حرفة الدين خلال القرن الأول من وصول بني إسرائيل إلى أرض الميعاد، وأقاموا مؤسسة دينية خاصة تشرف على شؤونهم وتدفع لهم مرتباتهم من حصيلة الصدقات، حتى تحولت الديانة اليهودية نفسها إلى «شركة مساهمة» تدعى باسم «المعبد». تلك الشركة السيئة السمعة التي لم تقتصر على تحريف التوراة فحسب بل انطلقت لزيادة نفوذ الأحبار داخل جهاز الدولة حتى وضعت الملك نفسه في خدمة أهدافها على أن يتقاسم معها شعب الله المختار كما يتقاسم اللصان قطيعاً من البقر.

وقد عادت هذه المؤسسة للظهور في التاريخ المسيحي أيضاً، ودعت نفسها «الكنيسة» ووضعت فوق رأسها مدير الأعمال المدعو باسم (البابا)، الذي لم يفقد دقيقة واحدة لكي يمد نفوذه داخل أجهزة الحكم في الدول المسيحية ويرغم ملوكها جميعاً على أن يتقاسموا معه قطعان العباد الأتقياء كما يتقاسم قطاع الطرق حصيلة أية غارة ناجحة. هذه الشركات الدينية هي التي تشرف الآن على دفع رواتب القسس والأحبار، وهي التي جعلت الدين حرفة مربحة، وتسببت أيضاً في حركات الانفصال الديني والحروب السوداء والقهر العائلي وكبت الحريات وبيع صكوك الغفران وإخضاع كلمات الله لأهواء الملوك المضحكين وحرق المواطنين بتهمة السحر. والفقي المسلم الذي يتخذ الوعظ حرفة لكسب العيش لا يختلف عن أي قسيس في هذه الشركات الدينية بمقدار عقلة إصبعه.

فهل أثرت غضبكم؟ حسنا.. إن الفقي المسلم الذي يرفع يديه على المنبر المقام في بيت الله لكي يدعو لسيده بطول العمر والبقاء، لم يجد ذلك في القرآن، ولم يطلب منه الله أن يجعل شعائر الصلاة الخاشعة بمثابة إعلان مجاني للدعاية السياسية، ولكنه تعلم ذلك من التاريخ الكهنوتي السيىء السمعة فرجال الدين في مصر القديمة كانوا يقيمون «الصلاة» كلها باسم الملك لأنه هو الرب نفسه، أما أحبار المعبد اليهودي الذين فقدوا لعبتهم الوثنية بتدخل التوراة فقد نقلوا اسم الملك من بداية الصلاة ووضعوه في النهاية لكي يطلبوا له المغفرة من الله ويدعوا له بطول العمر. تلك اللعبة المشينة ذات التاريخ الحافل بالخدع التي عادت إلى الظهور في القرن الخامس الميلادي عندما بدأ الأمبراطور الروماني يستمد سلطته من الكنيسة ويدفع الرشاوى للقسس لكي يدعوا له أمام المواطنين بطول العمر والبقاء.

ثم استعار الملوك المسلمون هذه الخدعة وانطلقوا بدورهم عبر النفق الأسود لكي يجعلوا الفقي المسلم مجرد بوق سياسي أجوف في حرم بيوت الله، وبقية اللعبة بالطبع أن الفقي المتواضع الإمكانيات ركب هذه البغلة العوراء وانطلق يصرخ بالدعاء لسيده المضحك ويلحقه بالدوحة الشريفة حتى فاجأه «هولاكو» في وسط الخطبة وذبح سيده مثل عنزة جرباء.

فهل أثرت غضبكم؟ حسناً.. إن الفقي المسلم الذي يجلس في محراب الجامع لكي يبني «مملكة» سماوية أمام مواطنيه ويضع لهم الله فوق العرش، ويحيطه بالملائكة ثم يضع تحته الأنبياء، ويترك الأولياء الصالحين يجلسون درجة أخرى إلى أسفل. فيما يحتل «المقربون» الدور التالي ويجلس «الأتباع» في الدور الذي يليه. هذا

المهندس المضحك لم يتعلم فنه من القرآن، ولم يقل له الله إن عرشه يشبه عرش الملك، وأن الملائكة مخلوقات مجنحة قائمة بذاتها في سلم الخلق، ولكنه تعلم هذه الحكمة من الميثولوجيا الدينية السيئة السمعة، فالناس الوثنيون الذين عاشوا في مزبلة الفكر كانوا يتصورون «الرب» بمثابة ملك عظيم خارق القوة يسكن في السماء، ويحيط نفسه «بالجنود» المسلحين بالسيوف السماوية لكي «يرسلهم» وقت الحاجة لقضاء مآربه، والقرآن المذهل الأبعاد الذي قال بوضوح ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وضع جميع اللعب الميتافيزيقية على الرف، مرة واحدة وإلى الأبد، ولكن الفقي المسلم لا يستمد تصوراته من القرآن وحده، ولا يلجأ إلى تفسير كلمة «الملائكة» تفسيراً يليق بالتجريد الإلهي في الإسلام، بل يتبنى وجهة النظر المسيحية المريبة السمعة التي تتصور حقاً أن الملائكة أجسام نورانية يستعملها الرب بمثابة سعاة مكتبه.

فهل أثرت غضبكم؟ حسناً.. إن بقية اللعبة أكثر مدعاة لليأس، ولكني هنا لا أنوي أن أقوم بتغطيتها داخل حديث واحد في جريدة يومية. إن الأمر يتطلب مليون حديث آخر في جميع الجرائد التي تصدر في العالم. وإذا كنا سنصل إلى نتيجة ما بعد ذلك كله، فهي أن نكتشف أننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الأحاديث. فالدين هو الفكر المتناهي الأبعاد الذي يتابع تفاصيل العالم بأسرها. والدين هو المعرفة الحقيقية بالتجريد الإلهي في أنقى صورة ممكنة داخل إمكانيات العقل البشري. والمرء لا يستطيع أن يتصور ثمة نهاية لهذا الطريق المذهل الطول خصوصاً عندما يعرف أن اللغة نفسها ـ التي تستعمل لأداء مهمة النقاش ـ هي في الواقع أول حاجز مادي يحجبنا عن منطقة التجريد الإلهي.

فكلمة «الله» نفسها إذا لم تنل حقها من التجريد اللغوي، تصبح في الواقع اسماً محدداً يقف في منطقة ما خارج العالم، وتحجب أبصارنا عن مواصلة الصعود. فهل ثمة طريق إلى الخارج؟ أنا أقول هنا آنقذوا فقي حارتنا العجوز من نفسه. آمنحوه فرصة العمل الواسع النطاق الذي يمتد على طول مسرح الفكر الإنساني، واتركوه يبحث لنا عن سبيل الرشاد. فهذا الرجل الغارق في الخرافات لا يستطيع قط أن يفهم القرآن بمعارفه المحنطة من القرون الوسطى، ولكنه إذا أتيحت له فرصة لفهمه فإنه وحده يستطيع أن يجد لنا الطريق. اعطوه فرصة العمل بوسائل الفكر الشجاع. كما أعطيتموه السيارة الحديثة بدل ناقته القديمة. ولا تتركوا أحداً يسخره لخدمة الدعاية السياسية، وإلحاق الموظفين بالدوحة الشريفة، والدعاء على المنابر لمن يدفع راتبه في وزارة الأوقاف.

فالدين وحده هو طريقنا إلى الخارج، وطريق الإنسان في العصر بأسره. الدين، وليس كسب العيش باسم الدين، أو التسكع بالعمامة وجبة الحرير، وكتابة المقالات المريضة بأقلام المرتزقة الصغار الذين يقفون على الأرصفة لبيع قرودهم الملونة برخص التراب.

فهل أثرت غضبك! حسناً.. أنا هنا في هذه المدينة البعيدة لست في حاجة إلى غضب أحد، ولست في حاجة أيضاً إلى من يشرع قلمه لكي يقذفني في الجحيم ملوثاً بالحبر الأحمر.. إن ذلك كله أمر لا داعي له، فأنا لست ملحداً، ولا أعمل لحساب المستشرقين الذين لا يجدون ثمة ما يفعلونه سوى أن يشوهوا ديننا الحنيف بطريق الخداع.

إنني أكتب ما أؤمن به. وقد تعلمت أن أؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وتعلمت أن أطوي هذا الإيمان في صدري، وأتركه

يقودني في طرق الغربة. وقد قادني بنفسه إلى هذا الحد، وعلمني أن أكفر بمهنة الفقي، فإذا جاء العيد، وانطلقت دعواتكم المضحكة عبر كل السموات فأنا أراكم من الداخل وأكفر بكم..

1969

نقاش مشاكلنا

بحث مقدم إلى مؤتمر أدباء وكتّاب المغرب العربي(*)

أيها الاخوة...

أنا لا أنوي أن أحدثكم عن مشاكل كتّاب المغرب العربي باعتبارهم كتّاب المنطقة الواقعة في شمال إفريقيا، فالواقع أن ذلك مجرد تقسيم سياسي معترف به مؤقتاً.. أنا أنوي أن أحدثكم عن مشاكلنا باعتبارنا مجموعة من متوسطي الدخل والمعرفة الذين يحاولون أن يحققوا أهدافهم في بلد متخلف مثل منطقة شمال إفريقيا... وإذا كان هدف الكاتب أن يجعل مجتمعه يمشي خطوتين بدل خطوة واحدة فلا بد أن أسوأ مشكلة تواجهه في بلد متخلف هي أن أحداً من حوله قد لا يرغب في المشي على الإطلاق. ذلك يعني ـ أيها الاخوة ـ أن الثقافات المتخلفة في المنطقة هي في الواقع أسوأ ما يستطيع أن يواجهنا، وأسوأ ما يواجه الآخرين أيضاً. إنها نوع من القهر الثقافي الذي تمارسه الكتلة على الفرد ويتضاءل بجانبه أي عمل للمقاومة.

(*) عقد هذا المؤتمر في مدينة طرابلس في مارس 1969، وشارك فيه النيهوم عضواً في الوفد الليبي.

ونحن هنا في ليبيا نواجه هذه المشكلة.. نحن ما زلنا نتعلم الكتابة، ولكننا بدأنا نواجه منذ الآن ضغطاً مباشراً من التيار الفكري المقابل الذي يجره المجتمع وراءه عبر محنته الثقافية.. فالوعي غير الكامل لا يستطيع أن يعتمد على قدرته في النقاش المتزن، ولا يستطيع أيضاً أن يقبل شيئاً بجانبه. إنه يرد دائماً بعنف غير متوقع، ويجعل محاولة إحداث التغيير أكثر صعوبة من التغيير نفسه. وهذا كل ما لدينا من النقد. إننا لا نملك ناقداً متفرغاً لأعمال التقييم، ولا نملك قاعدة النقاش العام داخل دائرة محددة من الأهداف والخطط. إن كل ما لدينا هو أفكار الكتلة الشديدة الغموض والصرامة التي تتحرك طليقة في الشارع.. وفي الأتوبيس وفي عربات الأجرة والمصانع الصغيرة ومكاتب الموظفين والجامعة وفي سوق القرية، وتحاول أن تجد لنفسها ـ ولنا أيضاً ـ منفذاً للخروج عبر الأزقة المسدودة بإحكام دون أن يتنبه أحد ما إلى الحقيقة القديمة القائلة بأن أفكار المجتمع المتخلف لا تستطيع في نهاية المطاف أن تنتج سوى الأهداف المتخلفة.

فالمشكلة أن النوايا الحسنة وحدها لا تكفي. والمجتمع المتوسط الوعي ينقسم عادة في داخله إلى مجموعة من الخلايا العمياء التي، لا علاقة بينها، سوى إنها ـ بحكم ظروفها السياسية ـ تعيش داخل حدود واحدة والكاتب هو رجل مهنته الحلم في الدرجة الأولى ـ لا بد أن يصطدم بهذا الواقع في نهاية المطاف، ولا بد أن يجد نفسه مضطراً إلى اختيار طريقه عبر الطرق الأخرى المزدحمة بالصراع. وهذا يعني بالتأكيد أن يجد الكاتب نفسه متورطاً بدوره في تبني أفكار إحدى الخلايا ضد بقية الكتلة، ومتورطاً أيضاً في أسوأ أنواع الخلق الشعري. فالمجتمع المتوسط الوعي لا يقيس أعمال الفن باعتبارها مجرد حلم شعري لتحقيق الأفضل. إنه يريدها أن

تقف إلى جانبه في الدرجة الأولى ثم تحقق بعد ذلك قيمتها الفنية.. فإذا عجز الكاتب عن الاستجابة إلى هذه الرغبة الحافلة بالنفاق.. فإنه في العادة يخسر معركته قبل أن يخرج من مرحلة الحلم مهما كانت موهبته قادرة على الإخصاب.

والخسارة هنا ليست مجرد لعبة عادية لإخلاء مكان الصراع.. فالكاتب لا يشعر بالعداء تجاه مجتمعه، بل تجاه العوائق الثقافية غير الخصبة التي تعوق تحقيق التقدم داخل ذلك المجتمع. والكتلة لا تشعر بالعداء تجاه الكاتب لأنها تعرف يقيناً أنه يسعى إلى الإساءة إليها بل لأنها لا تعرف يقيناً أنه يهدف إلى إعطائها أفكاراً أفضل.. وذلك بالضبط ما حدث في معظم فترات التاريخ المخجل المليء بالصراع بين جميع الراغبين في الإصلاح من سقراط إلى عيسى المسيح وبين الكتلة المهترئة على أرصفة الشوارع.

إنها حساسية الثقافات المتخلفة التي تبدو أكثر قدرة على القمع من أي نظام سياسي محدد الأبعاد.. ونحن هنا في ليبيا نواجه حساسية ثقافتنا المتخلفة بدون معونة تقريباً. إننا لم نتعلم بعد كيف نحقق مستويات الخلق الفني المعروفة في العالم، ولم نتعلم أيضاً كيف نعرض أفكارنا عبر قيمتها الفنية الخاصة، ولكن ذلك كله لم يجعلنا نتجنب الوقوع فريسة الخوف من مواجهة أخطائنا. فنحن لا نستطيع أن نغامر بالخطأ لأن ذلك يكلفنا مواجهة المجتمع نصف الشرس الذي يرفض وسائل النقاش عادة قبل أن يبدأ النقاش. وأنا أريد أن أضع بين أيديكم مجموعة من الأمثلة المحددة لكي لا يبدو هذا الحديث مجرد لعبة غامضة في تشويه واقعنا هنا. فنحن في ليبيا ـ مثلكم أنتم في بقية بلدان شمال إفريقية ـ نعيش داخل مجتمع أميّ يعتبر القدرة على الكتابة والقراءة منحة من السماء

ويستورد معظم أفكاره من الخارج، ويمضغها مع بقايا ثقافته المهترئة لكي يصنع منها في نهاية المطاف عيد الكرنفال والثقافة. ونتيجة اللعبة المملة أننا وقعنا بدورنا ـ مثلكم أنتم في بقية بلدان شمال إفريقية ـ داخل بوتقة باردة لا تؤدي مهمتها في إحداث عمليات الصهر.. وبدا المجتمع من حولنا مجرد مجموعة من الخلايا عبر المنسقة التي تسير في جميع الاتجاهات، وتتبنى كل الخطط داخل قارب واحد: الرجل الليبي الذي تجاوز الأربعين من عمره حشا رأسه بتجارب الحرب والاستعمار وجلس في المقهى لكي يحارب إسرائيل وبنات المدرسة المجاورة والتنانير القصيرة.. ويمتدح لنا عصر الفضيلة أيام الطليان.

والرجل الليبي الذي تجاوز الستين من عمره حشا رأسه بأقوال الفقي التركي الذي يبيع له المعرفة في الجامع مقابل ثلاث بيضات في الأسبوع، ثم جلس فوق النطع بقية حياته لكي يضع كل ذنوبه فوق عاتق الشيطان، ويعلق أحلامه في إصبع القدر ويستهلك ما ينتجه أولاده في انتظار الذهاب إلى الجنة، فإذا قرر ذات يوم أن يتخذ موقفاً ما تجاه مجتمعه فإن موقفه في الغالب مجرد رفض متعمد مقام على التهديد بالجحيم وغضب الله أيضاً كأن الجحيم مجرد مكان معد للناس السيئي الحظ الذين لم تتح لهم فرصة الولادة في عصر الفقي التركي.

والرجل الليبي الذي لم يتجاوز الثلاثين وقع فريسة الصراع بين مناهج المدرسة المتقدمة وبين مناهج مجتمعه في الشارع، وطفق يبحث عن مكانه في الثقافتين الغريبتين دون معونة من كبار السن. فهو يقف وحده في عالم جديد وصل إلينا ـ مثل بقية مستورداتنا ـ من الميناء قبل أن نتعرف عليه بطريقة مجدية، وقبل أن نعد له

إمكانيات الخبرة أيضاً. والنتيجة أن يقف شبابنا على عتبة البيت الليبي كالغرباء، ويقفون على عتبة البيت الأوروبي كالشحاذين دون أن يبدو ثمة ما يدعو حقاً إلى قبول تلك التضحية.

والعجوز الليبية التي تجاوزت الثلاثين أصبحت أكثر من عجوز ولم يعد ثمة ما تريد أن تحققه سوى أن يتصدق عليها زوجها بثمن التذكرة إلى مكة.. فقد تعلمت طوال عشرة قرون من المعاملة السيئة أن كل ما تستطيع أن تفعله لكي تحوز رضاء الله وتذهب إلى الجنة، هو أن تتزوج رجلاً لا تعرفه وتذهب معه إلى بيته لكي يحلبها لأطفاله ويعلقها على جدار المطبخ مثل بقية الصحون ريثما يوفر لها ثمن التذكرة إلى مكة.

والفتاة الليبية التي لم تتجاوز العشرين، تعلمت في المدرسة مجموعة من الأفكار التي يبدو أنها صممت لكي تعرض حياتها للخطر مثل أي حيوان نادر في مجتمع من الصيادين.. فوالدتها مستعدة لأن تفهم أي شيء إلاّ أن ترى ابنتها تعتبر نفسها نداً لأخيها وترفض أن تغسل الصحون.. ووالدها مستعد لأن يتركها تضيع وقتها في المدرسة مادام ابن عمها لم يصل لكي يتزوجها، ولكنها لن تملك فرصة واحدة للذهاب إلى أي مكان إذا وصل ابن عمها فجأة من معسكر البترول متورماً بالنقود والعضلات وطالب بحقه في امتلاكها.. إن الفتاة الليبية تمثل قمة الصراع في مجتمعنا الحالي، ولكن الآخرين أيضاً ينالون نصيبهم بعدالة.

هذا لا يعني ـ أيها الأخوة ـ أن اشقاءكم في ليبيا مجموعة من لوحوش المتقاتلة. فالواقع أن الصراع الاجتماعي عندنا ـ مثلكم نتم في شمال إفريقية ـ مجرد ظاهرة من ظواهر حب البقاء التي تنازعها الثقافات المتباينة.. فنحن أيضاً نبني علاقتنا على الحب

الأبوي ومخافة الله والرغبة في تحقيق الأفضل واختيار المنهج الأكثر سلامة، ولكن مشكلتنا أننا لا نستطيع أن نتفق فوراً على نتيجة الاختيار، فنحن لسنا ـ في الواقع ـ مجرد مجتمع واحد.. إننا مجتمع واحد أميّ.. وهذه بالضبط هي مشكلتنا. فانظروا عبر النافذة.. إننا لا نختلف عن بعضنا من الداخل فقط بل من الخارج أيضاً.. انظروا جيداً إلى أزيائنا.. إنها تبدو مثل حفلة تنكرية دائمة.. أعني مثل عيد الكرنفال. فالحذاء الذي يضعه العجوز في قدمه لا علاقة له بشكل الحذاء الذي يلبسه ابنه.. إنهما يختلفان من الرأس إلى أخمص القدم، في شكل الحذاء والقبعة وشكل القميص أيضاً، ويستمدان ثيابهما الخاصة من الفترة الواقعة من الفتح العربي في القرن السابع وبين العام الماضي.

وبالنسبة للنساء تبدو اللعبة أكثر مدعاة للدهشة، فالعجوز الليبية ما تزال حتى الآن تتبنى نفس الزي الذي جاء إلينا من عصر هانيبال في قرطاجنة فيما تجلس ابنتها بجانبها في موضة هذا العام داخل غرفة واحدة.. إننا نختلف من الخارج بطريقة مريعة، ولكننا في الواقع نختلف من الداخل أكثر. فأين طريقنا في الزحام؟

إننا لا نستطيع أن نكتفي بالفرجة وتبادل النكات لأن مهمة الكاتب ـ حتى إذا كان كاتباً بدائياً ـ تزيد دائماً عن مجرد الفرجة، إنه لا بد أن يجد لنفسه هدفاً يساعده على تقوية إمكانياته، ولا بد أن يبحث عن رضاه النفسي بمحاولة العطاء. فالمرء في العادة ـ حتى في الثقافات المتخلفة ـ يحترف الكتابة لأنه يعتقد أن لديه ثمة ما يقوله، فإذا ثبت له خطأ ذلك الاعتقاد بطريق أو بآخر فإنه لا بد أن يقع فريسة لليأس. فماذا بوسعنا نحن أن نقول لمجتمعنا المعقد التركيب؟

أنا لا أنوي أن أطلب عونكم، فأنتم أيضاً في الواقع تحتاجون إلى البحث عن إجابة هذا السؤال لأنكم تعيشون المشكلة نفسها، ولأن شمال افريقيه لا تملك شيئاً تقدمه للمعونة في إيجاد الحل. إننا نجلس جميعاً في قارب واحد مليء بالجرذان من أقصى نقطة في أميركا اللاتينية إلى تلال إفريقية غير الخضراء. وليس بوسع أحدنا أن يمد يده للآخر دون أن يتسبب في إغراقه.

إننا لا بد أن نحاول حلّ مشكلتنا بأنفسنا. ومشكلتنا هنا في ليبيا أننا تبرعنا في إحدى لحظاتنا الشعرية بقيادة القافلة التي تمشي في اتجاهين مختلفين، وبقي علينا أن نغمض أعيننا ونفترض أن الله لن يتركنا في نهاية المطاف بدون نقطة التقاء. معظم عاداتنا هنا تدعو إلى الخجل، فنحن مازلنا نفحص زوجاتنا ليلة الزفاف بأصابعنا، ومازلنا نعلم الحياة لأطفالنا بعصا المقشة، ونحطم أرجلهم في الجامع بعصا الفقي المتوحش، ونعلمهم الكذب عندما نقول لهم إن تلك العصا قد هبطت من الجنة مع سورة القدر. إننا نملك كوماً كاملاً من العادات المريضة التي تستطيع بمفردها أن تتسبب في إرهاق مجتمعنا إلى حد خطر، ولكننا لا نستطيع أن نعرضها للنقاش دون أن نتورط في المقامرة الخالية من النتائج.

فالناس في شوارعنا لا يحتملون وخزات النقد، دون أن يفقدوا صبرهم نتيجة الحساسية المفرطة التي تتسم بها أية ثقافة غير ناضجة. والمرء يستطيع بالطبع أن يغمض عينيه ويقرر أن يجرب حظه في تأدية واجب النقد الشجاع، ولكنه بالتأكيد لن يكون بوسعه أن يواصل إغلاق عينيه عندما يفاجأ في اليوم التالي بأنه قد وقع فريسة المقالات النارية التي يتبرع بها المرتزقة للدفاع عن أي شيء. إنه يستطيع أن ينهض في الصباح ويكتشف أنه قد أصبح

جاسوساً صهيونياً، أو ابن عاهرة سكيراً مليئاً بالفضائح أو عدواً لدينه ووطنه. فليس ثمة حد على الإطلاق لمجموعة الشتائم المملة التي يستطيع المرء أن يتعرض لها إذا قرر ذات يوم أن يقول شيئاً يؤمن به.

فالفرد لا بد أن يؤمن بأفكار المجموعة. هذا هو القانون العام في كل مجتمع متخلف، ونحن هنا في ليبيا ـ مثلكم أنتم في شمال إفريقيه ـ نعاني كثيراً من جراء هذه اللعبة المميتة.. والمرء لا يستطيع أن يتنبأ قط بموعد بدء المعركة. فالمجتمع لا يملك قائمة خاصة بالموضوعات الممنوعة المريعة التي لا يرغب في مناقشتها. إنه يتركك تهذي كما تشاء دون هدف محدد ثم يعترض طريقك ذات يوم ويقول لك إنك جاسوس صهيوني دون هدف محدد أيضاً. فالنقد هنا يأتي بالصدفة، أعني بالحظ وحده فأنت تستطيع أن تفلت بمقال شديد اللهجة في إعلان ضيقك من إحدى عاداتنا، ولكنك قد تدفع سمعتك في المرة القادمة ثمناً لمقال أكثر اعتدالاً بشأن تلك العادة نفسها. إنها لعبة مقامرة في الدرجة الأولى، ولكنها أيضاً تسبب بعض الألم. فإذا كنت قد اعتمدت على حظك أكثر مما يجب، فإن مجتمعنا يستطيع أحياناً أن يجرك للمحكمة ويتركك تدفع ثمناً حقيقياً بالعملة المتداولة لمحاولتك الطائشة في إصلاح حاله. لأن العقل غير الناضج لا يعتبر النقد مجرد محاولة لفتح باب النقاش في فكرة ما، بل يعتبره إهانة متعمدة تمَّ تدبيرها بإتقان على يد ولد تافه يتعاطى الكتابة وبعض العادات السيئة الأخرى لكي يشغل وقت فراغه. إن مجتمعنا في ليبيا ينظر إلى الكاتب من أعلى، ويعامله باعتباره مجرد ولد نصف شقي عاطل عن العمل، لأن الكاتب ظاهرة جديدة في هذا المجتمع. إنه بدوره مجرد بضاعة مستوردة من أوروبا، فالالتزام بأداء

مهمة النقد، وقبول التضحية من أجل كلمة الإنسان صفتان جديدتان في قاموس الكاتب العربي في كل مكان.

إننا لم نعرف هذه المهمة في كل عصورنا الأدبية الزاهرة. ولم نعرف أيضاً أن الكاتب يملك هدفاً معيناً في إصلاح مجموعته. لقد كنا نقول الأشعار في بلاط القاضي والأمير وكنا نبيع القوافي المدهشة على أرصفة قصر الخليفة، ونكتب الرسائل في الحيوان والشيطان معاً، ولكننا لم نعرف قط أن علينا واجباً اجتماعياً تجاه باعة الماء في حارة هارون الرشيد. لقد كنا أفضل أدباء العالم، ولكننا بالتأكيد لم نكتشف قط أننا ملتزمون تجاه مجتمعنا.. لقد تعلمنا ذلك من أوروبا. تعلمناه من الديمقراطيات الحديثة التي صنعت هذا النوع من الكتاب عبر انتفاضة الثقافة الغربية لاسترداد حقوق الإنسان. لقد تعلمناه مرة واحدة مع آلة الطباعة وفكرة الصحافة الحرة، ولا بد أن ندفع الثمن من أجل بضاعتنا الجديدة قبل أن تصبح جزءاً حقيقياً من المجتمع. ذلك يعني أن دفع الثمن من جانبنا جزء من مهمتنا نفسها. ولكن المجتمع الذي لا يقابلك في منتصف الطريق يجعل أداء هذه المهمة مجرد نوع من الموت الشعري الذي يلقاه المرء في جرائد الصباح، فنحن في ليبيا نستطيع أن نوجه النقد لإدارة الأشغال، والبلدية وشركة الحافلات، ولكننا لا نستطيع أن نواجه كتلة الشعب الليبي بالنقد دون أن نتورط في عملية ما من عمليات سوء التفسير تماماً كما يحدث عندكم في بقية بلدان شمال إفريقيه. والنتيجة، أيها الأصدقاء، أن كل مسيح يحمل صليبه، ولكننا في ليبيا نصنع صلباناً أخف قليلاً لأن كتابنا يستطيعون على الأقل أن ينسوا متاعبهم في أثينا نتيجة الرخاء العام، ثم إنهم يلقون حماية شبه كاملة من الدولة.

فهل أقول لكم بقية المشكلة فيما يخص قضيتنا العامة؟ نحن إخوة في العروبة وتربط بيننا اللغة والدين. ولكننا مع ذلك لا نملك قاموساً موثوقاً به في لغتنا، ولا نستقي معارفنا منها أيضاً. إنها لغة خالية من الكلمات، ولم تنل شيئاً من الدراسة، ولم يهتم أحد بتطويرها، وإذا ذكرت لكم أن اللغة الروسية تملك أكثر من عشرة ملايين كلمة على الأقل بدا لنا بوضوح مدى ضآلة الرباط الذي يربطنا في المغرب.

إن فقر اللغة العربية للمفردات مشكلة، وفقر مكتبتنا إلى الدراسات المعاصرة مشكلة أخرى، ولكننا لا بد أن نعترف بأن ذلك حدث في البداية لكل الشعوب المتطورة.. إنه يحدث في الطريق إلى أعلى، وتدفع الحياة الثقافية ثمنه نهاية المطاف عندما يكتشف المرء أنه يملك في مطبخه مجموعة من الآلات التي لا يعرف أسماءها في اللغة الأم. إن ذلك حدث لكل الشعوب على حد سواء، وسوف يظل يحدث للآخرين أيضاً حتى يتعلم الإنسان ذات يوم أن الله لم يضع رأسه فوق بطنه عبثاً.. والإنسان أيها الأصدقاء، هو ما يجمع بيننا هنا.

إنه ليس اللغة العربية وحدها، ولكنها اللغة العربية التي يتكلمها إنسان هذه المنطقة، لأننا لسنا مجرد وحدة خاصة من أيديولوجية العالم. إننا جزء من الإنسان في الولايات المتحدة وفي بوليفيا ومدغشقر وفلسطين، وليس في وسعنا أن نتجاهل هذه الصلة في تحقيق ذاتيتنا.

إننا لا بد أن نتصل بالعالم من أقرب نقطة، ولا بد أن نشعر بالتزامنا تجاه قضاياه. فالإنسان وحده هو سيد هذا العصر. وليس ثمة ما يستطيع أن يربط أحداً ما بشخص آخر أكثر من شعورهما

المشترك بقيمتهما الإنسانية. فماذا نستطيع نحن هنا أن نفعل. إن لدينا سلة قديمة من العادات السخيفة والتقاليد التي تعوق تقدمنا، ولا بد أن نحملها فوق أكتافنا ونلقيها في البحر، سواء أراد مجتمعنا المعقد أو لم يرد، لأن ذلك في الواقع لا يخصه بقدر ما يخص الجيل القادم الذي لم تتح له فرصة إبداء الرأي. ولدينا سلة أخرى من المصادر الثقافية المتفرقة التي وصلت إلينا من عصر ما بين الفراعنة وبين السلطان عبد الحميد، وجعلت أزقتنا تمتلىء بالأولياء والشحاذين وباعة الكتب الصفراء.. كأن بلادنا ملاذ لخوارق القرون الوسطى، هذه السلة لا نستطيع أن نلقيها في البحر لأن ذلك حمل هائل لا يمكن رفعه مرة واحدة. ولكننا لا بد أن نبذل جهدنا لكي ننغص عليها كل يوم تقضيه بيننا، ونحاول أيضاً أن نجعلها تبدو قبيحة مثل إسرائيل على الأقل.

بعد ذلك، أيها الأصدقاء، نحن لدينا القرآن. لدينا النص السماوي الوحيد في العالم الذي يمكن الوثوق بكل كلمة فيه. ولدينا نتائج هائلة من الدراسات الحديثة التي تصلنا بلا انقطاع من كل الاتجاهات. ونحن نزمع أن نجعل هذا الكتاب العظيم نصب أعيننا في تحديد مواضيع النقاش. فليس ثمة كاتب ليبي واحد لا يستشعر هذه الحاجة إلى تحديد معالم الطريق، ولكن دراساتنا لا بد أن تؤدي دورها في تقديم الجيل التالي إلى مكانه في العالم المفتوح.

فالدراسات الدينية لا علاقة لها بالتشريع السماوي، والمرء لا يستطيع أن يقبل إبقاء الباب مقفولاً بحجة الفقهاء وحدهم، فالدين ليس مهنة لأحد. إنه علاقة بين الله وبين إنسان من خلقه تخرج عن اختصاص الفقي. ونحن نملك القرآن. نملك النص السماوي الوحيد الذي وصل إلى العالم كاملاً فإذا استطعنا أن ننقله إليه بأمانة، وإذا

كنا لم نفقد إيماننا بأنفسنا، فأنا أتوقع أن نساهم في إيجاد جسر أكثر متانة بين إنسان هذا العصر ـ الذي فقد إيمانه في الرومانتيكية الدينية ـ وبين الله.

فالمسيحية خسرت معركتها لأنها كانت تحارب عقل الإنسان. لقد ظلت تمطره بالخرافات عن القديسين وأنصاف القديسين، وظلت تمتهن عقله بقصائد الشعر المعقدة وبيع الأماكن الشاغرة في الجنة حتى اعتراه الملل ذات يوم وقرر أن يذهب إلى الجحيم. إننا هنا لا بد أن نتجنب هذا الفخ، فالإسلام لا يضع نفسه في طريق العقل البشري الباحث عن المعرفة. وليس من مصلحة أحد أن يحاول أن يضعه هناك. لأن ذلك في نهاية المطاف مجرد عمل ضد إرادة الله. ومادام الله يريدنا أن نعرف، فمن يستطيع أن يحرمنا من هذه المنحة دون أن يتعرض للخسارة.

إننا، أيها الاخوة، نملك كثيراً مما نستطيع أن نعطيه إذا بذلنا المحاولة بإخلاص، عبر منهج إنساني متشوق إلى الأفضل يضع نفسه في خدمة الفضيلة الشجاعة التي تقود إلى تبني الخير من أجل كل إنسان في العالم. فالإنسان وحده هو جوهرة الله، والباقي مجرد خرز ملون. الباقي مجموعة من الأطماع الصغيرة والحيل السياسية ووسائل كسب العيش من أي باب والجري وراء الجاه أو الثروة. والمرء لا يستطيع أن يضع أمله في هذا العبث دون أن يواجه خيبة الأمل في نهاية المطاف. انظروا إلى العالم. إن كل شيء تمَّ بناؤه على غير قاعدة الإنسان قد انهار فوق رأس صاحبه من الإسكندر المقدوني إلى الرئيس ليندون جونسون، لم تستطع الحرب أن تثبت شيئاً سوى أنها جريمة خالية من النتائج. ومن الإسكندر المقدوني إلى عصر هتلر لم تستطع العنصرية البلهاء أن تثبت شيئاً

سوى أنها جريمة خالية من النتائج، ومن الإسكندر المقدوني إلى هذا اليوم لم تبقَ في العالم سوى الأعمال الكبيرة التي أقيمت لخدمة الإنسان. أما الباقي فقد انهار فوق رؤوس أصحابه.

إننا ـ أيها الاخوة ـ لا نستطيع أن نتجاهل حقائق الحياة الكبرى. ولا نستطيع أن نترك الأطماع السياسية الصغيرة تقودنا من أنوفنا لأداء واجب الخدمة تجاهها باعتبارنا مجرد مجموعة من شعراء البلاط العباسي. ذلك العصر انتهى إلى الأبد. والسيد الخليفة لا ينال ولاءنا لأننا نحتاج إلى خلعته بل لأننا نعتقد أن بوسعه أن يحقق حياة أفضل لإنسان منطقتنا، فإذا رأيناه يشنق مواطنيه في الشارع ويعلقهم من أعناقهم أمام المارة والكلاب الضالة والذباب، فإن السيد الخليفة لا بد أن يسمع استنكارنا. إننا لا يجوز أن نتردد لحظة في إعلان خيبة الأمل تجاه ما يحدث للإنسان. حتى إذا كان ذلك الإنسان مجرد جاسوس صهيوني، حتى إذا كان مجرد عدو خطر، فإن تعليقه ميتاً في الشارع عمل لا يمكن قبوله. ونحن في حاجة إلى إسرائيل لكي نحس بالعار تجاه ذلك العمل، إننا نحس بالعار تجاه إهانة جلال الموت الإنساني. ونحس بالعار تجاه إرهاب المخبرين السريين، ووضع الكمامة فوق فم الإنسان البائس، كأنه مجرد كلب شرس لا يؤمن جانبه. ونحن لا يجوز أن نجعل جرائم إسرائيل تجاه مواطنينا مبرراً لقبول جميع أخطائنا. فالحرب ضد إسرائيل حرب إنسانية في الدرجة الأولى تهدف إلى رفع الإرهاب عن الإنسان اللاجىء وإطلاق حريته في القول والعمل. وإذا كان كل ما نستطيع أن نعطيه للاجئين بعد ذلك هو أن نكمم أفواههم ونؤمم صحفهم ونعلقهم ميتين في الشارع، فإن حرب التحرير لا بد أن تنال من جانبنا اسمها الحقيقي الذي يصمها بالعبث. إننا ـ أيها الأخوة ـ لا نملك مقياساً آخر سوى شرف الإنسان. ولا بد أن

نعتبر إسرائيل عدوتنا لأنها تهين ذلك الشرف، ولأنها دولة عنصرية مقامة على التمييز الديني الذي لا يمكن قبوله بأي حال، والحرب ضد إسرائيل هدف يهمنا تحقيقه ولكن بوسائل الإنسان وحده. ذلك يعني بالصلابة والعناد الشريف ورفض المساومة واحتمال النتائج المتطاولة مهما بلغ الثمن في نهاية المطاف.

أما الوقوف في منتصف الطريق، وإجراء التجارب بالمعارك العاجلة واستعمال الجنود مثل أرانب المعمل وإرهاب المدنيين وتعليقهم ميتين في الشوارع، فإنه عمل لا علاقة له في الواقع بإسرائيل. إنه مجرد خطة شبه مدبرة لجعلنا أضحوكة في أفواه الآخرين ووصمنا بالبدائية والتأخر وتبديد إمكانياتنا بعيداً عن الهدف. وقد خاض هذا العالم حرباً طويلة ضد ألمانيا النازية، وقاتل من أجل المبادىء التي نقاتل نحن من أجلها، واستطاع أيضاً أن يظفر برضاء كل الشعوب وكل الثقافات، لأنه تعلم أن يقنعها بأن ألمانيا النازية دولة ضد الإنسان نفسه، وإنه ليس ثمة اختيار آخر أمامه سوى أن يقاتلها بأظافره، ويقاتلها في «المدن والقرى والبحر والجحيم» حتى يسحقها بعناده البطولي. هذا ما قاله ونستون تشرشل رداً على طلب الهدنة الواردة من ألمانيا. وهذا بالضبط ما فعله أيضاً في نهاية المطاف.

أما نحن فقد بدأنا حربنا بمثابة تجربة عاجلة لاختيار مدى إصرار إسرائيل على البقاء. كأننا كنا نعتقد أن اللعبة كلها مجرد مزاح بالمدافع الرشاشة. وعندما تأكد لدينا أن إسرائيل تنوي حقاً أن تبقى في أرضنا عقدنا معها هدنة، وبدأنا نقول للعالم إنها مجرد سرطان خبيث يهدد كياننا، دون أن نتذكر أن المرء لا يعقد هدنة مع السرطان. وخلال عشرين عاماً من التردد والخداع وبيع الأكاذيب

للمواطنين التعساء وقراءة الأشعار في نشرة الساعة الخامسة، لم يعد العالم يعرف شيئاً عن مأساتنا في الشرق الأوسط سوى أننا في حالة حرب وهمية مع إسرائيل. وإننا نمثل مسرحية سياسية بجثث اللاجئين المتضورين جوعاً، وبدأ العالم يحتقر لعبتنا. ثم بدأ يحتقرنا أكثر عبر زحمة الأنباء الواردة عن الإرهاب العسكري في مدننا وقطعان المخبرين السريين وتعليق المواطنين في الشوارع مثل أكياس الرمل. وفي نهاية المطاف بات علينا أن نواجه تساؤل شعور العالم عما إذا كنا بدورنا نازيين أكثر من إسرائيل. إنه سؤال حافل بالمرارة تعلقه في عنقنا الأمة العربية المجيدة، وضعف الإرادة والموت بالقطاعي في افتتاحية الصحيفة الرسمية، والنفاق الساذج في وجه الموت أيضاً.

فيا أصدقائي.. إن الفرق بين إسرائيل وبين ألمانيا النازية فرق ضئيل للغاية. العالم كله يعرف ذلك. ولكن الفرق بين الإنسان الذي قاتل هتلر دفاعاً عن شرفه وبين الإنسان الذي يقاتل إسرائيل في الشرق الأوسط ما يزال شاسعاً إلى حد يدعو إلى الرثاء. ومهمتكم أنتم، ومهمة الآخرين أيضاً، أن تمدوا أيديكم لإنسان منطقتنا لكي يعرف مكانه بالضبط قبل أن تقتله أشعار الإذاعات، وقبل أن يضيع كل وقته في ممارسة النقد الشجاع الخالي من لعب المجاملة العمياء والحماس والغرور المتناهي البشاعة الذي تسبب دائماً في خداع الإنسان.

إنها معركة يقف فيها الله إلى جانبكم، وليس ثمة شك أنكم لن تخسروا على الإطلاق مادامت الرؤية واضحة أمامكم، ومادام الجانب الآخر لا يضم أحداً سوى المخبر السري الأبله وشاعر البلاط العباسي الذي يكتب مقاله الأسبوعي جاثياً على ركبتيه.

إن الله ـ أيها الاخوة ـ لا يقف هناك. أنتم تعرفون ذلك، وتعرفون أنه تركهم يندحرون أمام إسرائيل وأمام أنفسهم دون أن يمدهم بشيء من عنده سوى العواصف والمطر.. فهل تتركون مواطنيكم يرتكبون نفس الخطأ مرة أخرى؟ وهل ترون ثمة شيئاً في العالم لا نستطيع أن نضحي به لكي نعود إلى رحاب الله؟ أنا لا أنوي أن أضيع وقتكم في ترديد الأسئلة، ولكني أريد أن أتمنى لكم حظاً حسناً في اختيار الإجابة السليمة. لأن ذلك يهمنا كثيراً. فيا أصدقائي لكم كل أمنياتنا بالتوفيق وليكن الله معكم، وليوفق خطاكم.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

1969

اللغة والفكر

سأقول هنا أن لغتنا العربية ليست جميلة.. وسوف ينهض أحد ما ويشير لي بإصبعه غاضباً لكي يعلن للمواطنين أنني ـ في الواقع ـ عدو الله ـ وإنني سوسة تنخر في عظام الأمة، وسوف أهز له رأسي وأقول له مرة أخرى إن لغتنا العربية ليست جميلة فاللغة، أية لغة، مجرد مجموعة من الأصوات. إنها بالضبط ـ مثل النوتة الموسيقية ـ مجرد «وصفة» متفق عليها لترتيب الأصوات الصادرة من مجموعة الآلات الموسيقية. والمرء لا يسمع النوتة، ولا يستطيع أن يصفها بالجمال أو القبح. إنه يسمع اللحن وحده، ويصدر حكمه على اللحن وحده أيضاً.. ذلك يعني أننا لا نسمع اللغة. فليس ثمة إنسان في العالم يصدر لغة من حلقه. إن الذي نسمعه في الواقع هو حزمة الموجات الهوائية التي تشبه الشفرة. فإذا كنا نملك مفتاح الشفرة، أي إذا كنا نفهم اللغة، فإننا نتلقى الإشارة داخل المخ ونفسرها لأنفسنا ونعرف ماذا يقال لنا. أما إذا كنا لا نفهم اللغة، فإن حركة الموجات الهوائية تبدو بالنسبة لنا مجرد «رطانة» فوق طبلة الأذن. وكذلك الأمر بالنسبة للكتابة فنحن نستعمل «نوتة»

خاصة لنقل اللغة إلى العين، كما نملك نوتة خاصة لنقلها إلى طبلة الأذن. وليس ثمة إنسان في العالم يكتب «لغة»، إن الذي نراه في الواقع هو «رموز» لمجموعة من الأصوات المتفق عليها فإذا كتبت لك هنا الحروف الثلاثة التالية على هذا النحو «ران» فسوف أجعلك تعتقد أن الأمر مجرد خطأ مطبعي، ولكنني إذا أعدت ترتيب الحروف طبقاً للنوتة المتفق عليها بيننا، فسوف ترى أن «نار» هي الكلمة التي أريد أن أكتبها. ذلك يعني أن اللغة ليست «كائناً» قائماً في خارجنا.. فليس ثمة أحد بيننا يتكلم لغة أو يكتب لغة. إن ما نفعله في الواقع هو إصدار الموجات الصوتية طبقاً لنوتة خاصة أو كتابتها طبقاً لنوتة خاصة أيضاً. ولكن «فهم» هذه النوتة هو الذي يمنح «اللغة» شكلها المحدد. والفهم يحدث في المخ وحده. فالمرء لا يفهم اللغة العربية لأنه يملك أذناً عربية تحت عمامته، بل لأنه يحمل في مخه مفتاح الشفرة الخاص بتلك اللغة، وإذا حمله سوء الحظ إلى الصين، وأقام هناك وقتاً كافياً لتعلم الشفرة الخاصة بالصينيين، فإن أذنه تكتسب الشفرة ولن تكتسب لوناً أصفر لكي تفهم العربية، ولن تكتسب لوناً أصفر لكي تفهم المخ.

فماذا يعني الجمال أو القبح بالنسبة للمخ؟ الإجابة المثيرة للدهشة أن المخ أيضاً ليس كائناً مستقلاً عنا. إنه مجرد كيس لزج من العروق والدم يستمد قيمته في الدرجة الأولى من «الفكر» الذي يحويه بداخله. فإذا كان فارغاً فإنه يظل مجرد كيس لزج، وإذا كان مليئاً فإن قيمته تتوقف على «نوع» البضاعة المحفوظة بداخله. وذلك بالضبط هو ما نعنيه عندما نقول إن اللغة وعاء للفكر، فنحن نقصد أن المخ الذي يفسر رموز اللغة هو في الواقع الوعاء الذي يضم الفكر الإنساني.. فإذا منحته اللغة ـ المكتوبة أو المنطوقة ـ فكراً عظيماً فإنه يصبح وعاء عظيماً، أما إذا منحته اللغة حفنة من الرماد

فإنه يصبح مجرد وعاء للقمامة. وهذه هي المعادلة القاسية، فاللغة ليست هي الموجات الهوائية الجامعة للصوت، وليست هي الرموز الخاصة بالحروف، إنها حصيلة المخ من عملية تفسير الرموز.

ذلك يعني حصيلة الفكر، ولأن الصفة الوحيدة الممكنة للفكر هي مدى نصيبه من الوضوح، فإن القرآن الكريم ـ الذي استعمل اللغة العربية بمثابة وسيلة لنقل أفكاره ـ قال عن نفسه ﴿كتاب عربي مبين﴾ أي واضح، ولم يذكر صفة «الجمال أو القبح»، في أي موضع من الكتاب بأسره. فالصفة الوحيدة الممكنة للغة هي الوضوح الممكن في نقل الفكر، وإذا قامت اللغة بهذه المهمة، فإنها تنال صفة «الجمال» وإذا فشلت في أدائها فإنها تنال صفة «القبح». وأنا أريد أن تملك هذه النقطة حاجتها من النقاش:

«فالجمال» بالنسبة للغة صفة ثانية لا يمكن تحقيقها إلاّ بعد أن تحقق اللغة صفة أولية هامة، وأنا أعني بذلك، أن اللغة لا بد أن تصبح أولاً وسيلة لنقل «الفكر العظيم الواعي» لكي يمكن وصفها بالجمال، أما القول بأن مجموعة الرموز ـ في ذاتها ـ جميلة أو قبيحة، فإنه ـ في الواقع ـ مجرد هراء عنصري. اللغة ـ مثل المخ نفسه ـ وعاء للفكر، والمرء لا يستطيع أن يرى فيها سوى مجموعة من الرموز الصوتية، كما لا يرى في المخ سوى كيس من الدم والعروق ـ حتى تلتقي اللغة والمخ معاً داخل ظاهرة الفكر. عندئذٍ تتخذ قيمتها طبقاً لقيمة ذلك الفكر ونصيبه من الوضوح والتناسق، فإذا قال أحد ما إن اللغة العربية لغة جميلة، فإنه لا بد أن يعني أنها تحمل فكراً عظيماً واعياً، أما إذا كان يريد أن يقول بذلك أن «النوتة» العربية المتفق عليها بنفس الحروف نوتة جميلة، فإن المرء لن يجد تفسيراً معقولاً لهذه اللعبة ـ سوى أن الإنسان العربي ـ لسبب

أو لآخر ـ يخلقه الله مطرباً بالمجان. فدعونا نستغفر الله مرتين، ودعونا نسأل أنفسنا بعد ذلك، على عادة العرب الكرماء، هذا السؤال المليء بالكرم إلى حافته «أليست اللغة العربية أعظم وعاء للفكر الإنساني في العالم؟». وأنا أقول أجل، إنها لغة القرآن، ذلك الكتاب المذهل الأبعاد الذي لا يستطيع المرء أن يقرأه بتمعن دون أن يعتريه الشعور بأن اللغة العربية، واللغة العربية وحدها، هي التي تملك الفرصة الحقيقية لارتياد الطريق أمام إنسان العصر القادم، فالقرآن فتح فكري منقطع النظير داخل جميع الفلسفات والأشعار والمبادىء، وليس ثمة فلسفة في العالم، وليس ثمة محاولة لإيجاد فلسفة أيضاً لا تتضاءل حقاً بجانب القرآن. ولكن انظروا ماذا فعلنا حتى الآن. نحن اعتبرنا القرآن «معجزة» لأسباب لغوية محضة، وبذلنا جهداً خارقاً لإثبات هذه الحقيقة متناسين بالطبع أن اللغة ـ مهما بدت متناسقة ـ مجرد وعاء للفكر، وأن القرآن لن يصير معجزة بالتناسق اللغوي وحده إلاّ إذا اكتشفنا أيضاً تناسقه الفكري المذهل. ولكننا لم نفعل ذلك طوال أربعة عشر قرناً حافلة بالفقهاء.

إن الفكر القرآني ـ طبقاً لرأي الجماعة ـ لا يزال، حتى هذه اللحظة يساير تفسير الإنجيل في معظم النقاط ما عدا بالطبع أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أما القول بألوهية المسيح، فإن البروتستانت يرفضونها أيضاً، كما، يرفضها المسلمون، وبذا يصبح الفرق الوحيد بين المسلم والمسيحي أن أحدهما لا يشرب الخمر ولا يأكل لحم الخنزير وينال في مقابل ذلك أربع نساء، أما الصلاة والصيام والحج والزكاة فإنها في الواقع مشتركة أصلاً بين الديانتين. فهل هذا هو الفرق بين القرآن وبين الإنجيل؟ الإجابة ببساطة أن ذلك ـ في الواقع ـ هو كل الفرق المعترف به حتى الآن، لأننا ننظر

متناهية الضآلة لإيجاد البعد الفكري لذلك الكتاب المذهل الأبعاد، وإذا كان ثمة نتيجة واضحة لهذا العمل غير المجدي فنحن نراها الآن بأعيننا. إن الناس غير المسلمين لا يرون في القرآن أي فرق منهجي عن الإنجيل أو البوذية. إنه ـ بالنسبة لهم مجرد كتاب ديني آخر. ولكن القرآن ليس كتاباً دينياً آخر فقط. إنه منهج فكري يسري تحت سطح اللغة ـ المكتوبة أو المنطوقة ـ ويحمل إلى عقل الإنسان تياراً هائل الاندفاع من الفكر الغني المتسم بالوعي والإعجاز. وإذا كان بوسع أحدنا ذات يوم أن يخترق ستار الرموز الصوتية الكامنة في اللغة ويجردها من شوائب الفهم الحرفي، فإن القرآن سيفتح أمامه أفقاً غير محدود من الفكر الأصيل. ذلك بالضبط هو شكل المعجزة، فاللغة العربية ليست أعظم وعاء للفكر الإنساني لأنها «نوتة» عربية بل لأنها تحمل التيار الخفي الكامن في القرآن، الذي لا يزال يلوح بمثابة نجم متناهي التوهج في سماء الفكر الإنساني بأسره.

ونحن نستطيع أن نفقد أربعة عشر قرناً آخر في إطراء لغتنا العربية الجميلة، ولكن ذلك لن يحمل القرآن إلى إنسان هذا العصر الذي لا يعرف اللغة العربية، ولا يعتقد أنها جميلة أيضاً. إن الفكر هو العملة الوحيدة التي تقبل في جميع الأسواق، الفكر، وليس اللغة، هو معجزة القرآن، وهو أيضاً طوق النجاة الذي تحتاجه الإنسانية أكثر من سواه عبر زحام الفلسفات الطائشة في العصر الحالي. إنه شيء يشبه الكارثة أن يظل الفكر القرآني مخفياً وراء «النوتة» العربية، ونظل ندبج قصائد الإطراء للغة التي ليست شيئاً في نهاية المطاف سوى مجموعة من الموجات الصوتية. فدعوني أقول هنا مرة أخرى إن المخ البشري مجرد كيس من الدم والعروق إذا كان لا يحمل فكراً نافعاً، فكذلك الأمر بالنسبة للغة فهي أيضاً

مجرد كيس من الموجات الصوتية حتى يمنحها الفكر مضموناً أصيلاً، ومادمنا نؤمن بأن القرآن معجزة فلا بد أننا نعني أنه معجزة لجميع الناس وليس لمن يفهم اللغة العربية فهماً حرفياً فحسب. أي أنه معجزة فكر أيضاً، وليس ظاهرة لغوية فقط، والتفسيرات الحالية التي تتبرع بشرح القرآن مطالبة بإظهار طبيعة هذا الفكر، وطبيعة إعجازه لمن يفهم اللغة العربية ولمن لا يفهمها أيضاً، فشكل «النوتة» لا يقف حائلاً أبداً دون الاستمتاع باللحن النهائي.

إن الفكر ـ مثل الموسيقى ـ لغة للعالم بأسره، ونحن نستطيع أن نفهم المشكلة بطريقة أفضل إذا تذكرنا الآن أن لغة «النوتة» لا تحول أبداً بيننا وبين اللحن الكلي، وكذلك أيضاً لغة القرآن. إن الفكر القرآني موجود داخل اللغة العربية، كما يوجد البعد الموسيقي داخل النوتة، ونحن فقدنا أربعة عشر قرناً في التغني «بجمال» لغتنا، كما ينفق المرء أربعة عشر قرناً في التغني بجمال «النوتة» وحدها لأنها متناسقة التركيب والشكل، ونحن نعرف أن هذه النوتة معجزة، ولكن الناس الذين لا يفهمون رموزها لا بد أن يسمعوا اللحن نفسه أو يظلوا على اعتقادهم بأننا مجرد حفنة من البلهاء، فاثبتوا للعالم معجزة القرآن، دعوه يسمع اللحن بنفسه لأن النوتة وحدها لا تكفي.

1969

حكاية لطفل أعرفه في غزة

«.. وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب واجتمعوا في سوكوه، واجتمع شاول ورجال إسرائيل ونزلوا في وادي البطم واصطفوا للقاء الفلسطينيين، وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبل من هناك والوادي بينهم، فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب؟ أما أنا الفلسطيني وأنتم جنود شاول اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إلي. فإن قدر أن يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيداً.. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا..».

هكذا ـ أيها الصديق الذي أعرفه في غزة ـ بدأ الصراع على أرضكم.. مواطنوك الشرفاء يقفون فوق الجبل للدفاع عن حقولهم وأبقارهم، وشاول يقف فوق الجبل المقابل لسرقة الحقول والأبقار، وجدك الشجاع ينتصب مرفوع الرأس في وسط الوادي ويدعو لكي تتخذ العدالة مجراها معتقداً ـ بحسن نية ـ أن العدالة لن تحرمه من لقمة عيشه. ثم خرج إليه سيدك داوود عليه السلام..

أنت لا تعرف داوود، ولكنه كان رسول العدالة، وكان مجرد صبي قليل الخبرة يرعى الأغنام التي يسرقها شاول من المزارع المجاورة. وقد حمل مقلاعه البسيط الصنع، وانطلق إذ ذاك يركض أمام مواطنيه اللصوص لكي يقتل لهم جليات بأمر من الرب «نفسه». وعندما اقترب منه قال له معيراً أيضاً:

« ..أنت تأتي إليَّ بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل، هذا اليوم يحبسك الرب بيدي فأقتلك وأقطع رأسك وأعطي جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض..».

ووقف جدك الشجاع أمامه فاغراً فمه من الدهشة، فقد كان يعتقد أن داوود الصغير السن لا يستطيع في الواقع أن ينفذ تلك المجزرة الدامية بمقلاعه وحده، وكان يريد أن يرده إلى صوابه ويقنعه بالعودة بحثاً عن أغنامه قبل أن يسرقها لص آخر. وقد قال له غاضباً «ألَعلي أنا كلب حتى أنك تأتي إليَّ بعصا» عد لكي تحضر سلاحاً حقيقياً على الأقل لكي تقطع به رأسي. ولكن سيدك داوود عليه السلام لم يتحرك من مكانه، كان يملك مقلاعه السحري في يده، وكان يعرف على وجه اليقين أنه يكفي لإلحاق الهزيمة بالعالم كله، لأن ذلك المقلاع ـ أيها الصديق الذي أعرفه في غزة ـ كان مصنوعاً من سعف نخلة سماوية، وكان مثل كل شيء من إسرائيل مقلاع الرب نفسه.

ثم بدأت المعركة.. جدك الشريف يقاتل بسيفه الذي وفر ثمنه من قوته اليومي لكي يدافع عنك وعن قطعة الأرض، وسيدنا داوود عليه السلام يقاتل بأسلحته السرية التي نزلت عليه من السماء لكي يسرقك أنت ويسرق قطعة الأرض لحساب شاول، فاسمع ماذا حدث من فم «الرب» نفسه:

« ..أسرع داوود وركض نحو الصف للقاء الفلسطيني ومدَّ داوود يده إلى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض، فتمكن داوود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله. ولم يكن سيف بيد داوود فركض داوود ووقف على الفلسطيني وأخذ سيفه واخترطه في غمده وقتله وقطع به رأسه. فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا فقام رجال إسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا الفلسطينيين. فسقطت قتلى الفلسطينيين في طريق شعرايم إلى جت وإلى عقرون. ثم رجع بنو إسرائيل من الاحتماء وراء الفلسطينيين ونهبوا محلتهم، وأخذ داوود رأس الفلسطيني وأتى بها إلى أورشليم ووضع أدواته في خيمته..».

رسول العدالة يملك رأساً طازجاً في خيمته، هذه نهاية الفصل الأول من حكايتي السماوية أيها الصديق الذي أعرفه في غزة، إنها نهاية رديئة، أنا لا أستطيع أن أنكر ذلك رغم رغبتي في الدفاع عن موهبة الرب في كتابة القصص، ولكنها على أي حال نهاية ربانية من جميع الوجوه، وردت بحذافيرها في كتاب الرب بمثابة مقدمة لملحمة داوود عليه السلام. فدعني أبدأ الفصل الثاني قبل أن يقطع الرب رأسي مقابل شكوكي. «..وسمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داوود ملكاً على إسرائيل فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داوود. ولما سمع داوود نزل إلى الحصن، وجاء الفلسطينيون وانتشروا في وادي الرفائين وسأل داوود من الرب قائلاً اصعد إلى الفلسطينيين لتدفعهم ليدي؟ فقال الرب لداوود اصعد لأني دفعاً أدفع الفلسطينيين ليدك فجاء داوود إلى بعل فراصيم وضربهم داوود هناك وقال قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه».

هل سمعت ذلك أيها الصديق الذي أعرفه في غزة؟ لقد سأل سيدنا داوود عليه السلام قائلاً: « هل أنت معي ضد الفلسطينيين لكي نأخذ أبقارهم وأرضهم وبناتهم!».

فقال له الرب «أنا معك. ما تخافش» أعني هكذا باللغة العبرية الفصيحة. ولقد اقتسم الرب أبقاركم مع نبيه واقتسم أمهاتكم أيضاً، العذراء يتسلى بها أبناء الرب في الليل، والعجوز تخدم أبناء الرب في النهار وتمسح لهم الكندرة.

«أنا معك. ما تخافش» يقول الرب لسيدنا داوود في بعض الأحيان لكي يشد قلبه ضد الفلاحين البسطاء، وفي أحيان أخرى يفعل الرب كل شيء بنفسه دون أن يكلف حبيبه داوود مشقة التعب كما حدث في معركة الرفائيين، فاسمع بنفسك أيها الصديق غير المقدس الذي أعرفه في غزة، ماذا فعل الرب من أجل أطفاله المقدسين في معركة الرفائيين « ..ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا أيضاً وانتشروا في وادي الرفائيين، فسأل داوود من الرب فقال:

> «لا تصعد بل در من ورائهم وهلمّ عليهم مقابل أشجار البكا.
> وعندما تسمع صوت خطوات في رؤوس أشجار البكا حينئذٍ
> احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين،
> ففعل داوود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين..».

وصوت الخطوات وراء الأشجار يخص بالطبع الرب نفسه الذي يتسلل دائماً من سمواته ويزحف خفية في الظلام لكي يفاجىء الفلاحين من الخلف، وعندما تحصل المفاجأة ويتوفر له عنصر المبادرة يمحوهم عن آخرهم بأسلحته غير المحدودة ويسوق أبقارهم إلى حظيره حبيبه داوود عليه السلام.

أف، أيها الصديق الذي أعرفه في غزة. إن الرب لم يكن يملك ثمة ما يفعله سوى أن يطارد مواطنيك في صحبة سيدنا داوود عليه السلام، ويمحوهم عن آخرهم، أعني هكذا لله في لله، من دون بقية شعوب العالم، من دون بقية الناس الذين يملأون الأرض على امتداد المنطقة بين الصين وبين أميركا لم يجد الرب إنساناً يستحق القتل سوى مواطنيك الشرفاء، وقد أبادهم عن آخرهم بأسلحته السماوية ورماهم بعد ذلك في نار جهنم بحجة أنهم يعبدون الأصنام وكان جميع الناس في العالم يعبدون الأصنام، من الصين إلى أميركا لم يكن ثمة أحد لا يعبد الأصنام، ولكن الرب لم يجد سوى مواطنيك الشرفاء لكي يبيدهم بأسلحته السماوية، ويسلط عليهم سيدنا داوود عليه السلام.

أف. أيها الصديق الذي أعرفه في غزة. لقد كان من سوء حظ مواطنيك أنهم اختاروا فلسطين محلاً لإقامتهم دون أن يتبرع أحدهم بأن يقرأ الفنجان ويعرف مقدماً أن سيدنا موسى عليه السلام يزمع أن يحرر أبناء الرب من قبضة فرعون ويقودهم عبر الصحراء إلى أول أرض خصبة تصلح لإقامتهم. لقد كان بوسعكم أن تعرفوا مقدماً أن هذه الأرض هي فلسطين لأن بقية المنطقة كلها صحراء، وتعرفوا أيضاً أن سيدنا موسى عليه السلام سيعطيها لأبناء الرب دون إذن منكم، وكان بوسعكم أن تتجنبوا الإبادة على يد الرب نفسه الذي تقدس اسمه في الأعالي.

أف أيها الصديق الذي أعرفه في غزة، لماذا لم تتعلموا قراءة الفنجان أو على الأقل قراءة الكارطة، فقد كان من الواضح أن بني إسرائيل سيخرجون من مصر عاجلاً أو آجلاً، وكان من الواضح أن موسى عليه السلام لن يطلعهم من مصر لكي يرميهم في الصحراء

ويتركهم يموتون بالعطش. الرب ليس باهظ الثمن إلى هذا الحد ثم إنه يملك المقلاع.

وقد أعطاه لسيدنا داوود عليه السلام، لقد كان بوسعكم أن تعرفوا ذلك مقدماً من الفنجان، وتعرفوا أيضاً أن سليمان سيأتي في أعقاب داوود عليهما معاً كل السلام ويأتي قبلهما إلياس عليه السلام ويعقوب عليه السلام ويوسف عليه السلام، وأن الرب سيقف بجانب أبنائه إلى آخر قطرة من دمه ويأخذ أبقاركم وعجائزكم ويقتلكم بيده ويلعنكم ويحملكم أيضاً إلى النار.

لماذا لم تتعلموا قراءة الفنجان؟

لماذا لم يقف بينكم رجل عاقل ويقول لمواطنيكم: «احترسوا من الرب، احترسوا من سيدنا موسى عليه السلام، إنه قادم من مصر ممتلىء الجراب بالمن والسلوى وإذا لم تطعمه السماء إلى الأبد فإنه مضطر إلى أن يأخذ حقولكم وأبقاركم، احترسوا من داوود عليه السلام الذي يملك مقلاعاً سماوياً. احترسوا من سليمان عليه السلام الذي لا يملك المقلاع فحسب بل يملك أشياء أخرى أكثر تعقيداً.

لقد كان الفنجان قادراً على إنقاذ شعب فلسطين. وكان بوسع الفلاحين البسطاء الذين حملهم الجهل وحده للإقامة في تلك المنطقة أن يتجنبوا الموت على الأقل، ويذهبوا لملاقاة سيدنا داوود في صحراء سيناء ويقبلوا الأرض بين يديه ويقولوا له بلسان السماء المعترف به:

«شالوم يا أصحاب المقلاع. نحن نعرف كل شيء مقدماً، ونعرف أن الرب أعطاكم أرضنا، فليتقدس اسمه في الأعالي، إننا لا نزمع أن نخالف أوامره بالطبع، تفضلوا آقتلونا عن آخرنا..».

أف أيها الصديق الذي أعرفه في غزة. ما الذي دعاكم إلى قتال سيدنا داوود وسيدنا موسى وسيدنا سليمان، ألم يكن بوسع أحدكم أن يحدس أن أنبياء الرب يملكون المقلاع.

1970

مقدمة في طبيعة الكلمة

إذا زعم لك أحد ما أن «الكلمة» ـ أي كلمة ـ مجرد جسم مادي عادي، فمن المتوقع أن تبادر إلى رفض هذا الزعم على الفور باعتبار أن طبيعة المادة المحسوسة شيء آخر مختلف كلية عن الفكرة المتمثلة في «الكلمة» وأن إثبات الفرق عمل في متناول اليد. ولكن مواصلة النقاش قد تثبت فوراً أنك وحدك على خطأ، وأن «الكلمة» ليست فكرة بل هي «رمز» محدد للدلالة على «شيء مادي» صفته الوحيدة أنه دائماً مادي. فالكرسي ليس هو مجموعة حروف الكلمة، بل «الجسد الخشبي المصنوع من الخشب الذي تقعد فوقه عندما ترغب في الجلوس». والبحر ليس هو حروف الباء والحاء والراء بل الحوض المائي المحيط باليابسة. وكل شيء في العالم وكل كلمة من القاموس مجرد «وجود مادي» يملك رمزاً محدداً في لغتنا.

ذلك أيضاً يضم كلمات الله في «القرآن» فالكتاب المقدس لم يصل إلينا بلغة خاصة من خارج العالم بل بلغة نشأت هنا فوق هذه الأرض، وخضعت لجميع القوانين المحددة أمام ظاهرة اللغة. والمرء

لا يستطيع بالطبع أن يتوقع شيئاً آخر سوى أن تبقى كلمات هذه اللغة داخل إطارها المادي. وهذه النقطة بالذات تحتاج إلى نقاش مفصل.

فصفة «المادية» لا تلحق عادة بالفكر الديني دون أن تثير الريبة، ولكن المرء مطالب بأن يتأنى هنا قبل أن يتورط في سوء فهمي كالعادة دائماً، لأن «المادية» التي أعنيها فيما يخص «الكلمة» مجرد نطاق فكري، وليست «حداً ملموساً» بأي حال. وذلك يعني في جملة واحدة: أن المادة في الكون بأسره وجود داخل نطاق «الزمن والمسافة» وأن الكلمة في أية لغة وفي كل مكان لا تستطيع أن تمتلك «مفهوماً» خارج هذا النطاق. إن الفكر أيضاً ـ ما دام منفذه الكلمة ـ تصور مادي يقع دائماً في زمن ومسافة محددين ولكن نطاقه يتسع بموجب قانون التطور الذي يحكم تفاصيل العالم النسبية. وأنا أقول إن الإنسان لم يعرف قط «كلمة» ليست محددة بأبعاد الزمن والمسافة، أو بصيغة أخرى إن جميع مفهوماتنا التي نتبناها عن طريق «اللغة» مفهومات مادية بحتة. والأمر يسهل إثباته بمتابعة كلمات معروفة لنا.

فلفظ «أرسل» لا بد أن يعني بالنسبة لي وبالنسبة لك «نوعاً خاصاً من الحركة»، والحركة تغيير للوضع بالنسبة لنقطة ثابتة، وإذا قلت لك «إنني أرسلت أحداً إلى مكان ما»، فأنت لا تملك مفهوماً آخر لهذا الحدث سوى أنني «قمت بتغطية المسافة والزمن اللذين يفصلانني عن المكان بواسطة إحداث حركة في شيء آخر». إن الفعل «أرسل» لا يمكن أن يوجد خارج هذا النطاق. وكذلك الأمر بالنسبة لجميع «الأفعال»، لأنها دائماً ـ كما يقال في النحو ـ إحداث الحركة في الزمن وليس ثمة كلمة في أية لغة وفي أي عصر

تستطيع أن تنفذ عبر هذا النطاق، إن كل شيء في الكون يوجد هنا، وتوجد معه لغاتنا ومفهوماتنا بطريقة تلقائية بحتة، كما تصبح كل الأشياء حمراء بمجرد وجودها في نطاق اللون الأحمر.

إن «الزمن والمسافة» مصباحان هائلان يلفان الكون بضوئهما، وليس ثمة شيء يستطيع أن يقع خارجهما دون أن يفقد انتماءه لهذا العالم. ولكن ماذا يحدث عندما تتكلم عن «الله»!

فوجود الله وحده هو بالذات الوجود غير النسبي الذي لا يقع داخل بعدي الزمن والمسافة فقط بل خارجهما أيضاً، ونحن ـ عندما نتكلم عنه ـ نستعمل لغة «مادية» باعتبار نطاقها غير المطلق ـ ولا نستطيع بأي حال أن نضم المطلق داخل النسبي دون أن نضطر إلى تجسيده. فكيف نفهم «أفعال» الله «بأفعال لغتنا» التي لا تملك مفهوماً آخر سوى أنها إحداث الحركة في الزمن.

إن المشكلة لا تبدو مستحيلة الحل فحسب، بل إنها خادعة بطريقة لا يمكن تجنبها. فنحن لا نستطيع أن نفهم طبيعة الفعل في كلمة «أرسل، وخلق، وقال» إلاّ باعتبارها حدث في زمن، فإذا كان الأمر يخص وجوداً مختلفاً خارج نطاق المسافة والزمن فإن مفهوماتنا تصبح نسبية على الفور، ونتورط بطريقة تلقائية في مشكلة «التجسيد» ـ التي تنجم دائماً عن حصر المطلق في النسبي ـ وتتحول جميع الأبعاد من مكانها المتعالي لكي تخضع للبعدين الصغيرين المعروفين في عالمنا «المسافة والزمن». هذه المشكلة ظفرت بحلين خاطئين في تاريخ الفكر الإنساني:

الحل الأول: اختار القاعدة الأكثر يسراً وانطلق من نقطة إلحادية تعتبر «المسافة والزمن» وحدهما هما البعدان النهائيان في العالم. وبذا أصبحت «المادة» هي الأصل. واكتسبت صفة الأزلية

تحت ضغط الحاجة إلى إيجاد نقطة البداية. ولأن هذا الاتجاه يرفض «وجود غير المادة» فإن إلهه الوحيد يتمثل في «أفضل صور المادة» وحدها أي في «المجتمع» كما يبدو الأمر واضحاً عند ماركس.

الحل الثاني: اختار قاعدة أكثر ضماناً وانطلق من نقطة «فكرة الإله» الذي يدبر كل شيء ويحل المشاكل ويحفظ الزرع والأطفال، ولكنه بدوره لم يخرج قط عن نطاق «المسافة والزمن»، ولم يضع إلهه في بعد أعلى من أبعاد المادة بل ربطه بهما ـ تحت ضغط تصوراته اللغوية. ولكن الحلين معاً بقيا داخل نطاق مادية الكون، وبقيا مع فكرة الإله أو بدونها تحت طائلة «الزمن والمسافة» اللذين يلفان جميع تصوراتنا النسبية ولم يكن ثمة بد بعد ذلك من تجسيد عالم الله في جميع تفاصيله، وتجسيد أفعاله بالذات.

فالله «يرسل» داخل نطاقي الزمن والمسافة، ويخلق ويتحدث ويقوم بكل أفعاله عبر بعد محدد بإحداث الحركة في الزمن. ولغات النصوص الدينية لا تستطيع أن تخرج من هذا النطاق ما دمنا لا نملك نطاقاً سواه في الكون بأسره. إن الحل يكمن في ظاهرة أخرى غير ظاهرة اللغة. وأنا أعني بذلك أنه يكمن في طبيعة العلاقة بين المسافة والزمن من جهة وبين المطلق من جهة أخرى.. تلك الفكرة الملهبة للخيال التي تبدو عبر منجزات العقل الإنساني بمثابة منفذ شبه مفتوح على عالم الله نفسه، فنحن نعرف أن «المعقول» لا يقع داخل أبعاد الوجود المادي وحده بل وراءه أيضاً، إنه يمتد بلا انقطاع داخل المسافة والزمن، أي داخل عالمنا المحسوس، ويواصل امتداده بعد ذلك وراء هذين البعدين.

فالمربع ـ قبل أن يوجد ـ لا بد أن يكون متساوي الأضلاع «ومعقولية» هذا القانون وراء وجود المربع نفسه، أنه لا يستطيع أن

يوجد في المادة إلاّ إذا خضع لهذا القانون الكلي الشمول. فالمطلق يسبق المسافة والزمن، ويعمل بداخلهما أيضاً، لأن المربع يفقد صفته على الفور ـ وبالتالي يفقد وجوده ـ إذا زاد أحد أضلاعه عن الباقي في أية لحظة وتحت أية ظروف. إن المطلق يعمل دائماً خلال مرحلتين. في المرحلة الأولى يصبح مجرد «معقولية» غير محسوسة، وفي المرحلة الثانية يصبح «قانوناً» يحكم المادة. فنصف قطر الدائرة لا بد أن يساوي نصف قطرها الآخر. هذه «معقولية» غير مقيدة بالزمن والمسافة، وغير مقيدة بوجود الدائرة نفسها. ونحن لا نستطيع أن «نملك» دائرة في عالمنا إلاّ طبقاً لهذا القانون المطلق، وإذا خرقناه بطريقة ما فإن القانون لا يتأثر ولكن الدائرة هي التي تنعدم.

المطلق موجود «عقلياً» خارج المادة ولكننا لا نستطيع أن «ندرك وجوده» إلاّ إذا تجلى في شكل القانون المادي أي دخل أبعاد المسافة والزمن. وبكلمة أخرى، أصبح في وسعنا أن نعبر عنه بالرموز الرياضية أو اللغوية.

وهذه هي المشكلة التي تواجه لغاتنا في أداء مهمة التعبير عن عالم الله. إنها لا تدرك سوى مرحلة واحدة من المرحلتين المميزتين لوجود المطلق، وهي مرحلة «التجلي» في أبعاد الزمن والمسافة، فكلمة «أرسل» حركة داخل هذين البعدين، وكلمة «قال» فعل داخل هذين البعدين، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع الكلمات في جميع اللغات. إن لغاتنا لا تعرف سوى «نصف» المطلق. وبالذات نصفه القابل للتجسيد. ولكن هذا الخطأ لا يبدو غير قابل للإصلاح إذا أصبح بوسعنا أن ندرك أنه ناجم عن طبيعة العلاقة بين المسافة والزمن من جهة وبين المطلق من جهة أخرى. فنحن بوسعنا أن

ندرك أنه لا يكمن في شكل الكلمة بل في مفهومها وحده، وأن «المفهوم» عمل عقلي بحت نستطيع أن نمد أبعاده كما نشاء لكي نخرج بها من «العالم الحسي» إلى حافة المطلق.

إن الفعل الذي يحدثه الله لا يحتاج بالضرورة أن يقع ـ مثل فعالنا على الأرض ـ داخل نطاق محدد من الحركة والزمن، ونحن نستطيع «عقلياً» أن نحقق هذا المستوى، لا عن طريق الكلمة بل عن طريق «المفهوم». إننا نستطيع أن نفسر الفعل «أرسل» بالنسبة لله على أنه يغطي المسافة أو الزمن بإرسال أحد الملائكة، ونستطيع أيضاً أن «نفهم» الفعل نفسه باعتبار أن المسافة والزمن غير موجودين أصلاً بالنسبة لله. إن المشكلة لا تخص حروف الكلمة بل مفهومها العقلي وحده.. وكذلك الأمر بالنسبة لجميع كلماتنا. فالجنة تستطيع أن تعني بالنسبة لنا «الحديقة»، لأننا لا نملك تصوراً غير مادي لوجود أي شيء في لا مكان، ولكنها تستطيع أن تعني لنا حالة خاصة من الوجود الذي يحتاج إلى أبعاد المكان أصلاً. إن الاختلاف يقع دائماً في نطاق «المفهوم». وهو اختلاف أكبر من شاسع. إنه حقيقة الفرق بين كلمة: «اللات» وبين كلمة «الله»، بين المفهوم المادي المحدد لفكرة الله وبين المفهوم المطلق الذي يقع خارج نطاق المحسوس. وهو من جهة أخرى المنفذ الوحيد الذي تستطيع أن تجده الكلمة ـ أي كلمة في أية لغة ـ لكي تنتمي إلى عالم الله. فالسعي وراء المطلق منهج هذا العالم بكل تفاصيله.

إن ظاهرة التطور نفسها مجرد جزء من هذا المنهج الكلي الشمول. واللغة لا تقف ثابتة وحدها وسط الكون المتواصل الحركة. إن كلماتنا أيضاً تتطور، وتعيش حركة غير منقطعة متجهة إلى أعلى عبر ما ندعوه «بالتقدم الثقافي»، وإذا كان المرء لا يستطيع

أن يرى هذه الحركة في شكل الكلمة نفسها، فإنه يستطيع أن يراها في تطور مفهومها. إن كلمة «القمر» لم تعد تملك نفس المفهوم الذي كانت تملكه منذ ثلاث سنوات فقط.

الكلمات تتطور تحت السطح. تتحرك من داخل نطاقها الفكري، وتزداد مفهوماتها اتساعاً يوماً بعد يوم متجهة إلى «اكتمال التصور للمطلق» في عملية واحدة غير منقطعة للبحث عن الله. إنها لا تستطيع أن تواصل الاحتفاظ بمفهوماتها المادية حتى بالنسبة لعالم يخلو من المادة.

1970

السؤال الثاني

فقي من بنغازي كتب لي رسالة منذ يومين. بداية الرسالة سلام عاطر وشتائم، وسطها شتائم فقط، نهايتها شتائم وسؤال واحد، السؤال يقول ما معناه (بالله عليك أيها الكلب الضال في بلاد الكلاب الضالين هل أنت صائم؟). الفقي غاضب جداً فيما يبدو ولديه أيضاً ثلاثة أسباب وجيهة:

السبب الأول: أنني لا أؤمن بوجود العفريتة إيماناً كافياً.

السبب الثاني: أنني أتجرأ على الاعتراف بهذه الخطيئة في بلد مسلم مثل بلدنا.

السبب الثالث: ـ وهو بالطبع أسوأها جميعاً ـ أنني اخترت شهر رمضان المعظم بالذات لكي أعلن عن ذنوبي ولم أنتظر ريثما يحل شهر آخر.

حتى الآن لم أرد على رسالة الفقي. أعني ليس من باب الرغبة في عقابه على أسلوبه غير المتزن وليس أيضاً في إنهاء النقاش عن الغولة وفوائدها، فالواقع أن الموضوع شيّق إلى حد كافٍ بالنسبة لي سواء سمعته من عجوز وطنية بلغتنا العامية أو سمعته من فقي

طني بلغة الشتائم الفصحى. إن الذي منعني من الرد على الرسالة نارية هو السؤال البسيط التالي:

لقد قلت لنفسي (بالله عليك أيها الكلب الضال في بلاد لكلاب الضالين هل هذا الفقي صائم؟) ووجدت إجابته تدعو إلى لدهشة، إنني أحب أن أناقش أمامكم وجهة نظري في إيجاز. الصيام ـ فيما يبدو ـ ليس هو الجوع. إن الجوع في الواقع مجرد جزء جانبي من الملحمة الطويلة، أما الصيام فإنه الملحمة نفسها، إنه موقف عقلي سابق على الجوع والصلاة والشعائر والأصول الدينية الثقافية معاً. نقطة محددة يختارها الإنسان مقابل العالم وينطلق منها لعبادة الحياة الكلية الشمول ملتزماً إنكار ذاته المنفصلة. إنك بدون هذا الموقف الواضح لا تستطيع أن تضمن أن الله سيقبل صيامك أو صلاتك بل إن الرسول عليه السلام أعلن بالنص القاطع ن الصيام بدون هذا الموقف العقلي مجرد جوع بلا هدف. فماذا تعني كلمة (موقف عقلي) بتفصيل أكثر. إنها ليست (وجهة نظر) يست أيضاً (حكماً مسبقاً) يصدره المرء على شخص ما مرة واحدة، وإلى الأبد طبقاً لحكمه المسبق. كلمة (موقف عقلي) تعني شيئاً آخر مختلفاً كلية.

إنها بالنسبة للأخلاق تعني بالضبط ما تعنيه كلمة (رصيد) بالنسبة للنقود. فأوراق العملة لا تستمد قيمتها من ألوانها الخارجية أو شكلها المزخرف بل من نوع رصيدها فقط. إن نقودك بدون رصيد مجرد أكذوبة مزخرفة.. وأخلاقك بدون موقف عقلي إنساني مجرد نوع من التبن. هذه المقارنة ليست فوق السطح وحده. فالدينار المزيف يشبه الدينار الحقيقي من الخارج شبهاً تاماً لكنه لا يساويه في القيمة لأن رصيده لا قيمة له. كذلك فضيلة

رحابة الصدر تشبه من الخارج رذيلة (اللامبالاة) لكنها تختلف عنها كثيراً في طبيعة الرصيد. فرحابة الصدر تأتي عن فهم لطبيعة الأشياء وقدرة على الصبر والتحمل أما (اللامبالاة) فإنها تأتي من تبلد الإحساس والافتقار إلى المبادىء. جميع الفضائل تشبه جميع الرذائل من الخارج. ليس ثمة فرق على السطح بين منتهى الخير ومنتهى الشر. اللعبة متشابهة في الظاهر تشابهاً كلياً، لكن (الرصيد) وحده هو الذي يقرر الفرق الحاسم.

هذه الحقيقة أوردها القرآن في قصة متناهية الجمال في سورة الكهف عندما قال عن موسى:

﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما

خيراً منه زكاة وأقرب رحما. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾ صدق الله العظيم.

فالخير والشر يظهران أحياناً بوجه واحد في الخارج لكن الفرق الحاسم والمميت يقرره (نوع الرصيد) من الداخل. إن السلوك ـ مثل أوراق العملة بالضبط ـ شيء خال من القيمة في ذاته. شيء محايد لا يمكن وصفه بالخير ولا يمكن وصفه بالشر. الرصيد وحده هو مصدر المقياس. الرصيد وليس السلوك الخارجي، فماذا أردت أن أقول لك عن فقينا الغاضب.

إن سلوكه من الخارج على ما يرام. كل شيء فيه من الخارج يبدو على ما يرام. فقي كامل يشعر بالغضب لإهانة مقدساته ويقف للدفاع عنها. رجل يؤمن بالغولة ويستعد للدفاع عن معبودته إلى آخر قطرة من دمه. ليس ثمة فرق من الخارج بين رجل يموت دفاعاً عن الغولة ورجل يموت دفاعاً عن وطنه أو أهله. كلاهما يؤمن بشيء ما وكلاهما مستعد للتضحية من أجل إيمانه. الفرق في رصيد التضحية فقط، ومشكلة الفقي أن رصيده تبن.

إنه لا يكتب لي رسالته النارية لكي يهديني إلى الطريق السوي وينقذني من غضب الله ويجعلني من أتباع الغولة. إن أمري لا يهمه بمقدار تفلة ولا يهمه أيضاً أن أهتدي أو أذهب إلى الجحيم محمولاً على حمار أعور. ذلك كله أمر لا يخصه شخصياً في نهاية المطاف وليس من شأن منهجه الأناني أن يصيبه بالقلق على مصيري. لقد كتب الفقي رسالته لمجرد أن يرد لي (الإهانة) التي اعتقد أنني ألحقتها بسيدته الغولة. الإهانة وليس الهداية هي رصيد رسالته، ولهذا السبب كانت رسالته مليئة بالشتائم والحقد الأسود

والرغبة في التدمير. فالذي ينوي أن يهينك لا ينوي أن يكسبك أيضاً. إنه يعرف طريقه ويعرف أن الشتائم مؤلمة ويحشرها لك على الورق ويرسلها لك في البريد ثم يجلس على رأس الزنقة منشرح الصدر. هذا كل ما يريده لأنه أيضاً كل ما يستطيع أن يفعله. والمدهش في اللعبة بأسرها أن عجزه الواضح لا يشغل باله قط. إنه سعيد بعجزه سعادة الميت بموته. هذه هي الصفة الغالبة على أرصدة الأخلاق المزيفة.

العجز عن الإقناع. العجز عن التزام المنطق. العجز عن الاقتناع العجز في كل شيء. فالإنسان المزيف لا يملك قوة حقيقية في حوزته.. أبسط ما يستطيع أن يفعله هو أن يحقد عليك. فقينا الغاضب، يريد أن يقنعني بأنه يملك صندوقاً مليئاً بالفضائل إلى حافته. يريد أن يفهمني بأنه قريب من الله لأنه يصلي ويصوم ويؤمن بالعفريتة العضاضة. يريد بالذات أن يجعلني أشعر بفقري تجاه ثرائه الفاحش وأنكمش في الركن مثل الفأر وأموت بالحسد. أنا لا أستطيع أن أحقق له هذه الأمنية البسيطة لأن رسالته لم تقنعني بشيء سوى حقيقة معاكسة واحدة. لقد قالت لي عبر كل حرف إن هذا الفقي فقير مثل فأر جامع وإنه يزيف الفضائل كما يزيف اللص النقود وإنك لا تحتاج إلى أن تشعر بالضآلة تجاهه بل يكفي أن تشعر من أجله ببعض الرثاء. هذا ما فهمته من رسالته الغاضبة وهذا أيضاً كل ما يستطيع فقي أن يعطيه من رصيده التبن. قلت لكم لم أرد عليه.

لأني من جهة لم أجد ما أقوله، ولأن الفقي من جهة أخرى لا يحتاج إلى رد أصلاً. إنه لا يريد أن يسمع رأيي بل يريد فقط أن يؤلمني برأيه. لا يهمه مصيري في الجحيم بل يهمه رضاه الشخصي

في دار الدنيا. لا يدعوني بالكلب الضال لأنه يتمنى أن أصبح كلباً أليفاً بل لأنه يعتقد أنني سأزعل جداً من كلمة كلب. لا يسألني عن صيامي لأنه مشغول برصيد من الخير بل لأنه مشغول بحقده وكرهه عن صيامه الخاص. إن مشكلته بأسرها كامنة في داخله وليس من المجدي أن أحاول حلها له من الخارج. لذا لم أكتب إليه.

1971

صعود

(الشعر بدون منهج مثل العملة بدون
رصيد مجرد أوراق ملونة أكثر مما ينبغي).

منذ أربع سنوات كتب محمد الشلطامي عن الخامس من يونيو قصيدة صغيرة بعنوان (بطاقة). كانت تتناول القضية نفسها التي تناولها نزار قباني بعد ذلك ببضعة شهور في قصيدته (هوامش على دفتر النكسة)، وكان نزار بحكم تجربته الشعرية المتطاولة قد اختار مدخلاً مريحاً لنقاش القضية وأعطاها أبعاداً أكثر إثارة للهيبة، لكن المرء كان يحس بطريقة ما أن الشاعر الوطني المغمور قد فهم القضية بصورة أفضل مما فعل نزار قباني، وأنه حقق هذه المعجزة بالذات لأنه يملك منهجاً واعياً ـ غير قابل للزلل ـ يستطيع أن يقوده إلى التزام الحق دون عناء. طوال أربع سنوات كنت أتابع منهج الشلطامي في شعره النادر.

كنت أعرف أنه شاعر وطني بسيط من بلدنا البسيطة، وكنت أعرف أيضاً أن أحداً في العالم بأسره لن يخطر بباله أن يقارن بين شاعر وطني وبين نزار قباني، لكنني كنت أفعل ذلك في الخفاء وكنت أملك أسباباً هامة جداً لمواصلة المقارنة.

فنزار قباني ـ بالنسبة لي ـ شاعر بلا منهج. رسام عظيم ـ كما

يحب أن يدعو نفسه ـ لكنه رسام مخصص لخدمة السواح، رجل يجلس في السوق ويكسب عيشه ببيع البضائع الملونة والصاعقة الفتنة ويعتقد أنه (يحترق بنار الفن) لأنه أقنع نفسه ـ مثل بودلير ـ بأن الفن نار واحتراق. كنت أعرف زيف هذه النظرية بالذات، وأعرف أيضاً أن الفن منهج، فقط وأن نزار قباني لا يملك منهجاً حقيقياً وأن نجاحه الصاعق في منطقة الشرق الأوسط لا يختلف في شيء عن نجاح المتنبي في بلاط كافور.. مجرد لعبة مؤقتة تنال إعجاب جيل واحد وتبقى أضحوكة في فم بقية الأجيال.

محمد الشلطامي ـ في الجانب الآخر ـ منهج بلا شعر، فكر متناهي الأصالة والشمول لكنه فكر جاف محدد الأبعاد مثل معادلات الجبر، إنه لا يملك شيئاً من بضائع نزار قباني الملونة، لا يستطيع أن يستعمل ريشته المسحورة في ربط أجزاء الصور، إنه لا يملك في الواقع سوى منهجه العظيم وقليل جداً من الصبر على المعاناة الفنية، ولولا إيماني بأهمية المنهج البالغة لما خطر ببالي أن أتابع أشعاره طوال هذا الوقت منتظراً صعوده بثقة، لكني أؤمن بالمنهج، وأؤمن بالناس وأعرف أن نزار قباني لم يذق حلاوة هذا الإيمان في حياته قط، وأن محمد الشلطامي (البسيط من بلدنا البسيطة) حقق وحده هذه المعجزة.

إنه لم يعلن عن بضاعته، لم يقف في السوق ويلعب دور العاشق ويقول للناس إنه يحبهم وإنه يموت في حب الإنسان، لم يبع الحب في السوق على عادة بنات الهوى، بل أحب الناس حقاً وكتب لهم أشعاره البسيطة وذهب يبحث عن المزيد من الأشعار.. وفيما تبقى أسواق الهوى مفتوحة في الشرق الأوسط أمام الشعراء الداعرين الكاذبين، وفيما تظل كلمة الحب المقدسة مجرد تذكرة

مزيفة لحضور المعرض بالمجان، يظل الشلطامي وحده شمعة صغيرة مضاءة بروح الحب حقاً.

إنني أقارن قصائده بأشعار نزار، وأرى بوضوح أنه يفتقر إلى لمساته العميقة الصاعقة الجمال، وأنه لا يجيد الصياغة مثله ولا (يجثو على ركبتيه ويبحث عن كلماته بالملقاط) ولا يستطيع أن يكتب شعراً (ساحراً) يدفع المرء إلى أن يهتز طرباً ويرقص بهز خصره، لكن ذلك كله ـ بالنسبة لي ـ يعني أقل من لا شيء. فالمشكلة لا تخص هزّ الخصر، ولا تخص الطرب أو الكلمات المسحورة، المشكلة تخص (الحق) وحده ومنهج الشلطامي كله (حق).. قصيدة (بطاقة) تقول مثلاً:

(قل ما تشاء
واكتب بخط التاج ما نحت الشقاء
فينا، وقل متخاذلون،
جبناء، ماتت في عروق
قلوبهم همم الرجال
أنا قد هربت،
وتركت أحذيتي ورائي
وتركت خلف الجسر صوت
إذاعة الشرق القتيل
قل ما تشاء، أنا عميل
متخاذل، حافٍ، يجر وراءه
عاراً جديد
قل ما تريد

لكنما أنا لن أموت
أبداً لتركب جثتي للنصر. لا.
أنا لن أموت)

ورفض الموت بالذات فكرة معقدة جداً، وهائلة جداً، وليس بوسع بعض الشعراء العرب الداعرين أن يفهموا من أبعادها شيئاً ما داموا مفتقرين إلى منهج الشلطامي، إنهم مثل نزار قباني يضعون الحياة في موضع مخلاة الشعير التي يعلقها المرء في عنق حماره لكي يستغله بعد ذلك في جر المحراث. لا شيء يهمهم من الحياة سوى أنها وسيلة لجر محاريث السوء والعقد النفسية والعنصرية الضيقة الأفق وأمراض الثقافة المميتة. إنهم جميعاً ـ مثل موشى دايان الذي يعتقدون أنهم يكرهونه ـ مجرد أداة في يد الموت الأسود. مجرد أكذوبة فكرية، ولو ولدتهم أمهاتهم في إسرائيل وملأ اليهود أدمغتهم بثقافتهم المتهرئة لكتبوا نفس الأشعار الملتهبة مطالبين اليهود (بالموت) من أجل إسرائيل. إن أدب نزار قباني هو الوجه الآخر للدينار المزيف.

أما الشلطامي البسيط فإنه يمثل عملة من نوع مختلف، يمثل معدناً نبيلاً في ذاته وليس في شكله فقط، وهو بذلك أقدر على الدفاع عن حياتنا، وأقدر على حمايتنا من موتنا، وأعرض أبعاداً في معالجة قضايانا من نقطة الحق الكامل النقاء، وإذا كانت معالجته الفنية ما تزال قاصرة إلى حد ما في تحقيق أبعاد الشكل فإن منهجه العظيم قد عوضه بسخاء عن هذا النقص المؤلم، إن الشلطامي لم يكتب شعراً جميلاً لكنه كتب شعراً خالياً من المرض.

في (المرتد) يتجلى في تمام عافيته:
(حينما كنت أغني وأهيم

كان حبي

قبل أن تسحر عينيه النجوم

مثل صوفي يدوخ

كلما أتعبه طول الوجوم

وأناشيد الشيوخ..

كلما أذبل قلبي

ذلك العشق الخريفي الشجون

كنت أسكر

منك يا قطعة السكر..)

وقطعة السكر استعملها نزار قباني أيضاً، وأحسن اللعب بها كالعادة لكنه استعملها في الموضع الخطأ كالعادة أيضاً، وإذا كان هذا الجيل قد تعلم أن يفضل فكرة نزار لأنه مثله لا يملك فكراً، فإن الجيل القادم سيفهم منهج الشلطامي ويعيد له حقه الضائع في مكتبتنا، فقطعة السكر التي يتحدث عنها هذا الشاعر البسيط ليست خدعة لتسلية طفل عن البكاء، إنها حقيقة مروعة صاعقة لا ترد في دواوين باعة الأشعار والسكر ولا يعرفها بعض أطفال العرب الملتحون.

في قصيدة (الجوع) يبدأ احتراق شاعر أصيل:

(ويلي أنا الظامىء والبئر

بلا قرار

العهر والجبن وذل التيه..

والفرار

أين؟ وهذا الكون تحت قدمي ينهار
جلت مع السمسار
رأيته يسوح في الحانة
والأسواق
يعرض للتجار
المومسات الحور والمداد والأوراق
أذكر أن يومها سألت دون خوف
هل تحبل الحروف..)

والسؤال بسيط وحاد مثل موس الحلاقة. إنه بدوره لعبة شائعة بين شعراء الأمة العربية لكنه في رؤى الشلطامي بسيط وحاد مثل موس الحلاقة، فالرؤى الحافلة بالحق تنال دائماً مكانة خاصة في تعاملها مع الكلمات، إنها قد تخطىء موضع الجمال لكنها أبداً لا تخطىء موضع الألم. أردت أن أقول إنني لست قاضياً في محكمة أحد، ولست ناقداً للشعر أيضاً لكني أحب أن أقرأ كلام الناس عندما يتكلمون حقاً، وقد قرأت ما أفصح عنه بعض شعراء العرب وكرهتهم وكفرت بهم حتى وجدت شاعراً وطنياً بسيطاً من بلدنا البسيطة.

1971

بعض من رسائله

«أنا يربطني بوطني
قلبي.. وساعي البريد»

الرسالة الأولى

«موجهة إلى خليفة الفاخري»

خليفة.. يا صديقي

أنا أجمع لك الكلمات بإعياء مطلق.. ولكن دعني أحدثك.. طائر متوحد في جزيرة بدائية.. يقتعد تلة عند الشاطىء ويرى إلى المحيط.. ريشاته البيضاء تنعكس في زرقة الموج وعيون الأسماك المتوحشة.. طائر قلبه زمردة «صنعته شهرزاد من الخرز وورق العنب وقالت له ـ فيما هي ترسله من نافذة القصر ـ اذهب اجمع الكلمات واصنع من ذلك عشاً..».

وقضيت ألف يوم أرصف الحروف بين فرعي شجرة.. كانت حروفاً حقيقية.. ولكنها لم تستطع أن تضيء.. ولقد ظلت مطفأة مثل عيون الخنازير وظلت تثير حنقي حتى قامت شهرزاد بدفنها بعد ألف يوم آخر.. وقلت لها: أنا أريدها أن تضيء.. تلك العاهرات الصغيرة المفجعة يجب أن تضيء..

وفي إحدى الحانات تعلمت فجأة كيف أفعل ذلك.. وسطعت حروفي على كل لون.. وباتت تسبح في الأضواء العميقة المحرقة.. ولقد شهد الرواد ذلك بأنفسهم.. ورأوا إلي بفضول بالغ..

والتمعت شفاه العاهرات والعبيد.. ونضجت الخمر نضجاً لا شك فيه.. ورقصت الماسات الحقيقية في يدي كعرائس مسحورة متوحشة.. وتعلمت الموت.. وعلمت ذلك للعاهرات.. ولقد بتن ينتظرنني كل ليلة لكي نسكر معاً ثم نشاهد عرائسي في رقصها الباهر.. رأى ذلك كل الناس على مدى البصر.. وأحبته العاهرات والمقامرون والعبيد والرجال. وكانت المعارك تأخذ سبيلها في يسر مطلق.. والأوغاد يموتون في جميع الأوقات، بينما تواصل النساء السكر ثم يتعرين عرياً كاملاً.. ويطلبن من القوادين أن يقوموا بالفسق بهن.. وكان ذلك يحدث بوضوح، وتختار كل عاهرة من تشاء منهم.. ثم يرتمين على الأرض ويتبادلن الأحاديث بينما يجاهد القوادون لإرضائهن.. كنت أرى إليهم.. ثم أشرع في الحلم التالي:

تزوج السلطان.. وفرش قاع النهر نفسه بالسجاد.. وقام العبيد فرشوا موجاته بالعطر.. وزرعوا النعناع على ضفتيه.. ثم مرَّ قارب الأميرة العروس.. كان مصنوعاً كله من زمردة حمراء.. وكان شراعه قد حيكَ من أجنحة الفراشات.. ولقد ظلت الأميرة ـ فيما القارب يمضي بها ـ مغمضة عينيها مثل نيلوفرة من حرير. علي الزئبق ابن العجوز رمانة يقول لها: عندما تطلع الشمس.. وتمتلىء عيناك الساحرتان بالضوء.. سوف يشرع العبيد في الصراع.. ويغرق قاربك، وفجأة تغير وجه الماء.. وزحف النهر على ضفتيه.. وإذ طفقت الأمواج الهائلة ترتاده امتلأ النهر نفسه بقنافذ عملاقة شرعت تتقاتل في الحال.. ولقد أحدثت فيما هي تتقاتل ثقوباً هائلة في قاع النهر نفسه.

حكايتي عجيبة.. ولدت ذات مرة.. في أفحوص على شاطىء من شطآن الجنوب وتعلمت المطاردة والصيد.. وكان بوسع أي

«التجارب» في زجاجات الخمر وبين أرجل النساء عبر آلاف الأميال الموجعة.. وبعد أن قطعت كوماً كاملاً من السنين المقززة اكتشفت فجأة أن ذلك كان خداعاً سخيفاً لا قيمة له.. كان كذباً مثل أكاذيب الحواة والأطفال.. ولكن ثمة أمراً بشعاً كان قد حدث في الداخل.. فلقد توقفت فجأة في نقطة الوسط حيث تلتقي جميع الطرق الصاعدة والهابطة.. حيث كان من المفروض أن يقف الله وحده.. وفي ملايين اللحظات المتتابعة التي تسير في جميع الاتجاهات اكتشفت ـ برعب قاتل ـ أن تلك منطقة الصفر.. وأنني أقف عارياً في فراغ حاد.. ومتوحداً وحدة كاملة.. وكان لا بد أن يحدث انكسار في داخلي.. فلم تعد لديَّ أي قدرة على التكيف.. تماماً كما ينكسر الشراع المتصلب في وجه الريح.. ولقد حدث ذلك الانكسار فعلاً.. ولكنني لم أغرق بل ظللت أطفو في إصرار مثل حوت متعفن امتلأت أمعاؤه بمخزون هائل من الهواء.. ولقد ظلت عيناي مفتوحتان، ممتلئتان بالحياة.. تجوبان المحيط على مدى البصر.. وتريان إلى الآخرين الذين يحاولون في عناد ساذج إعادة التجربة مرة أخرى.. وتصلي من أجلهم.. فليس ثمة من يحتاج إلى الصلاة من أجله أكثر من هؤلاء الأصدقاء الذين تقوم الكلمات بخداعهم وتغريهم للشروع في المحاولات القاتلة..

إنهم أحسن الناس.. في عيونهم تتماوج آلاف من الأحلام الباهرة.. وقلوبهم زمردات.. بشر من نوع رفيع جداً.. غاية في الذوق.. أكثر الناس بذلاً هؤلاء الأصدقاء الذين تقوم الكلمات بخداعهم على نحو موصول.. ولكن أحداً لا يمكنه إنقاذهم بما في ذلك الذين قاموا بالتجربة من قبل.. فصلِّ من أجلهم أيها الحوت.. قم بذلك في جميع الأيام.. وفيما يتصل بخداع الكلمات فإن الأمر يمكن إيضاحه..

هذا طائر يشرب من أفحوص مليء بماء المطر! صورة غاية في الإثارة.. وسيشرع الأصدقاء في اختزانها. ثم يكتبها أحدهم على هذا النحو.. « ..ولقد كانت رحلة طويلة قطعها الطائر في صبر.. مستعيناً بمئات الأحلام الدافئة.. ممنياً نفسه بعش خاص بين جذعي سنديانة.. وإذ رأى إلى انقطاع الشاطىء.. وتناثرت قوارير الماء في الصخور أمام عينيه، هوى إلى الأرض واختار أحد الغدران وشرع ينعم بالماء..» ولكن الصورة لا تكتمل أبداً.. وإذ يشعر الكاتب بمدى الفجاجة في كلماته.. يكون كاتباً آخر قد صاغها على هذا النحو: « ..كان أكثر رفاقه شعوراً بالظمأ أثناء الرحلة.. ولقد هوى عدة مرات ليرطب جناحيه في ماء البحر، بينما انطلق رفاقه مواصلين الرحلة بمهارة أكثر.. وإذ بدا الشاطىء أخيراً انطلق هو الآخر في حماس نهائي حتى لقد سبق الآخرين جميعاً.. ولقد نسي ـ فيما هو يغمس منقاره في أفحوص مليء بماء المطر ـ كل آلام رحلته الطويلة..». والواقع أن الصورة لم تكتمل بعد.. وإن كان تصوير الرحلة أكثر دقة.. وفيما يعاني هذا الكاتب خيبته يشرع أحد الآخرين في إيجاد هذه الصيغة.. «ولقد اقتعد أحد الطيور حافة الأفحوص وشرع يشرب في بطء رافعاً رأسه في كل مرة.. وقد انعكست في عينيه صورة الشاطىء والأمواج والصخور البنية الناتئة..» ..وهذا كذب كله، لأن عيون الطيور لا تعكس الألوان.. ولكن التورط في الكذب مجرد خدعة أخرى من جانب الكلمات.. وتبقى بعد ذلك ملايين الصيغ الجديدة.. ولكن من يستطيع أن ينقل بالكلمات كل ذلك الجمال الذي يجده المرء عندما يرى إلى أحد الطيور يشرب من أفحوص مليء بماء المطر؟ إن ذلك يحتاج إلى كمية من الضوء.. والكلمات ـ كل الكلمات في كل اللغات ـ مطفأة

مثل عيون الخنازير.. وهي غير قادرة بأي حال أن تربط جانبي الحدث الفائر المتوهج الذي يقع بين طرفي الحياة نفسها.. أنا أرى إلى الطائر فيما هو يشرب ماء المطر.. أنا أحمل تاريخاً معقداً.. والطائر يحمل تاريخاً معقداً هو الآخر.. وكلانا ينظر إلى الأمور من زاوية مختلفة ومعقدة.. هو يشرب الماء وأنا أنظر إليه.. وكلانا لا يدري لماذا يفعل الآخر ذلك.. وبينما يعيش كل واحد منا ظروفاً مغايرة تماماً.. ويعاني الحياة على نحو مختلف، نواصل معاً الشعور بأن ثمة إطاراً واحداً يربطنا، وأننا جزءاً واقعياً من وحدة معقدة تمام التعقيد، فكيف يمكن للكلمات ـ أي كلمات ـ أن تصور كل هذا التعقيد الهائل.. ما الذي يمكن لتلك العاهرات السوداء الأنوف أن تفعله حيال تداخل ملايين وملايين أخرى مروعة من لفائف الحياة نفسها.. الواقع.. لا شيء.. فالكلمات غير قادرة على نقل الشعور.. ولكن حل المشكلة يأتي من طريق آخر، وهي حيلة موفقة من جانب الكتاب، ولكنها مليئة بالخداع.. فثمة كلمات قادرة قدرة لا شك فيها على استثارة الخيال ـ وهو آلة معقدة تعقيداً جيداً ـ والخيال قادر من جهته على أن يضيء.. وهذا يحل المشكلة فجأة.. والطريقة تقول:

ضع الصور بجانب بعضها.. وأكتب ذلك بأكثر الطرق اختصاراً.. وتذكر أن القارىء آلة تصارع الحياة في تعقيدها.. ثم تجنب منطقة الظل.. وهذا في الواقع كلام يسهل تفسيره:

فتكرار الصور يحدث تنبيهاً مفاجئاً، وإغراقها بالألوان يحدث فرقعات ذهنية مثل ألعاب عيد رأس السنة، ومن هنا تنشأ ضوضاء الصور.. وتبدأ اللعبة تأخذ طريقها.. دع الطائر ابن العاهرة يشرب، ووجه اهتمامك إلى الطرف الآخر.. ذلك الذي يشاهد الطائر،

فهناك تكمن فعلاً كل مراكز الصورة.. ولتكن جريئاً إلى أبعد حدود الجرأة في تصور الزمان ذاته، لأنه يرتبط بأبعاد الضوء.. ولأنه يعطي الصور لونها النهائي.

فالطائر الذي تراه في الظهيرة لا يكون غالباً جميلاً مثل الطائر الذي تراه في الشروق.. والطائر الأبيض في بيئة زرقاء كالبحر مثلاً صورة غاية في الجمال والدقة لأن ذلك ما يحدث في الطبيعة ذاتها.. والصقر يستحيل تصوره على الشواطىء ولكن عندما تستعير الكلمة إلى خطاطيف الماء وتسميها صقور الماء تكتشف فجأة نوعاً آخر من الجمال.. وهذا لب اللعبة.. أما مشكلة «الطرف الآخر» فيحسن عرضها بالتفصيل..

دع الطائر يشرب.. وراقب الآن ذلك الذي ينظر إليه.. فإن هناك حلاً للمشكلة.. « ..وفيما انطلق القارب في الخليج، برزت الشمس فجأة.. ونفذ الضوء إلى أعماق الماء الداكنة الزرقة.. وكان ثمة طائر يشرب من أفحوص عند رأس الخليج.. ولقد شرع يراقبه فيما التمعت أمام عينيه صورة الحادث بأكمله..». وهذا ما يسمونه رصف الصور بجانب بعضها وإغراقها بالألوان.. فالشمس ذات لون خاص يختلف عن ألوان المحيط، وعندما ينفذ الضوء خلال الماء يحدث لوناً آخر بالتأكيد، وفيما تتفجر الأضواء والحركة يقتعد الطائر حافة الغدير في جمود كامل بينما يتحرك الصياد ليراقبه مستغرقاً في حادث بعيد آخر.. وبذا يحتل الطائر بؤرة الصورة في عفوية مطلقة ولكنها مقصودة بدون شك.. وهذا أحد وجوه اللعبة.. ولكن ثمة ملايين أخرى من الحيل.. « ..وإذ كان يجتاز الغابة، طرق سمعه فجأة صوت الأمواج.. ولقد خيّل إليه أن ذلك وهم آخر.. ولكنه عندما وقف على حافة الغابة ورأى إلى المحيط

أمامه وضع يديه فوق صدره وشرع يصلي.. وقد ثبتت عيناه في هدوء بالغ على طائر اقتعد أحد الغدران وطفق ينعم بالماء.. ولقد نسي إذ ذاك كل ما حدث على طول الطريق.. وما كان ليظن أنه قادرعلى ذلك بأي حال..».

والصورة هنا لجندي هارب من الجبهة.. وهي خالية تماماً من الألوان ولكنها حافلة بالهدوء.. وهي موجزة تمام الإيجاز.. والطائر يحتل مركزها بالضبط بعد أن أضيف إليها خط صاعد آخر فيما يختص بالصلاة المفاجئة..

وحيلة أخرى..

«.. انظر هناك يا أبي.. دع الكنيسة وانظر إلى هناك.. بجانب ذلك الأفحوص.. إن ثمة طائراً يقتعد حافته.. وإنه ليذكرني بالله أكثر مما تذكرني أنت به.. ولكن كيف يمكنني إقناعك بذلك..».
وهنا يوضع الطائر في ملتقى الأطراف جميعها.. ويلفت الانتباه إليه بصراخ حقيقي.. وهذه حيلة من أبدع الحيل، ولكنها بدون ألوان.. والواقع أنه لا نهاية قط لمحاولات الكتاب المتصلة في سبيل تفادي مناطق الظل.. ولكن الثابت أن الكلمات مازالت عاجزة ـ بعد كل الحيل ـ على أن توزع الضوء وأطراف الصور بطريقة سليمة.. والذي يحدث أن الكاتب يلجأ إلى الكذب للخروج من المأزق القاتل.. أو يرفض أن يكذب ويظل يبحث ـ بلا انقطاع ـ عن طريقة مجدية حتى يحترق ذات يوم ويموت في إحدى الحضائر..

أنا مازلت أطفو في إصرار مثل حوت متعفن امتلأت أمعاؤه بمخزون هائل من الهواء.. ومازالتا عيناي مفتوحتين.. تجوبان المحيط على مدى البصر.. وتصليان من أجل الأصدقاء الذين تقوم الكلمات بخداعهم.. وتجذبهم من أنوفهم للدخول في تجارب

مضنية عديمة الجدوى.. وبعيدة بعداً لا شك فيه عن منهج السيطرة على الكلمات.

التجربة ليست أصل الكلمة الدقيقة.. التجربة العاهرة بنت العاهرة ليست أصل أي من الكلمات الدقيقة.. ولكنها قلب المشكلة ذاته.. إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالتجربة وحدها.. ولا تستطيع أن تفعل شيئاً بدونها.. وهي أكثر أسلحة الكلمات حدة وفعالية في مخادعة الأصدقاء.. إن الشيطان نفسه لم يقم بتضليل عدد من الناس أكثر مما فعلت الكلمات باسم البحث عن التجربة.. باسم النظرية الخاطئة الممتلئة بالعار، وأكبر الكذبات على الإطلاق التي تقول (عش أكبر قدر ممكن من التجارب قبل أن تشرع في الكتابة).. لأنه لا وجود لما يسمى (أكبر قدر من التجارب) كما أنه لا وجود (لقدر غير قاتل من الموت..).. ومن الثابت أنك لا تستطيع أن تكتب تجربة عشتها أنت، لأن ذلك بكلمة واحدة: مستحيل، فأنت لن تخرج من جلدك أبداً.. ولكنه يمكنك أن تتحدث عنها ببرود كامل بالنسبة لك نفسك، لأنك وحدك تعرف مدى حرارة الحقيقة وصدقها.. وليلعنني الله ألف مرة إن كنت لا أعرف ذلك تمام المعرفة..

والواقع أن من يسلك هذا الطريق يقضي عمره في جمع التجارب، وعندما يجلس ليكتبها يكتشف فجأة أنه لم يتعلم كيف يكتب.. تماماً كما تتمرن على إنقاذ الغرقى وتنسى كيف تتعلم السباحة.. أما الذي يسلك الطريق الآخر ويشرع في الكتابة مباشرة فهو يقترف نفس الخطأ.. وسيجد عمل كاتب عمومي في إحدى المحاكم.. ولكنه لن يكون كاتباً بأي حال..

وهذه هي المقصلة!!

أفليس ثمة طريق إلى الخارج؟ .. أنا أقول: لا.. ليس ثمة طريق من أي نوع إلاّ إذا كانت التجربة ذاتها حقيقية.. وترجمة كلمة «حقيقية» هي: أن تكون التجربة ذاتها نافعة للحياة.. منسجمة مع اتجاه القانون العام.. وواعية ليس بها جزء واحد مصاب بالتخدير أو بالغرور أو بسوء الظن أو حسنه.. وهذا يعني أن تكتب التجربة بمجرد أن تعيشها، ولا تقم باختزانها قط لأن تلك كذبة قاتلة..

ولكن دع عنك ذلك.. أنا، عليَّ اللعنة، لا أفتأ أكذب مثل الحمار.. فالواقع أنني لا أدري شيئاً عن هذا الموضوع.. ولتذهب الكلمات.. جميع الكلمات والكتاب وعمال المطابع وصانعي النظارات إلى أسفل الأرض حيث ذهب الشيطان نفسه.. فليس ثمة كلمة واحدة غير بنت زناء.. وليس في الدنيا غير حقيقة واحدة مفجعة لا يمكنني قط أن أعترف بها لأنني بنيت حياتي على تجاهلها، وأنوي أن أتجاهلها إلى النهاية.. فدعني أحدثك عن موضوع آخر.. إن ليبيا بلد مبني بالقش ويطفو فوق بحيرات البترول.. فما أسهل أن تندلع النار فيه.. أن تحرقه من أساسه فلا يبقى منه سوى عظام الخنازير والنساء.. ولكن ذلك لن يحدث الآن لأننا لم نكتشف النار بعد.. نحن المساكين الموغلين في البدائية والعناد.. غير أن ذلك ليس كل شيء.. فالآخرون أيضاً يعيشون في حقبة مساوية، ويمارسون النوع نفسه من الحياة المرتبكة.. وهم لا يتفوقون علينا بأي حال، ولكنهم يشعرون ـ بطريقة غامضة ـ أنهم بشر أحسن منا بكثير.. وهذا ما يحيرني إلى حد الشعور بالشلل..

قلت لأحدهم: هل تعتقد فعلاً أنك أحسن مني مثلاً..

فقال بهدوء: لنقل إنك لا تمثل الليبيين تمام التمثيل لأن عدة

فرص قد أتيحت لك.. ولكني أعرف أنني أحسن من كثير من الآخرين.

وقلت له: أنت طالب بالجامعة، ومن المفروض أن تجيب على معظم الأسئلة.. ما الذي يجعلك تعتقد أنك تفضل الكثير منا؟

فقال ببرود: كل شيء أيها الأخ. كل شيء.

وأحسست بالغضب، وطفقت أحدثه عن أول لقاء بيننا. قلت له: هل تذكر أول مرة رأيتني فيها.. لقد كنت تجلس هنا .. في هذا المكان بالذات.. وكنت تشعر بالزهو بلا شك.. ولقد مددت لي يدك ببرود عندما قدمني أحد الأصدقاء إليك.. وما كان أحد ليقنعك بأنك مجرد ولد مخدوع لولا أن قمت أنا بذلك.. ولقد أثبته لك أمام أصدقائك جميعاً.. وتورد خداك السمينان.. وشرعت تهذي على غير هدى حتى لقد قتلتنا بالضحك.

وقال بحقد: أنت تبالغ أيها الأخ..

ولم أشعر برغبة في الاستماع إليه، فأنا لم أبالغ قط.. ولقد حدث ذلك في وضح النهار.. وفجأة قلت له: أنا لست أخاك.. ولا أحب أن تدعوني بذلك.. ولا أريد أن أناقش معك موضوع الشعور بالسمو، لأن ذلك عقدتكم جميعاً.. ولكن دعني أقل لك أيها الحشاش المليء بالعقد والفول إنك لا تفضل أحداً ولا يفضلك أحد في بلادنا.. فكلنا أبناء زناء.. وإن الله ليعرف ذلك..

وفي اليوم التالي تسلمت إنذاراً بالفصل.. ولم أشأ أن أتركهم ينتظرون خطأ آخر.. فقدمت لهم ورقة صغيرة في الحال.. وقلت لهم: أنتم أحسن الشعوب.. وأنا لا أريد أن أقيم عندكم.. فأرجو أن تقوموا بتسليم أوراقي للسفارة.. ولكم أطيب الأماني.. وليكن الله معكم.. وهكذا انتهت أعجب منحة دراسية في العالم..

واستدعاني السفير، وشرع يخاطبني كأنني طفل.. قال لي: اسمع يا ولدي.. إن مصلحتك فوق كل اعتبار ويجب أن تعود إلى دراستك.. ولا يهمك قط ما يعتقده الناس عنا.. وعندما عدت كتبت للسفير الرسالة التالية..

سيدي المحترم..

بعد التحية..

(أنا لست ابنك، ولا يمكنني أن أكون كذلك.. ومن ناحية مستقبلي لتثق سيادتك أنه لم يتأثر قط بقرار التخلي عن الدراسة هنا وأنا أعرف ذلك.. أما بالنسبة لحادثة الشجار فأنا أقسم لك أنني لم أتشاجر من أجل ليبيا، ولا يهمني قط ما يقال عنها وليس في نيتي أن أبدي أي اهتمام تجاهها، ولكنني تشاجرت، وسأقوم بذلك متى أشاء، لأن ذلك الحشاش النتن المليء بالعقد لا يفضل في الواقع أياً من أصدقائي الذين أعرفهم، ولأن الدراسة هنا لا تطيب لي بأي حال.. فأنا يا سيدي ـ وبمنتهى التواضع ـ أكبر كثيراً مما تنمي عليه ملابسي البسيطة.. وأساتذتي أصغر كثيراً من ملابسهم ومظاهرهم.. وإذ أودعك. أتمنى لكم جميعاً كل الخير والنجاح.. وأنا أعتذر إذا كان في رسالتي ما يسيء إلى مشاعرك..)، وانتهت مهزلة أخرى.. وذهبت أتقيأ لكي أتخلص مما علق بأحشائي من غباء السفير والحشاشين.. ولكن الله أراد أن يحدث ذلك على نطاق أكبر.. ولقد دعيت إلى الحفلة المقامة بمناسبة عيد الاستقلال.. وأثيرت المسألة السخيفة مرة أخرى ـ أثارها صحفي بدار الأخبار ـ ووجدتني أتقدم بإغماء كامل، وأحدثهم طوال ساعتين في حشد يضم جميع أبناء العاهرات في العالم.. ولقد أفرغت جهدي فقد كنت أختبر نفسي مباشرة.. وكان يهمني أن أعرف مدى الفرق بيننا.. وأنا أعرف الآن أن ذلك قد وضح تماماً..

وأن الحشاشين والسفير يدركون الآن معنى ما قصدته في رسائلي إليهم.. وأن ذلك لم يكن ادعاء باطلاً من أي نوع.. ولقد جلسوا جميعاً كالأطفال وكفوا عن النكات والكذب وشرعوا يستمعون في خضوع تام.. ولقد رأوا بأعينهم أن ثمة عالماً بأكمله قد تمَّ انتاجه دون أن يعرفوا عنه شيئاً..

وقال لي السفير بعد الحفلة: صادق يا ابني ـ رغم أنك لست ابني ـ أنا مستعد أن أنسى رسالتك، وأعيد لك مرتبك من جديد.. وقلت له: يا سيدي الفاضل أنا لست في حاجة إلى ذلك.. بل لقد سرني أن ينتهي الأمر بيننا.. فأنتم كنتم مثل القيد في يدي.. وكنتم أسوأ القيود على الإطلاق.. ومن ناحية أخرى أنا لا أرغب في العمل في ليبيا بأي حال، وليس في نيتي أن أقيم هناك أكثر مما تحتاجه إجراءات سفري إلى بلد آخر.. والواقع يا سيدي أنني كبرت جداً على بلادنا.. ثم شرعت أنظر في عينيه بصفاقة تامة.. ولقد أحس أنني لا أريد الحديث معه فدخل إلى حجرة الاحتفال.. وعدت أنا إلى بيتنا.. وكان ذلك نهاية محزنة لعملية معقدة من الادعاء غير المعتدل.. وقد أرادها الله نفسه..

ولكن مشكلتي لم تنته بعد.. فأنا رجل يملك الكثير.. يملك العالم بأجمعه، وبوسعي أن أذهب إلى أي مكان وأجد عملاً.. ولكن ما قيمة ذلك إذا كنت سأعيش مثل كلب ثري عجوز.. بلا قدرة على العراك.. أنا أريد أن أتحرك. أن أقوم بذلك في جميع الأوقات.. ولا أريد أن أذهب إلى الجامعة وأشتغل في صناعة الأحجبة.. أريد أن أعيش بعرض السماء واتساعها.. وأريد أن أنهي معركتي مع الكلمات على نحو جيد.. بعد أن تمَّ استعدادي لذلك.. فأين طريقي؟!

ليس ثمة طريق معيناً أيها الحوت.. فأنت تعيش في عالم عجيب تمت صناعته في أقسى الظروف.. ولقد فصلك ذلك عن الناس جميعاً.. وما عاد بوسعك أبداً أن تمرّ خلاله لتصل إلى الآخرين!! فدع ذلك كله وأغمض عينيك.. وأغمضت يا صديقي عيني.. وشرعت أمارس الحزن.. آلاف من الذكريات المتوهجة والميتة تحتشد في طريقي.. وآلاف أخرى من الأفكار المتوحشة المنطلقة كالجياد البرية في غير اتزان.. وعيون الأصدقاء والأماكن.. وكلمات الود على طول الطريق.. وأضواء القطارات والمدن، والحجرات الصغيرة الغارقة في الدخان وروائح النبيذ والسأم.. وآلاف الوداعات المشحونة بالأحزان والتوتر.. دنيا كاملة مربكة إلى أبعد الحدود.. وعشرات القمم المترامية بين السهول.. والحانات والمقاهي والإهانات.. والشموس الساطعة بلا انقطاع.. وملايين حقيقية من الأصوات الحادة المحرقة.. ليس ثمة نهاية أبداً.. ليس ثمة حد حقيقي على أي من الممرات.. فأين يريدني الله أن أذهب؟

أنا أكاد أنهي معركتي مع حروفي.. ولقد رأيت بفرح بالغ أني لست عاجزاً عن ذلك.. أما بالنسبة للناس ـ هؤلاء الأوغاد الذين يكذبون بلا انقطاع، والآخرين الذين لا يحسنون المزاحمة ـ فأنا الآن أعرف كيف أفتح أفواههم دهشة.. وكيف أكون صديقهم اللعين.. ولكن أين يريدني الله أن أذهب؟ أنا لست أدري.. وليس من حقي أن أدري.. غير أن السنوات الثلاث القادمة ستكون مسرح معركتي مع الضياع.. فقد قررت السنوات الثلاث الماضية إلى أي مدى يمكنني أن أمضي.. ولقد رسمتها يوماً بيوم، وقررت ـ في تمام الوعي ـ كل لحظة فيها.. ولقد رأيت أنها كانت أجدى السنين.. وأكثرها خصباً.. فلننطلق الآن.. ودعني أتمنى لك أنت حظاً طيباً.. أيها الصديق الحبيب، فإنك تحتاج إلى ذلك بدون شك

وأنت تناضل للخروج من منطقة الفخاخ المنصوبة على طول الطريق.. وانتظرني دائماً.. فأنت تعرف أنني لن أنقطع عنك.. إذ ليس ثمة شيء أكثر لطفاً من أن تكون صديقي.. حظاً جيداً أيها الحبيب.. وألفاً من أطيب الأماني.

أخوك صادق

القاهرة **1965/1/10**

الرسالة الثانية

«موجهة إلى رشاد الهوني»

عزيزي رشاد.

لعلها هي المرة الأولى التي أكتب فيها لك منذ أن غادرت الوطن، ولعلها ـ أيضاً ـ المرة الأولى التي أكتب فيها لإنسان في بلدي الذي أحن إليه، وأتعطش إلى رؤياه، ولكن تمنعني من العودة إليه أمور كثيرة. إنني هنا في مدينة فرانكفورت، وفي ضجيج شوارعها وهدير آلاتها ومصانعها، ووحشية موسيقاها وصخبها، أحس شوقاً عارماً يهز كياني، وحنيناً جارفاً إلى لمحة خاطفة لمدخل مدينتنا الصغيرة. رغم أكواخها، وطرقها المهدمة، ومستنقعاتها الكثيرة الموزعة حولها. اشتاق إلى ناموسة، من ـ سبخة ـ الصابري تلذع وجهي.. وأحن إلى سهرات الدردشة التي لا نمل خلالها من الحديث الفارغ، وأشتاق.. وأشتاق.. إلى رائحة الملل التي تعبق في بنغازي. ورغم كل ما هو حولي هذه اللحظة.. فإني يا صديقي أحس بفراغ هائل، وأحس بوحدة لا يقدر على اقتحامها ضجيج الدنيا وهديرها، لأنني غريب.. ولأن الذين حولي لا يرتبطون بي ذلك الارتباط الغبي الذي نتعصب له.

ولكن.. هل أنكر سعادتي بهذه الغربة؟ كلا.. إنني في الواقع

سعيد بغربتي.. لأنها أقل تأثيراً في نفسي من غربتي في بلدي. وما أسوأ أن يحس الإنسان بالغربة في بلده. أنت تعلم متى افترقنا.. لقد تركتك في بنغازي تحترف الجلوس على المقاهي.. وتقطع المسافة ما بين بنغازي والبركة(*) على قدميك لأنك لا تملك قرشاً يوصلك إلى هدفك.

وتدور دورة واسعة حول المدينة هرباً من الشوارع «الملغمة» التي يوجد بها دائنون، في تلك الفترة يا صديقي.. كان الإنسان في بنغازي يلتقي بوجه صديقه مئات المرات كل يوم.. وكان يكفي أن يكتب على الرسالة المرسلة إليك اسمك فقط لتصلك. وكان من الممكن العثور عليك حين أسأل أي عابر عن مكانك.

ولكننا رغم كل هذا.. كنا نصرخ.. ونضحك من أعماقنا.. ونفرش نفوسنا حرة في الشارع والمقهى والمنتدى.. ولم يحس أي منا ـ في أي يوم من الأيام ـ حاجة إلى المال.. أو ضرورته فقد كان طموحنا عظيماً ورائعاً، ولكن المادة لم تكن كل الهدف.. بل كانت علاقاتنا روحية خالصة، فلم يعنفنا دائن في أي وقت، ولم يمتنع أي إنسان عن المساعدة حين كنا نطلب المساعدة.

كنا بكلمات قليلة.. مجتمع إخوة، وأحباء، وصداقة متينة، وكانت لنا حريتنا.. وأمننا، وتعاطفنا. كنا مجتمع رجل واحد، رغم التفاهات الصغيرة التي كانت تحدث بيننا. لقد أصبح كل هذا ذكريات قديمة جداً. فبعد أن تركتك وخرجت إلى العالم الآخر.. تصورت أنني تخلصت من عمر قديم، لأستقبل عمراً جديداً لامعاً. فعرفت الأصدقاء الجدد والصديقات اللاتي لم أعرفهن طيلة عمري الذي مضى.. وتعلمت الرقص.. وحصلت على عدة دبلومات، ثم

(*) إحدى ضواحي مدينة بنغازي.

حصلت على الماجستير. وبعد سنوات طويلة من الشبع، هزمني شوقي إلى بلدي.. إلى شوارعها الخالية. والأصدقاء الذين تقابلهم في اليوم مائة مرة، ولقد حدث.. وعدت. ورغم أننا لم نلتق خلال زيارتي.. رغم هذا فقد كنت هناك.. حيث لم أجد شيئاً مما تركت.. وحيث صدمتني دلائل القرف التي ارتسمت على ملامح الناس. أين الأصدقاء؟ أين مجتمع الرجل الواحد؟ أين أنت يا صديقي بصراخك الذي لم يكن يكف.. بالنوادر التي كنا نقوم بها! أين مقهى شتوان.. وسينما الهلال. ومطعم الفيكتوريا، والأمبريالي. أين كل هذا؟ ألم تكن المدينة كلها تجتمع في هذه الأماكن؟ ألم نكن نتبادل الود، والمحبة والتعاطف، والأخوة والتلاحم والترابط، والفرحة، والمواساة والشكوى، والصراخ؟ ألم نكن مجموعة رائعة تستحق القبل؟ ألم نكن مجتمعاً عظيماً رائداً؟ إذن.. أين كل هذا.. أأصبح مجرد ذكريات قديمة! لقد أصاب الناس الذهول. وعبروا السنوات الماضية بقفزات شيطان أعمى.

لم تعد بنغازي هي تلك الحبيبة التي ترضعنا الحنان، وتمدنا بالقوة، وتجد فيها عدلك وأمنك، وطمأنينتك. ولهذا فلقد شعرت فيها بالغربة. شعرت أنني إنسان متطفل لا مكان لي. كان الأصدقاء يلوحون لي على الطريقة الأميركية وهم ينهبون الشوارع بسياراتهم اللامعة، وكأنني لم أفترق عنهم كل هذه السنوات. لم يهتم بي الذين أرسلوني للدراسة في الخارج. ولم يسأل أي إنسان عن تحصيلي، وعن فترة العلم المضنية التي قضيتها بعيداً عن الوطن. وكأنني مجرد حبة رمل في صحرائنا العظيمة الغامضة.

وكما صدمت بالعالم الآخر حين تركت بنغازي، صدمت ـ أيضاً ـ ببنغازي حين عدت من العالم الآخر. كتب عليَّ أن أنشطر نصفين حزينين يائسين.. غريبين، وأصبح من الواضح أن أختار فأنا

نكرة في بلدي.. كما في هذه المدينة الصاخبة فرانكفورت.. وأنا غريب في ليبيا.. كما أنا غريب في هذه الدولة الكبيرة ألمانيا.. وأنا في بنغازي أعيش في مجتمع مادي، غريب الطباع، قاسي الملامح.. فاقد الأصول.. ولكنني في ألمانيا لا أرتبط بأي مجتمع. واخترت الغربة الاسمية.. لأنها أخف وطأة من الغربة النفسية وأنت بين أهلك وأصدقائك.

هل أنا مخطىء؟

أتشعرون بالراحة؟

ألا تحسون الذهول، والدوار، ألا تتذوقون المرارة التي امتلأ بها فمي؟

إنني الآن أعد للدكتوراه.. وجامعتي تتمسك بي.. ولقد تزوجت فتاة من الشمال، وولدي يفتح عينيه بصعوبة ليكتشف الحياة من حوله.. ولا زلت أدق أذنيه بلهجتنا الليبية لربما عاد إلى بلده ـ يوماً ما ـ فتكون لغته وسيلة لأن يعيش بين أهله في مجتمع آخر ينعم بما يفتقده الناس الآن.

تحياتي لك.. وحبي للجميع

صادق

1965

الرسالة الثالثة

«موجهة إلى رشاد الهوني»

صديقي رشاد.

ثلج .. كل الطرق مغطاة بالثلج. والنوارس وصلت لتوها من أقصى القطب، وطفقت تذرع أرصفة الميناء بحثاً عن سفينة ذاهبة إلى إفريقيا، لو كنت رباناً! لو كنت قرصاناً وعندي سفينة، لتركتها الليلة تنام في عنابري، وأطعمتها قمحاً مغربياً، وحملتها إلى إفريقيا. فالجوع مرٌّ مثل أكل الملح. والطرق مغطاة بالثلج. والغربة مكتوبة على جبين النوارس.. لمن أكتب أنا؟ للجزار عبد الرازق؟ لباعة الصحف والخبز والهريسة؟ للمتعهدين البؤساء وسائقي عربات النقل والبقالين والطلبة.. والخفراء؟ لمن؟ ومن يهتم بنوارسي في نهاية المطاف؟ من يتصدق بتفلة؟ دعني أكذب عليك: أنا رجل شجاع. وأقع على بعد أربعة آلاف ميل، ولدي بدلة من النحاس، واسمي دون كيخوت.. ولا أعرف باقي المشكلة.. وقد خيّل إليَّ ذات يوم أنني أكتب للجزار عبد الرازق، لذلك الرجل الدموي البسيط، الذي لا يفهم كلمة واحدة مما أقوله، ولم ير في حياته نورساً يبحث عن سفينة.. ولا يهمه أن يرى واحداً منها.. في ذلك اليوم فقدت طريقي لآخر مرة. واكتشفت أن صديقي الجزار عبد

الرازق، وباعة الخبز والهريسة.. والمعلمين الحكماء، أكثر ثباتاً من لحظات الشعر المجنونة التي تجرني من أنفي على الدوام، وإننا معاً غرباء جداً رغم كل الروابط، والحبال، وكلمات الود المطفأة.. وقد أحسست بالوحدة إذ ذاك، وتمنيت لو أنني رجل غني. ثم مرَّ عام كامل. ورحلت كثيراً، والتقيت بمئات الجزارين، وتعلمت قرص العجائز في عربات النقل المزدحمة، ولكني لم أتعلم شيئاً يخص باعة الخبز فوق أرصفة بنغازي، ولم يكن ثمة فرصة واحدة لأن أجد طريقي مرة أخرى..

ومرَّ العام التالي.. وسقط الثلج ثم ذاب، ومرَّ العام التالي، وحلمتني القطارات إلى كل مكان، وسرق النشالون حذائي مائة مرة. وفي ذات يوم التقيت برجل كبير قادم من ليبيا.. كان رجلاً فخماً محاطاً بالمهابة، وكان يمشي بوقار مثل بو عبعاب(*).. وقد مدَّ لي يده وتركني أقبلها مرتين.. وعندما فتح فمه في النهاية دعاني «حماساً»(**) لا يمكن أن يقلى فيه «الجاتوه». هذا مجرد لغز شخصي. أنا لا أريد أن أحيرك، ولكنه قادني بيسر إلى الحل الذي كنت أبحث عنه طوال الأعوام الماضية. إذاً فالمشكلة ليست مشكلة نوع في ليبيا.

إن المرء يستطيع أن يكون ما يشاء: جزاراً أو موظفاً أو بو عبعاب.. دون أن يتحرك قيد أنملة وحيدة عرجاء في أي اتجاه.. إن المرء يظل دائماً قوقعة. سوف أحدثك بالتفصيل: الرجل الذي دعاني «حماساً» لا يقصد إهانتي، ولكنه لم يتذكر أن ذلك الإناء

(*) اسم طائر (الهدهد) بالعامية الليبية.

(**) الحماس. بتشديد الميم، يطلق وفق العامية الليبية على الوعاء الذي يستخدم في القلي، ولعل أصلها فصيح، من قولهم، حمس اللحم أي قلاه.

لا يجوز أن يقال اسمه لإنسان آخر.. لأن الرجل الكبير لا يعرف إنساناً آخر عداه، هل فهمت ما أعنيه.. إن القوقعة.. والقطة العمياء.. والرجل الأناني لا يعرفون أن الله خلق شيئاً آخر في العالم سواهم.. وليس ثمة فرصة لأن يعرفوا ذلك قط.. فالمشكلة تبدأ من الداخل.. من تلك العينين المغلقتين بإحكام مثل ثمار جوز الهند.. ومن هناك أيضاً تبدأ مشكلة صغار الكتّاب الذين يحاولون عبثاً أن يعرضوا بضاعتهم للبيع في سوق معتمة لا ينفذ إليها الضوء..

ماذا تصنع العمياء بالمرآة؟ ولمن يحرق الساحر بخوره وراء أبواب المعبد المغلقة.. إن مشكلة ليبيا ليست هي الأمية ولكنها «العزلة الثقافية» بين أفراد المجتمع الواحد. إن بلادنا مصابة بمرض «الإقفال».. وإذا كنت لا تصدقني فدعنا نتحدث عن المشكلة من الوجه الآخر.. نحن مضطرون إلى متابعة قضايا الفكر الحديث، فمن يعرف «عبد الوهاب البياتي».. ومن يهتم بمشاكله المعقدة؟ الجزار عبد الرازق؟ باعة الجيلاتي؟ المتعهدون الذين ينزفون عرقاً فوق ممرات وزارة الأشغال؟ من؟

حاول أن تشتمني إذا شئت.. ولكني سأقول لك إن الناس عندنا لا يعرفون البياتي.. ولا يهتمون بمعرفته.. لأن البياتي لم يولد بعد بالنسبة إليهم.. إنه مازال طفلاً في السماء، وسوف يولد بعد سبعة قرون..

أما الطلبة الذين يذرعون الشوارع مفتحي العيون فإن أحداً لا يراهم ولا يصدقهم.. فالحفرة فظيعة الغور.. والشوارع متشققة على الدوام.. والصراع البارد المفجع يوالي نموه في كل ركن مثل نبات الحلفا والقصب. المقالات الغامضة.. قطعان الكلمات الكريهة التي يمزق صغار الكتاب صدورهم لإصلاح أمرها.. قصائد الشعر..

والنوارس.. وقصص الحب السيريالية.. كل ذلك مجرد وهم محزن.. مجرد شيء غريب في دكان الجزار عبد الرازق.. وجيب المتعهد المبلول بالعرق والعطور.. إن الناس كلهم غرباء.. والحل يا صديقي يقدمه إليك الآخرون بالمجان.. سيقولون لك: كف عن ارتكاب الحماقات، واكتب عن «الواقع».. اكتب عن «مشاكل القرّاء».. ومعاكسة البنات.. واشتم الأغنياء.. وامدح الفقراء.. وباعة الجيلاتي.. هذه وصفة الطبيب الساحر لكاتب صغير مثلي.. ومثلك.. فماذا تنتظر؟ دعنا نكتب مقالاً واحداً من نسختين وتكفل أنت بشتم المدير في وجهه وسوف أشتمه أنا من الخلف.. ثم نكتب مقالاً آخر في هجاء حراس البلدية.. وقصيدة فظيعة لأحد الوزراء لكي نثبت أننا كتّاب شرسون يمارسون حق الحرية.. والنقد. وعندما تنقطع المياه، وتنطلق المقالات النارية من كل مكان في أعقاب وزارة الأشغال، لا تكتف أنت بذلك، ودعنا ننل نصيبنا من جثة الوزارة.. إن كل كلمة في ليبيا يجب أن توجه لإعادة المياه إلى مجاريها.

لا تعودي يا سيدتي المياه. فإننا سنفقد موضوعاً هائلاً إذا عدت.. وإذا صلح أمر الشوارع وعربات النقل وحراس البلدية.. فماذا يبقى بعد ذلك. الطريق لا نهاية وراءه يا صديقي رشاد. وتعقب المشكلة لا يجدي.. إننا لا نستطيع جميعاً أن نتوفر على قضايا الشتم لكي نظفر باهتمام القواقع، فتلك المخلوقات تظل مغلقة على الدوام.. مهما ركلتها فوق رأسها.. إن أحداً لا يهتم بالآخر.. والجزار عبد الرازق لا يقرأ مقالاً مخصصاً لشتم وسائل النقل لأن تلك ليست مشكلة مادام عنده (الكاليس)(*).. والعامل

(*) الكاليس: إيطالية، تعني عربة صغيرة يجرها حيوان.

اليومي لا يهتم بمشاكل الموظفين، وباعة الخبز لا يقرأون مقالاً عن باعة الصحف.. إن الأمر إذا صار على هذا النحو ينتهي قبل أن يبدأ.. والحل الحقيقي أن يكسر أحد ما عظام القواقع.. أن يفعل الكتاب ذلك قبل أن يفعله الله بنفسه، ويتركوا الضوء ينثال إلى الداخل عبر ضربة معول حاد.. الضوء.. لا الخبز.

لمن أكتب أنا؟ سأقول لك: لبدلة النحاس المتينة، لأربعة آلاف ميل معبأ بالشوق والأمنيات.. للجزار وباعة العظام وسائقي عربات الأجرة والنقل.. وللخفراء.. والطلبة.. أنا أكتب لكل من أعرفهم.. وليس ثمة ما يخيفني من أي اتجاه.. فالنقد لا يشعرني بالارتباك.. وإذا كان أحد لا يفهمني الآن.. فسوف يأتي رجل آخر ويفهمه كل أحد على الفور. أنا لا أريد أن أحقق شيئاً، سوى أن أهيىء مكاناً لذلك الرجل القادم في الطريق، أجعله أكثر ألفة.. وأعطيه فرصة لكي يقترب خطوتين. ما يمدني بالقوة.. أنا أعرف أنه قادم.. وأنت تعرف ذلك أيضاً.

أخوك صادق

1967